2020

2.1.2020

قصص

دون ديليلو

الملاك إزميرالدا



ترجمة: دلال نصر الله

دون ديليلو

الملاك إزميرالدا

تسع قصص

ترجمة: دلال نصر الله



الملاك إزميرالدا

تسع قصص



قصص

Author: **Don DeLillo** — اسم المؤلف: دون ديليلو

Title: **The Angel Esmeralda** — عنوان الكتاب: الملاك إزميرالدا

Translated by: **Dalal M. NasrAllah** — ترجمة: دلال نصر الله

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2018** — الطبعة الأولى: 2018



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

«مُنجز أستاذ حقيقي»

الغارديان

في الثناء على الملاك إزميرالدا

«مبهرة للغاية... ستوفّر هذه المجموعة الرضا لمعجبي ديليلو، وهي كذلك أفضل مقدمة لأولئك الذين لم يكتشفوا عالمه الاستحواذي».

Daily Telegraph

«أنا أحب أدب ديليلو... هذه القصص التسع تضيف شيئاً أساسيّاً، وتكوّن إضافة جوهرية للمتن الأدبي... خارجية جدّاً. نحن نقرأ خيالاً لنستمتع بوقتنا - وهذا لا يمنع أن الرّب قد أمدّ ديليلو بهوائيات بصريّة. هناك اتجاه اليمين وهناك اتجاه اليسار، إنه يأتي من اتجاه ثالث - مائل، ومنحرف. أنا أحب الملاك إزميرالدا...».

«Martin Amis, New Yorker» تسع قصص

«إن قصص دو ديليلو القصيرة والمكثّفة هي جهد أستاذ حقيقي... في هذه القصص أو الأحلام العميقة - أسلوب يفتقر إلى العاطفة أحياناً أو قد يكون مضحكاً بشكل حزين، إنّها مكتوبة دائماً بحرفية عالية - فديليلو يعزل تلك الفكرة الشّاردة، ويصنع منها أدباً عظيماً...».

Guardian

«دون ديليلو عليم بالفوضى، ورأيه ككاتب في الكوارث مميز. يعتبر في زمننا هذا شاهداً، ومُفكراً، ومُنفصلاً، ودقيقاً... إنّه مهذب، وكتوم، وخفيف الظل... ولديه غطرسة مذهلة، ومقلقة، ونتاجه الأدبي أثري لكنه معاصر».

John Banville, Financial Times

«قراءة الملاك إزميرالدا تذكرني بسبب عبقرية ديليلو، وتجعلني متفائلاً بخصوص كل ما سيكتبه لاحقاً».

Scotland on Sunday

«كُتبت على مدار ثلاثين عاماً، إنها تستدعي شيئاً من الشّعور بالاغتراب المتعارف عليه، وهيْبته السّاحرة في رواياته المتقنة، مثل: **ضوضاء بيضاء وعالمٌ سُفلي**... إنها معايير ديليلو الدقيقة التي تجعل القارئ يشعر بأن هذه اللحظة العابرة من الفخامة والبهاء سوف تمنحه دفْعاً آخر من القوّة ليتجاوز يوماً آخر».

Sunday Times

«للغياهب والمشاكل الوجودية ثقلٌ كبير على أكتاف الشّخصيات وتترك شاغراً بسيطاً للمحات بسيطة من المرح، لكن بالنّسبة للقارئ، فهناك الكثير من المتعة التي يحصل عليها من الغوص السريع في متاهات فيزيائية ونفسية داخل قصص ديليلو، وفي **الملاك إزميرالدا** نتذوق الامتداد الملحميّ لتاريخه مع تسع قصص مقتطفة من **الخَلق** في السّبعينيات إلى **الجائعة** في هذا العام».

The List

«لقد أحالنا خيال ديليلو إلى الماضي، عند مركز تزلزل الأحداث التاريخية، وجعلنا ننظر للأحداث بعينيْ: إدغار هوفر، أو لي هارفي أوسوالد. في هذه القصص انسجام عوضاً عن الترويع والهزّات، ومقاييسها في غاية الدّقة، مُعيَّرة لاكتشاف آثار النّكبات البعيدة في حيوات النّاس هنا والآن».

Literary Review

«يكتب ديليلو النّثر بأسلوب رفيع ويدمج بين الأسلوب المرح النقيّ بشيء من الغموض في تركيب دقيق... ويجعل في قلب هذه القصص لُغزاً لا يقاوم، وغير قابل للحل ويجعلها نابضة بالحياة في العالم».

The Times

«إنها المقدّمة المثالية للموضوعات والأسلوب الأدبي، وهي كذلك وبشكل غير معتاد مجموعته القصصية الأولى بعد خمس عشرة رواية، وتضم أعمالاً من الثمانينيات إلى وقتنا الحاضر. إنها تاريخه المهني أجمع مصغّراً، والقصص الأخيرة تؤكد على أن موهبته لم تتزعزع... لكن إذا كان عليَّ اختيار قصة واحدة، فستكون **منتصف الليل في دوستويفسكي**».

Scotsman

«في أوقات أفضل من وقتنا الحاضر سيحصل الكاتب الأمريكي دون ديليلو على اعتراف محترم بأنه متكهّن أدبيّ. لكننا في الوقت الحاضر، هو شاهد على اللحظة، رغم أنّه شاهد قد تنبأ بحدوث كل هذه الأمور قبل أن تحدث لأيّ شخص آخر - باستثناء العظيم جي. جي. بالارد... فيليب روث في الأعوام الأخيرة صار مؤرخ الولايات المتحدة، ورغم ذلك، كان دون ديليلو منذ أمد بعيد أحكم راءٍ في البلد».

Irish Times

«إنها مقدمة رائعة لدون ديليلو إذا لم تقرأ له بعد. وتجميعها مرضٍ للغاية، مما يجعل ديليلو عظيماً لمعجبيه المُوالين. هذا كتاب يجب ألاّ يفوت».

Bookmunch

«لم يجعلني أيّ كتاب آخر أتفكّر بجديّة في الطبيعة وهدف الخيال أكثر من هذه المجموعة المكوّنة من تسع قصص، والتي جُمعت على مدار ثلاثة عقود تقريباً، إنها تخلق مسار ديليلو الأدبي، وترسم بتفصيل محاوره وتسلط الضوء على شيء من أفضل كتاباته النثرية في هذا القرن والذي يسبقه».

Stuart Everse, Dirty / Realistic blogspot

«تألّق تام وقوّة».

Catholic Herald

«يجمع ديليلو بين التّأملِ الخصب والعزاء الكامن في كل واحدة من هذه القصص الثريّة، والمكثّفة، والمركّزة».

New York Times Book Review

«إنه كما لو أنّ مجموعة الملاك إزميرالدا، تشيّد تمهيداً لحياته الأدبية... إن ديليلو في مصاف أكثر الكتّاب المتناغمين، فكتبه أشبه بأقساط في رواية واحدة مستمرة، تساؤل عن فوضى وتعنّت الحياة المعاصرة».

LA Times

«مسرودة بشكل مذهل... يجب أن يقرأ قصص هذه المجموعة أيّ شخص فاتته قراءة أعمال ديليلو الأولى، أو من يتساءل عمّا إذا اتّجه بكل كمال لخُطّةٍ فلسفيةٍ رفيعة وبقدرة على أن يسحَر أمريكا السّريالية المميزة».

Michiko Kakutani, New York Times

المحتويات

الجزء الأول

- الخَلْق (1979)
- لحظات إنسانيّة في الحرب العالميّة الثالثة (1983)

الخَلْق

كانت قيادة لمدة ساعة، أغلبها صعود في المطر الضّبابي. أبقيت نافذتي مفتوحة بضعة إنشات، على أمل اقتناص شيء من شذا الأعشاب العطريّة. يخفف سائق السيارة السرعة عند أسوأ جزء من الطريق، وأضيق المنعطفات، لأنّ السيارات قادمة باتجاهنا في الضباب. كثافة النّباتات المتاخمة لجانبي الطريق تقل أحياناً، وهناك مناظر لغابات نقيّة، ووديان جارية ومنتشرة بين التلال.

قَرَأَتْ (جيل) كتاباً كاملاً عن عائلة روكفيلر. كانت شاردة الذهن، كما لو أنها مأخوذة تماماً بكتابها، وخلال الطريق لم أشاهدها ترفع رأسها عن الصفحة إلا مرة واحدة، لتشاهد أطفالاً يلعبون في الحقل.

لم يكن الازدحام شديداً في كلا الاتجاهين. السيارات التي تأتي من أمامنا تظهر فجأة، بألوان الرسوم المتحركة، تتقلقل وتقفز، أما سائقنا روبرت فكان عليه أن يُناور بسرعة في المطر تفادياً للتّصادم والجروح البليغة، وفي الغابة كان يزيد من سرعته. بدا مفهوماً أيّ فعل مراوغ يجب أن تقوم به سيارتنا... سيارة الأجرة.

تبلّط الطريق... وبين الحين والآخر يكون هناك شخص جالس على الأشجار، محدّق فينا. الضباب يهبط من المرتفعات. صعدت السيّارة مرتفعاً آخر خلال وقت قصير، ثم دخلت إلى المطار. سلسلة من المباني ومهبط للطائرات. توقف المطر. دفعتُ لروبرت أجرته. وحملنا الأمتعة

إلى البوابة، ثمّ وقفتُ خارجاً مع رجال آخرين يرتدون فانيلات رياضية، ويتحدثون بصوت مرتفع.

عجّت القاعة بالناس، والأمتعة، والصناديق. جلست (جيل) على حقيبتها، تقرأ، وحقيبتان صغيرتان معلّقتان عليها. شققت طريقي إلى الكاونتر واكتشفت أننا على قائمة الانتظار، رقما خمسة وستة، رسم هذا الخبر نظرة تأملية على وجهي. أخبرت الرّجل أننا أكّدنا على الرّحلة في (سان فينسنت)، فأخبرنا أن من الضروري إعادة التّأكيد قبل اثنتين وسبعين ساعة من موعد الرحلة، فقلت له: إننا كنّا نُبحر حينها، كنّا في (توباغو كايس) قبل اثنتين وسبعين ساعة - لا بشر، لا مباني، لا هواتف. قال إنّ القانون ينص على إعادة تأكيد الحجز. أراني أحد عشر اسماً على جزء من ورقة كبرهان ماديّ. كنّا رقمي خمسة وستّة. ذهبت إلى (جيل) لأطلعها على النّبأ. كانت قد أرخت جسدها على الأمتعة. إرهاق بأسلوب أنيق. استغرقت شيئاً من الوقت لتنتهي من القراءة، ثم تكلّمنا بصيغة رسمية. ذكرتُ لها كلّ النّقاط التي قالها الرّجل عند الكاونتر: أكّدتُ الحجز في سان فينسنت. يختٌ مُبحر. جُزر غير مأهولة. ولعِبت هي دوري، بكلمات أخرى، وأنا استخدمت كلماته، لكنّي تقمّصْتُ نبرة صوت منطقية وأضفت معطيات معقولة، على أمل التقليل من حدّة غيظها. ذكّرتها بوجود رحلة أخرى بعد هذه بثلاث ساعات. كان لا يزال علينا الوصول إلى (باربادوس) في الوقت المحدد للاستحمام قبل العشاء. وبعد ذلك سيكون الحال هادئاً وشاعريّاً أو دافئاً وشاعريّاً. سنسمع صوت الرعد البعيد، وأمواج الساحل الغربي المعروف بأمواجه المتكسّرة العظيمة، وفي المساء التالي سنكون على متن الطائرة المتوجّهة إلى (نيويورك)، كما هو مقرر، ولن يضيع من الوقت شيء عدا بضع ساعات سنقضيها في مطار الجزيرة الصغيرة.

«يا لها من رومانسية معاصرة، ويا له من عمل ملائم في هذا اليوم. ما ثمن مقعدي الطائرة، أربعون؟».

«أوه، أكثر»، أجبتها قائلاً.

«بكم تزيد؟».

«فقط أكثر».

«وما هو ترتيبنا؟».

«الخامس والسّادس».

«أكثر من المزيد بأربعين».

«حجوزات كثيرة، لكنهم لا يأتون، وكأن الغابة قد ابتلعتهم» قلت لها.

«هراء. انظر إلى هؤلاء الناس. ما زالوا يتوافدون إلى المطار».

«بعضهم يأتي لمشاهدة إقلاع الطائرات».

«إذا كان يؤمن بذلك، الرّب، لا أريده إلى جانبي. في الحقيقة يجب ألّا يكونوا هنا إنه نهاية موسم السفر».

«منهم من يعيش هنا».

«ونحن نعرفهم، أليس كذلك؟».

وصلت الطائرة من (ترينيداد)، وقد جعل صوتها وشكلها الناس يقتربون من الكاونتر أكثر. ذهبوا إليها من الجانب، واقتربتُ أنا من خلف المكتب، حيث وقف آخرون. بدأ المسافرون الذين أكدوا الحجز بالتقدم نحو منصّة المغادرين.

أصوات. قالت امرأة بريطانية: إن رحلة بعد الظّهر قد أُلغيت. تدافعنا جميعاً بشكل أقرب. لوّح رجلان من غرب الهند في المقدمة بتذكرتيهما للموظف. تعالت الأصوات. قفزت أكثر من مرة لأرى من فوق رؤوس المتجمهرين خارج المطار. كان روبرت لا يزال هناك.

تبدّل الحال بسرعة. الشحن والأمتعة خارج أحد الأبواب، والمسافرون خارج الباب الآخر. أدركت أننا سننتظر. بدا أن الناس الذين غادروا المكتب مُسيّرون بقوة ما، وكأن تنصيراً معمدانيّاً بدائيّاً لا

يزال مستمرّاً. اجتمع الباقون حول الموظف كان يضع إشارة عند بعض الأسماء، ويشطب أسماء أخرى.

صاح: «امتلأت الرحلة... امتلأت الرحلة».

بقيت ثمانية أو عشرة وجوه، الحزن على ملامحهم، لهجات عدّة من اللغة الإنجليزية. اقترح أحدهم أن نجتمع جميعاً ونركب في رحلة إضافية. عادة دارجة هنا. قال رجل ما شيئاً عن المقعد التاسع. أخذت الأسماء، ثم ذهبت مع آخرين إلى مكتب الرّحلات الإضافية. سألت الموظف عن رحلة بعد الظّهر. لم يَعرف سبب إلغائها. طلبتُ منه أن يحجز لـ (جيل) ولي على أول رحلة غداً. قال إنّ قائمة المسافرين لم تجهز بعد، وكل ما يستطيع فعله هو إدراجنا في قائمة الانتظار، سنعرف المزيد لاحقاً.

باستخدام أقدامنا فقط، دفعنا أنا و (جيل) الأمتعة إلى الباب. عاد أحد المفتشين ليخبرنا عن توفر طائرة لاحقاً في هذا اليوم. ستة مقاعد، فقط. بدا أنها لن تشملنا. أشّرت لروبرت وبدأنا في وضع الأمتعة في السّيارة. وجه روبرت كان طويلاً وهناك فرق بين سنّيه الأماميتين وكان يضع وساماً فضيّاً عند جيب صدره، زينة بيضوية ذات تفاصيل متصلة بقطعة قماش متعددة الألوان.

جلست (جيل) في الخلف، تقرأ. في الطريق إلى المخرج، قال روبرت إنه يعرف فندقاً ليس ببعيد عن الميناء... نظراته انحرفت إلى اليمين. كانت هناك سيدة تقف على بعد خمس أقدام، ثابتة جدّاً. تنتظرنا أن ننهي حديثنا. تذكرت مشاهدتها الناس عند البوابة. كانت ترتدي فستاناً رماديّاً وتحمل حقيبة يد، وعند قدميها حقيبة سفر صغيرة.

«رجاء، لقد ذهب السائق»، قالت.

كانت شاحبة، وذات وجه ناعم، وصافٍ، وفم كبير، وشعر بني محمر. وضعت يدها اليمنى على جبينها لتتقي الشّمس. اتّفقنا على مشاركة سيّارة الأجرة إلى الفندق ثم الانتظار معاً في الصباح. قالت إنها السابعة.

الطقس كان حارّاً ومشمساً طوال طريق العودة. جلست السّيدة في الأمام إلى جانب روبرت. كانت تلتفت إلينا بين الحين والآخر، قالت: «إن النّظام الذي لديهم فظيع، فظيع. أنا لا أفهم سرّ نجاحهم اقتصاديّاً. لم يتمكنوا من تأكيد سفري غداً أيضاً».

عندما توقفنا بسبب مرور قطيع من الماعز، خرجت امرأة من بين الأشجار لتبيع جوز الطّيب في أكياس بلاستيكية صغيرة.

«ما هو ترتيبنا؟»، قالت (جيل).

«اثنان وثلاثة هذه المرّة».

«متى موعد الرّحلة؟».

«السادسة وخمس وأربعون دقيقة. يجب أن نكون في المطار عند السادسة. يا روبرت يجب أن نكون هناك عند السادسة».

«سأوصلكم».

«وأين سنذهب الآن؟»، قالت (جيل).

«الفندق».

«أعلم أنه فندق. أيّ نوع من الفنادق هو؟».

«هل شاهدتِني وأنا أقفز بين الناس هناك؟».

«فاتني ذلك».

«ليس فندق (باربادوس)، أليس كذلك؟»، تساءلت.

«اقرئي كتابكِ»، أجبتها.

ما زالت السفينة راسية في الميناء. أشرت إليها ووضحت للمرأة الجالسة في الأمام أننا قد قضينا أسبوعاً ونصفاً على متنها. التفتت وابتسمت بشحوب كما لو كانت متعبة لتفهم معنى كلامي. كنّا بين التلال، متّجهين للجنوب. أدركت أن هذا الميناء أقل جاذبية وعشوائية من الموانئ الأخرى التي نزلنا فيها. مبانٍ حجرية شبه أطلسية.

لم تكن هناك مشكلة في الحصول على غرفتين في الفندق. قال روبرت إنه سينتظرنا عند الخامسة من صباح اليوم التالي. تقدّمتنا عاملتان

على الشاطئ، يتبعهما حمّال. انقسمنا إلى مجموعتين، أنا و (جيل) ذهبنا لجناح فيه مسبح عمقه عشر أقدام، تحيط به شجيرات متنوعة وأشجار قطن. كان المسبح الصغير يشبه مسبحنا، وعلى الفناء المرصوف وجدنا إناء مليئاً بالموز والمانجا والأناناس.

«نصف ممتاز»، قالت (جيل).

نامت لبعض الوقت. طفوْت على سطح الماء في المسبح، وشعرت بزوال الانزعاج المفاجئ مني: سخط الذهاب إلى مكان ما في مجموعتين - سفرٌ مؤكدٌ - كانت هذه البقعة الجغرافية أقرب للكمال لم نرغب حتى في أن نحدّث أنفسنا عن مدى حظنا بالوصول إليها. يجب حماية الأماكن الجديدة من صيحات بهجتنا. كتمنا كلمات الإعجاب لأسابيع وأشهر، لأن المساء الرّقيق يذكرنا بجماله. آمنّا أنّ الصّوت الخطأ قد يُبيد المنظر الطبيعي. كان هذا شغفاً خفيّاً، وأحد عوامل ارتباطنا ببعضنا.

فتحت عيني على منظر السّحب التي تسيّرها الرياح - سحب مندفعة - وصدى طائر في الهواء، جناحان طويلان وثابتان. العالم وكل الأشياء فيه. لم أكن أحمق بما يكفي لأفكر أني كنت في كنف لحظة بدائية، هذا الفندق، مصمم ليشعر النّاس أنهم قد ألقوا بالحضارة خلف ظهورهم. لكن إذا لم أكن بدائيّاً، فلست في المزاج المناسب أيضاً، أيضاً، لأثير الشكوك حول المكان. كنا قد مررنا بنصف نهار من الإحباط، ونهار طويل في الذهاب والإياب. ملمس الماء الهادئ على جسدي، وطائر المحيط المحلّق فوقي، وسرعة تلك السحب المنخفضة، وضخامة كتلتها، وانقيادها بخفّة، وانعدام وزني، والانعطاف البطيء في المسبح، سعادة يتمّ التّحكم بها عن بعد، جعلتني أستشعر معنى وجودي في العالم. معنى يخصّني، صحيح. حلم الخَلق الذي يضيء عند حافة بحث دؤوب لمسافر عارٍ، تبقى فقط أن تقبل (جيل) من بين الستائر الشّفافة وتنزل في المسبح بصمت.

تناولنا العشاء في خيمة، وتمعّنا في البحر السّاكن. ربع الموائد فقط

كان مشغولاً. المرأة الأوروبية، رفيقتنا في سيارة الأجرة، جلست في زاوية بعيدة، أومأت لها مُرَحّباً، لكنّها لم تلاحظني أو اختارت التجاهل.

«أليس علينا دعوتها للانضمام إلينا؟».

«لا ترغب بذلك»، قلتُ.

«في النهاية نحن أمريكيون. ونشتهر بدعوة الناس لمشاركتنا».

«لقد اختارت أبعد مائدة. إنها سعيدة هناك».

«قد تكون محلّلة اقتصادية من قناة بي. بي. سي. السوفيتية، ما رأيك؟ أو امرأة تُعدّ دراسة صحيّة للأمم المتحدة».

«أبعد من ذلك».

«أرملة شابة، سويسرية، جاءت لتَنسى».

«ليست سويسرية».

«ألمانية»، قالت.

«صحيح».

«هائمة على وجهها بين الجُزر. تجلس إلى أبعد الموائد».

«لم يتفاجؤوا عندما أخبرتهم أنّي أريد طعام الإفطار عند الرّابعة والنصف صباحاً».

«على كلّ الجزيرة الانسجام مع الهواء الفاسد. إنه مريع، مريع».

ارتدت (جيل) بنطالاً وسترة. تركنا أحذيتنا تحت المائدة، ومشينا على طول الشاطئ، شاردي الذهن. وقف حارس الأمن تحت النّخيل يراقبنا. أحضر النّادل القهوة عند عودتنا.

«هناك دائماً فرصة سفر شخصين من قائمة الانتظار ولكن ليس ثلاثة»، قالت (جيل).

«يجب أن أعود يوم الأربعاء، لكن أعتقد أن علينا ملازمة بعضنا دائماً».

«نحن فريق واحد. كنا ولا زلنا فريقاً واحداً في هذا معاً».

«كم عدد الرّحلات المتوجهة إلى (باربادوس) غداً؟».

«رحلتان فقط. ماذا سيحدث يوم الأربعاء؟».
«يعود بيرني غلادمان من بوفالو».
«الأراضي محروقة لأميال حولها».
«احتجت إلى ستة أسابيع لأحدد موعد اللقاء».
«سنخرج من هنا. إذا لم يكن في السادسة وأربع وخمسين دقيقة، فلاحقاً بعد الظهر. هذا في أسوأ الاحتمالات طبعاً؛ إذا فاتتنا رحلة المرور العابر إلى باربادوس».
«لا أريد سماع تتمة احتمالاتك»، قالت.
«إلّا إذا ذهبنا إلى مارتينيك غوصاً».
«أنت الرجل الوحيد الذي يدرك أن الملل والخوف سيّان بالنسبة لي».
«أحاول ألّا أستغل هذه المعرفة».
«أنت تهوى أن تكون مملّاً، وتبحث عن المواقف المملة دوماً».
«المطارات».
«طرق طويلة في سيارات الأجرة»، قالت.
بدأت قمم النخيل في الانحناء أولاً، ثم هطل المطر بقوة على الدّرب الحجري، وعندما خفّ، مشينا عبر الحديقة وصولاً إلى جناحنا.
مشاهدة (جيل) تتعرى، وكحول في كأس فرشاة أسنان، وصوت هبوب الرّياح. أشعر بصداع قرب عينيّ منذ عشرة أيام بسبب الشمس والطقس.
واجهت صعوبة في النوم، وبعد سكون الرياح، كان أول ما سمعته هو صياح الدّيكة، بدا أن عددهم بالمئات، هناك في التلال. بعد دقائق بدأت الكلاب بالنّباح.
انطلقنا مع انبلاج الفجر. تسعة رجال مشوا في طابور واحد ويحملون الخناجر على طول الطريق.
تأكدنا من أن اسم المرأة الأخرى هو كريستا. تكلّمت مع (جيل)

قليلاً في الأميال الأولى من الطريق، ثم أخفضت (جيل) عينيها على الكتاب المفتوح.

أمطرت مرة أخرى، قليلاً.

توقّعتُ وجود اثني عشر شخصاً في تلك الساعة، كان مزدحماً، تدافعوا باتجاه الكاونتر. كان من الصعب تجاوزهم بسبب الأمتعة والصناديق وأقفاص الطيور والأطفال الصغار.

قالت (جيل): «هذا جنون، أين نحن؟ لا أصدق حدوث هذا».

«ستكون الطائرة خالية عندما تصل إلى هنا، أو بالقرب. هذا ما أعتمد عليه. وكثير منهم على قائمة الانتظار نحن الرقم اثنان أو ثلاثة، تذكّري».

«إلهي إذا كنت موجوداً، أخرجني رجاء من هذه الجزيرة».

أوشكتْ على البكاء. تركتها عند الباب وحاولت الوصول إلى حافة الكاونتر. سمعت صوت اقتراب طائرة وهبوطها.

خلال دقائق ابتعد الجميع عن الكاونتر واصطفوا في طوابير في القاعة. كانت الحرارة مرتفعة في المكان فعلاً احتشد من بقي، كانت هناك ثورة من الإحباط ومشاعر محتدمة، إشارات وإيماءات.

سمعت الموظف ينادي باسمينا. ذهبت إلى الكاونتر وملت بجسدي عليه. كاد رأسي أن يلمس رأسه. قلت له: «هي ستسافر، وأنا لن أسافر». ناولته تذكرة (جيل). ثم عدت مسرعاً لإحضار أمتعتها ووضعتها على منصّة جانبية صغيرة قرب الكاونتر. فتحتْ فاها تعجباً، ووضعت يديها على خصرها جانبها كما لو كانت شخصية مدهوشة في فيلم صامت. بدأت أحمل إحدى حقائبي.

«ستذهبين وحدكِ»، قلتُ لها. «املئي الاستمارة عند المنصّة. أين جواز سفرك؟».

أنزلت الحقيبة، وجعلتها تمشي إلى بوابة المغادرين. كانت تحمل حقيبة صغيرة بيدها عندما شرعت في تعبئة الاستمارة الصفراء. كانت تنظر إليّ بقلق بين الأسطر. ارتباك تامّ. كانت الأرض التي بيننا لامعة.

«تفضّلي نقوداً لضريبة المطار. إن لديهم مكاناً واحداً فقط لأحدنا. ومن الحماقة ألّا تذهبي».

«لكننا اتفقنا».

«من الحماقة ألّا تذهبي».

«لا يعجبني ما يحدث».

«ستكونين بخير».

«ماذا عنك؟».

«سأتزوج امرأة بسيطة وأتعلم الرسم».

«يمكننا الاتفاق. لنحاول، حتى لو لم يبق غيرنا هنا».

«لا أمل في ذلك. لا شيء سينجح هنا».

«لا أحب المغادرة بهذه الطريقة، هذا مأساوي. لا أريد الذهاب».

«عزيزتي (جيل)»، قلتُ لها.

شاهدتها تتجه نحو سلّم الطائرة في قسم السعر الإضافي. قريباً سترتفع الدعائم. عدت إلى الداخل وشاهدت كريستا قرب الباب. أخذت حقائبي وذهبت خارجاً إلى الطريق. كان روبرت جالساً على المقعد الخشبي خارج محل الهدايا. توجّب عليّ المشي عشر ياردات قبل لفت انتباهه. نظرت خلفي إلى كريستا، فحملت حقيبتها، ثم مشينا باتجاه بعضنا نحن الثلاثة من مواقع مختلفة.

كنت قد تعلمت متى ستظهر سلسلة المنازل، والمكان الأسوأ في الطريق، متى وفي أيّ اتجاه من الغابة العميقة سوف تنبسط الأرض. جلست إلى جانبي بشرود وهي تفرك لسعة حشرة على يدها اليسرى.

ذهبنا إلى الفندق ذاته وطلبت جناحاً بمسبح. تبعتنا العاملة على طول الشاطئ ثم أعلى الدّرب المؤدي إلى بوّابات الحديقة. من طريقة تصرف كريستا عند الحديقة والمسبح، أدركت أنها أمضت الليلة السابقة في إحدى وحدات الشاطئ، والتي كانت عادية.

عندما صرنا وحدنا، لحقت بها إلى دورة المياه. أَخَذَت شيئاً من

الغسول على قطعة قطن من حقيبة المكياج. وبهدوء حرّكتها على وجهها.

«كنتِ السابعة»، قلت.

«أخذوا أربعة مسافرين».

«هل كنتِ ستعودين وحدك؟ أم كنتِ ستبقين في المطار؟».

«لديّ القليل من المال. لم أتوقع هذا».

«لا يملكون حواسيب».

«لقد ذهبت خارجاً وهاتفتهم من الفندق حيث كنت. كانت لديهم قوائم مختلفة. لم يحددوا اسمي مرّتين في أيّ مكان. ويستحيل معرفة ما إذا ألغيت الرحلة».

«لم تصل الطائرة بعد».

«هذا صحيح»، قالت. «لم تصل الطائرة وأنت تعرف أنك قد خرجت عبثاً». وضعتُ رأسها بين يديّ.

«هل هذا عبث؟».

«لا أعرف».

«أنت تشعرين».

«بلى، أشعر».

مشتْ إلى داخل الغرفة وجلسَت على السّرير، ثم نظرَت نحو مدخل الباب، دخلت - تقييم متأخر. بعد فترة صمت قاتل، انتبهت لصوت تكسر الأمواج الرقيق، وأدركت أني كنت أسمعه طوال الوقت، المحيط، تكسّر الأمواج، وحركة الماء. أبقت كريستا عينيها عليّ وعادت إلى حقيبتها، التي كانت وسط السرير، ثم بحثت في داخلها عن سجائر.

«كم تملكين من المال؟»، قلتُ.

«مئة دولار».

«أقل من رحلتيْ ذهاب وإياب».

«هذا ممتع. أجل. هكذا يجب أن نحسب المال».

«هل نمتِ البارحة؟».

«لا»، أجابت.

الرياح مذهلة، ظلت تعصف. هبَّت بقوة حتى الشّروق، أنا أحب صوتها وأستشعر ذلك النوع من الرياح. كانت دافئة، وشبه ساخنة. أمالت تلك الأشجار التي في الخارج، كان بوسعنا سماع تسارعها من الأشجار، ذلك الحفيف المتصاعد.

عندما يكون كل شيء جديداً. تكون المتعة أعمق، أجد ذكر اسمها بصوت عالٍ مرضيّاً بشكل غامض، تلاوة ألوان جسدها، وشعرها، وعينيها، ويديها، وبياض صدرها الشديد. بالتأكيد لم يبدُ شيئاً فاحشاً. أردت أن أضع قوائم وتصنيفات بسيطة، أساسية وخفيفة. كانت صوتها ناعماً ومميزاً، وعيناها حزينتين. يدها اليسرى كانت ترتعش أحياناً. كانت امرأة تواجه متاعب في حياتها، زواج فاشل ربما، أو موت صديق حميم. كان فمُها جذّاباً. أمالت رأسها للخلف وهي تصغي. شعرها بني عاديّ، وفيه خصلات رمادية، قصيرة أو أضواء تنعكس بتدرجات مختلفة.

أخبرتها بهذا كله، وأكثر، أسهبت في وصف شكلها، وبدت سعيدة بهذا الانتباه.

كنّا في السرير صباحاً. بعد الغداء طفوْتُ في المسبح وكانت كريستا في الظل. تبتعد كلما اقتربت أشعة الشمس من مرفقها أو طرف كعبها الوردي.

قالت: «أن نبدأ في التفكير هناك طائرة عند الخامسة، لم نعد على قائمة الانتظار. غادرنا دون أن نؤكد الحجز. لا فائدة».

«يجب أن أسافر».

«سأهاتفهم فيما بعد. سأعطيهم اسمينا. سوف نرى ما هو ترتيبنا. يمكننا المغادرة غداً. ثلاث رحلات غداً».

لَفّت نفسها في منشفة كبيرة وجلست على العتبات المؤدية إلى

الفناء. كان من الواضح أنها ترغب في قول شيء ما. وقفتُ والماء عند مستوى صدري.

هذا رابع يوم تحاول فيه الخروج من الجزيرة. شعرت بالرعب في الأربع والعشرين ساعة الماضية. المحنة في المطار، قالت إنّها تشعر باليأس والشفقة على نفسها والضياع. طريقة كلامهم غريبة. نفاد مالها. التنقل في سيارات الأجرة في الجبال. المطر، والحرارة، والحافة، والحافة السوداء، المزاج المتباين أو النبرة، المنطق المشؤوم للمكان. حلم، كابوس من العزلة والضغط. كان عليها مغادرة الجزيرة. ساعات سنقضيها معاً، كما أطلقت على هذه الفترة، لكن عليّ مساعدتها على المغادرة.

بدت رصينة في المنشفة البيضاء. غطست عدة مرات في الماء ثم خرجت منه. وذهبتُ إلى الداخل لمهاتفة السّفريات. قال الموظف أن لا سجل يحتوي على اسمينا. أخبرته أن لدينا تذاكر صالحة ووضحت له بعض المتاعب التي واجهناها. أخبرني بوجوب حضورنا عند السادسة صباحاً لنعرف المزيد.

تناولنا العشاء في الجناح، وبقلم رصاص رسمتُ وجهها على منديل قماش. أخذنا طعام التّحلية إلى الحديقة. رسمتُها مجدداً، كاملة هذه المرة، على ورق الفندق، والمحيط، والنطاق الساحلي.

«أنت ترسم إذن؟».

«أنا أكتب».

«كاتب؟».

«ما هذه الرائحة الرائعة؟ أهذا ياسمين؟ ليتني أعرف أسماء الزهور».

«إنها حديقة تبعث على السرور».

«بغضّ النظر عن الخروج، مجرد مغادرة الجزيرة، هل عليك أن تكوني في مكان ما في وقت محدد؟».

«عليّ التوجه إلى باربادوس - لندن. سيقابلني بعض الأشخاص».

«أشخاص ينتظرون؟».

«أجل».

«في حديقة إنجليزية؟».

«في غرفتين صغيرتين، مع طفلتين».

«أنتِ تبتسمين. إنها تبتسم».

«هذا شيء عظيم».

«ابتسامتك ابتسامة مختلسة. عميقة وخاصة لكن فاتنة دوماً».

«لم يشاهدها أحد منذ سنوات. إنها تؤلم وجهي».

«كريستا لانداور».

جاء رجل حاملاً البراندي. جلست كريستا برداء قديم. كانت السماء صافية.

«تريدين عدم جذب الانتباه». قلتُ لها.

«كيف لاحظت ذلك؟».

«ترغبين في أن تكوني مُلْغزة. ألاحظ هذا بعدة طرق: الثياب، طريقة المشي، الجلوس، وأهم مما سبق هو وجهك. وجهك كان وجهاً مختلفاً قبل وقت قصير، أنا أكيد من ذلك».

«ماذا نعرف بعد عن بعضنا؟».

«ما يمكننا رؤيته».

«اللمس. ما نلمسه».

«تكلمي بالألمانية»، قلتُ لها.

«لماذا؟».

«أحب سماعها».

«هل تعرف اللغة؟».

«أرغب في سماع صوتها. أحب صوتها. إنها كمعدن ثقيل. أعرف كيف أقول مرحباً، وإلى اللقاء».

«هذا كل شيء؟».

«تحدّثي بشكل طبيعي. قولي أيّ شيء. حاوريني».

«سنكون ألمانيين في السّرير».

جلست على الكرسي، وإحدى رجليها خارج الكساء، ورفعت كأس البراندي والسيجارة باليد نفسها.

«هل تسمعين؟».

«ماذا؟».

«أنصتي».

«هدير الأمواج»، قالت.

دخلنا بعد برهة. شاهدتها وهي تمشي نحو السرير.

حرّكت الوسادة بعيداً واستلقت عليها، ثمّ نظرت للأعلى، ذراعها متدلية إلى جانب السرير وبسبّابتها أسقطت رماد السيجارة على الأرض. تصاعد الدخان على طول ذراعها. نساء بأوضاع مختلفة، نساء متكاسلات، بسيطات... لطالما كان تأثيرهن مبهجاً لي. عرفتُ أن صورة كريستا هذه ستتكرر كثيراً، عيناها مفتوحتان، وواسعتان، سكون عميق في وجهها، رداؤها بال، والدخان الذي يتصاعد على طول ذراعها بدا ضرورياً لاكتمال المشهد.

هاتفت خدمة العملاء. قال الموظف إن الإفطار سيصل عند الرابعة والنصف وسينتظرنا روبرت في سيارته عند الخامسة.

هبَّت رياح عاتية فجأة، وهبّت مباشرة في الغرفة، تطايرت الأوراق، ورُفِعت الستائر. أطفأتْ كريستا سيجارتها وأطفأتُ أنا النّور.

عندما فتحتُ عينيّ - بعد وقت قصير - كان نورُ المكتب مضاءً، وهي جالسة على الكرسي، بالرداء ذاته، تقرأ بعض الصحف. حاولت الوصول إلى ساعتي. الباب وظل النافذة مغلقان. لم أسمع صوت تساقط المطر.

«كم الساعة؟».

«أكمل نومك».

«هل فاتنا الاتصال؟».

«لا يزال هناك متسع من الوقت. سيرنّون جرس البوابة. بقيت ساعة».

«أريدكِ إلى جانبي».

«يجب أن أنتهي. اخلُدْ للنوم».

تمكّنت من إسناد رأسي على مرفقي.

«ماذا تقرئين؟».

«إنه عمل. مملٌّ للغاية. لن ترغب في معرفته. نحن لا نسأل عادة، أنت وأنا، لكنك تسأل الآن لأنك نصف نائم».

«هل ستأتين إلى السرير قريباً؟».

«أجل، قريباً».

«هل ستوقظينني إذا نمت؟».

«أجل».

«هلّا فتحتِ الباب قليلاً، كي نشعر بالهواء؟»..

قالت: «حاضر سأفعل كل ما تريد».

استلقيتُ على ظهري وأغمضتُ عينيّ. فكرتُ بتلك الرّمال الذّهبية التي تكسو تلك الجزر هناك، يومان من الإبحار والغوص إلى المرجان، وشكل النورس الذي بدا أخضر بسبب الماء النّقي.

ازداد معدل سرعة الرياح مع المطر، أشجار عريضة الأوراق، ومنخفضة الارتفاع ومتشابكة تصدر أصواتاً. ولسبب ما، منح ضوء هذا الصباح ألواناً جميلة للمشهد الطبيعي. لم تكن الألوان زاهية جدّاً. كان هناك الأخضر الغامق فقط، بظلال مواربة، كنّا في الجزء الأخير من الطريق، أربع وخمسون دقيقة مضت منذ خروجنا تقريباً. تأملت في التغيرات التي تطرأ على الأرض نتيجة الطقس السيء، وكيف سينتج بُنْية وبُعْداً، ضوءاً أخضرَ بلمح البصر، وتلك التّذبذبات والأشعة، ووعينا الذي يبدو أننا نعثر عليه في مناطق مفرطة النّمو. فركت كريستا عنقها، ناعسة. أشاهد الطريق بين الحين والآخر. كانت هناك نساء يرتدين تنانير ممزقة، مثنى وثلاث، ومجموعات. نساء تحت الندى، وجوههن ذات عظام بارزة، بعضهن يحملن سِلالاً على رؤوسهن، مليحات، بأكتاف مشدودة، وأذرع معكوفة ولامعة.

«سنغادر هذه المرّة».

«تشعرين بحسن الحظ؟».

«حتى إننا لن ننتظر. على متن أول رحلة».

«ماذا لو لم يحدث ذلك؟».

«لا تهمس بهذا».

«هل ستعودين معي؟».

«أنا لا أستمع لما تقوله».

قلتُ: «البقاءُ جنون. انتظار سبع أو ثماني ساعات. سنعرِف حالتنا. سأُدقّق في كل شيء مع الرجل، سينتظرنا روبرت، وسيعود بنا إلى الفندق، سنقضي بعض الوقت معاً، ثمّ سنعود إلى المطار، وسنغادر على متن رحلة الساعة الثالثة أو الخامسة، على حسب ترتيبنا. ما يهم الآن هو استيضاح حالتنا».

استمع روبرت إلى المذيع وكتفه مسنود إلى المقعد المريح.

«هل تستمتع بهذا الذهاب والإياب؟»، قالتْ.

«أنا أحب أن أطفو».

«هذه ليست إجابة».

«حقّاً أنا أحب أن أطفو. أحاول أن أطفو على الماء كلما سنحت الفرص».

«يجب أن تعود. بإمكانك أن تطفو ستة أسابيع».

«لن أطفو وحدي». قلت لها.

كانت ترتدي الفستان الرمادي ذاته الذي كانت ترتديه قبل يومين، في الطريق القذر خارج بوابة المطار، عندما التفت وشاهدتها تقف بتهذيب عند أحد جانبي الطريق، وقد أبرز نور قوي ملامح وجهها.

«كم تبقى؟ أنا أعرف هذا المكان».

«دقائق»، قلتُ.

«انحرفنا تقريباً عن المسار المستقيم في الطريق، عندما ازداد الضباب عند مقدمة السيارة. كان يجب أن أعرف حينها. كانت لتكون كارثة».

«لن يسمح روبرت بحدوث هذا. أليس كذلك يا روبرت؟ سيتابع كل سيارة تختفي في الضباب»، قالت.

نظرتُ إليها وابتسم كلانا. ينقر روبرت على مقود السيارة مع الموسيقى. مررنا ببعض المنازل ودخلنا من البوّابة الأخيرة.

أخذتُ تذكرة كريستا وطلبت منها الانتظار في سيارة الأجرة. ستبقى الأمتعة حتى نتأكد من مقدرتنا على السفر. ماج النّاس ببعضهم خارج البوابة. أكبر الرجال وزناً - رجل هندي أو باكستاني - وقف عند الباب. كنت قد شاهدته قرب الكاونتر من قبل، محاطاً بالناس، ومتعرّقاً ومرتدياً سترة مخططة. فيه خطب ما، وقوفه هنا غريب، أشعرني هدوؤه الحاد تقريباً بضرورة الوقوف خارجاً.

«هناك أقاويل بأنها سقطت». وجَّه حديثه لي.

لم ننظر إلى بعضنا.

«كم شخصاً على متنها؟».

«ثمانية مسافرين، ثلاثة من الطاقم».

دخلتُ. كان هناك شخصان فقط عند البوّابة وكان الكاونتر خالياً. ذهبت خلفه وفتحت باب المكتب. وشاهدت رجلين يرتديان فانيلات بيضاء متقابلين في مكتبين مزيّنين.

«هل هذا صحيح؟ أنها سقطت»، تساءلت.

نظرا إليّ.

«الرّحلة من ترينيداد. السادسة وخمس وأربعون إلى باربادوس. لم تسقط؟».

«لقد أُلغيت الرحلة». قال أحدهما.

«يقولون في الخارج إنها تحطمت في المحيط اللعين».

«لا، لا - ألغيت».

«ماذا حصل؟».

«رياح»، قال الآخر.

«واجهوا متاعب جمّة».

«إذن، فقد ألغيت فقط. ما من شيء خطير». قلتُ.

«لم تهاتفنا. يجب أن تتصل قبل الحضور. اتصل دائماً».

«الآخرون يتصلون، ولهذا تأتيان عبثاً دائماً». قال الثاني.

أريتهما التّذكرتين، ودوّن أحدهما اسمينا وقال إنه يتوقع وصول الطائرة في الوقت المحدد وستغادر عند الثانية.

سألته: «ما هو ترتيبنا؟».

أخبرَني أن أهاتفهم قبل القدوم. مشيت عبر البوّابة، خالية الآن، ولا يزال الرّجل الضّخم واقفاً عندها.

«لم تسقط» أخبرته.

نظَر إليَّ وهو يفكر.

«أهي في الأعلى إذن؟».

أومأت رأسي بالإيجاب.

«رياح»، قلتُ.

ركض عدد من الأطفال قربي. كانت سيارة روبرت مركونة في ساحة صغيرة مفتوحة على بعد ثلاثين ياردة تقريباً، ولا يوجد أحد عند مقودها. شاهدت كريستا عند اقترابي وكانت تميل بجسدها إلى الأمام في المقعد الخلفي. خرجت من سيارة الأجرة عندما لمحتني، وانتظرتني عند بابها.

من الأفضل أن أبدأ بشائعة التّحطم. ستتنفس الصعداء إذا علِمَت أن لا أساس لها من الصّحة سيُسهّل هذا عليها تقبل إلغاء الرحلة.

لكن عندما بدأتُ الحديث، أدركتُ أن لا فائدة من التخطيط. كان وجهها شاحباً للغاية. منهارة، ومنزعجة وساكنة. واصلت التوضيح

جاهلاً ما عليَّ فعله، ومُدْركاً أني كنت أتكلم بوضوح أكبر مما يفعله المرء عادة مع الغرباء. زخات من المطر. شرحت لها أننا سنغادر على الأغلب في وقت لاحق من هذا اليوم. تكلّمت بتمهل، ووضوح. عاد الأطفال يلعبون.

تحرّكت شفتا كريستا، رغم أنها لم تقل شيئاً. اندفعت من جانبي ومشَت بسرعة باتجاه الطريق. قلت لها: «لا بأس. لست وحيدة. لن يصيبك مكروه، مجرد يوم واحد إضافي لا غير. لا بأس. سنكون معاً، هذا كل ما في الأمر. يوم آخر». طوّقت ظهرها من الخلف بذراعي وأنا أتحدث بلطف، ولمست أذنها اليمنى.

«سنكون وحدنا في الفندق. النّازلان الوحيدان فيه تقريباً. بإمكانك الاسترخاء طوال اليوم وعدم التفكير في شيء، لا شيء. لا يهم من أنت أو كيف علقْتِ هنا، أو إلى أين ستذهبين مستقبلاً. ليس عليكِ حتى أن تتحركي. استلقي في الظّل. أنا أعرف أنك تحبين الاستلقاء في الظل».

لمستُ وجهها بلطف براحة يدي، غنجتها مراراً وتكراراً، بتلك الكلمة المُحبّبة.

«سنكون معاً. بإمكانك الاسترخاء والنوم، وفي المساء سنشرب نبيذاً فاخراً، وستشعرين بالتحسن. أعلم أنك ستفعلين، أنا أكيد، أنا أؤمن بذلك. لست وحدك، لا بأس، لا بأس. هذه هي الساعات الأخيرة، هذا كل ما في الأمر. ستتحدثين معي بالألمانية».

تكلمنا تحت رذاذ المطر أثناء عودتنا إلى باب سيارة الأجرة المفتوح. كان روبرت عند المقود، مرتدياً السلسلة الفضية. شغّل محرّك السيّارة.

لحظاتٌ إنسانيّةٌ في الْحَرْبِ الْعالَمِيَّةِ الثَّالِثَة

ملاحظة عن فولمر: لم يعد يصف الأرض بمكتبة كروية، أو كخريطة دبّت فيها الرّوح، أو كعين كونيّة تحدّق عميقاً في الفضاء. هذه الصورة كانت أكثر خيالاته جموحاً. لقد غيّرت الحرب الطريقة التي ينظر فيها إلى الأرض. إنها تتكون من ماء ويابسة، وهي محل إقامة الإنسان الفاني، حسب تعريف القاموس المترف. لم يعد يراها مجرد (أعاصير قمعية، سي برايت، هواء ساخن وسديم وألوان) أو فرصة مناسبة لصوره الخيالية، أو من أجل لعبة هادئة أو تأمل.

عند مئتين وعشرين كيلومتراً، شاهدنا أثر سفينة تشق عباب البحر، ومطارات أكبر حجماً، وجبالاً جليدية، وصواعق رعدية، وكثباناً رملية. شاهدنا تدفق الحمم ودوّامات باردة في مراكز الأعاصير.

هذه هي رحلتي المدارية الثالثة، ورحلة فولمر الأولى. إنه مهندس نابغ، عبقريّ في الاتصالات والأسلحة، ولعله نابغ أيضاً في مجالات أخرى. وكمتخصص في المهمة، يرضيني أن أكون المسؤول. (كلمة متخصص، هي الكلمة الشائعة في قيادة كولورادو، وتشير هنا إلى شخص غير متخصص). مركبتنا الفضائية مصمّمة أساساً للتجسس. دقة الحرق الكمّي تمكننا من إجراء تعديلات متكررة لمدار المركبة. ندوّن في كل مرة سرعة إطلاق الصواريخ. نحن نتأرجح خارج المسارات العريضة والمرتفعة. الأرض أشبه بضوء الفيزيائي، للتّقصي عن غير البشريين وربما عن أقمار صناعية معادية. نحن ندور بثبات، بشكل مريح، ننظر

بشوق إلى نشاطات سطح الأرض في الأماكن التي لم يقصدها البشر كثيراً.

خطر الأسلحة النووية جعل العالم آمناً من الحرب.

أحاول ألّا أنساق وراء أفكار مشتتة، لكن التّوق للأرض يغلبني أحياناً. مدارها يجعل الإنسان فلسفيَّ المزاج. أنّى لنا مقاومته ونحن نرى الأفق والكوكب بأكمله؟ ولنكافئ أنفسنا على نجاح التجربة، كنّا نميل لتأمل البشر... إنها تجربة تشعره بأنّه كونيّ، يطفو فوق القارات، ويشاهد شفير العالم، خط واضح كوضوح قوس البوصلة، وسلسلة جذور تتلألأ في البحر القاتم... كنّا نعرف أنّا مجرد ميلان باتجاه الشّفق الأطلنطي لترسيب الأعشاب البحرية.

أقول لنفسي إنه مجرد مشهد. أرغب في اعتبار حياتنا هنا عادية، كترتيبات التدبير المنزلي، خطوات غير موفقة سببت قصوراً في الإسكان أو سيول الربيع في الوادي.

يُنفّذ فولمر المطلوب قبل ذهابه إلى شبكة النوم طلباً للراحة. إنه في الثانية والعشرين من عمره. شاب ذو شعر طويل قريب من اللون النحاسي. إنه يتحدث عن شمال مينيوستا أثناء إخراجه لأشيائه المفضلة من الحافظة، ثم يضعها على سطح لاصق للتأمل والمؤانسة. أما أنا فلديّ دولار فضيّ يعود لعام 1901 في حافظة أشيائي المفضلة. صغير لا يجلب حسن الطالع. يملك فولمر صور تخرّج، أغطية قناني، حصى صغيرة من فناء منزله الخلفي. لا أعرف إذا اختار هذه الأشياء لنفسه أم أنّ والديه أجبراه على أخذها لأنهما خشيا انعدام اللحظات البشرية في الفضاء.

إن مكاني النّوم لحظات إنسانيّة أيضاً - كما أعتقد - رغم أنّي لا أعرف إذا أمرت قيادة كولورادو باستخدامهما. نحن نأكل السّجق وألواح اللوز المطحون ونضع زبدة الشفاه وهي من ضروريات قبل النوم. نرتدي خُفّيْن في مرحلة إطلاق النار. قميص فولمر الذي يعود لفريق جيرسي

لكرة القدم هو أيضاً لحظة إنسانية. إنه قميص بنفسجي وأبيض واسع، من البوليستر، ويحمل رقم 79، رقم لاعب كبير، عدد مفرد لا معنى شخصي يربطه به، والقميص يجعل كتفيه مستديرين ومؤطرين.

«ما زلت أكتئب في أيام الآحاد».

«وهل لدينا آحاد هنا؟».

«لا، لكنهم يعيشون هناك، ولا زلت أشعر بها. أنا أعرف دائماً متى يحل يوم الأحد».

«ولماذا تكتئب؟».

«بطء ساعاته. شيء فيه. رائحة العشب الدّافئ، طقوس الكنيسة، وزيارة الأقارب بتأنق. يوم سرمديّ».

«أنا أيضاً لا أحب أيام الأحد».

«كانت بطيئة، ولكن ليست في غاية البطء. طويلة وحارّة، أو طويلة وباردة. يصنع جدّي الليموناضة صيفاً. روتين. كان اليوم كلّه بمثابة الإعداد المسبق الذي لم يتغير غالباً، لكنّ روتين مدار الأرض مختلف. إنه مُرضٍ، ويمنح وقتنا شكلاً وجوهراً. أمّا أيام الأحد تلك فكانت بلا شكل رغم تيقني مما هو آتٍ فيها، ومن هو آتٍ، وماذا ستقول. أعرف الكلمات الأولى التي سينطق بها كل شخص قبل أن يتفوه بها. كنت الطفل الوحيد في أسرتي، وكانوا يبتهجون عند رؤيتي. تمنيت الاختباء دوماً».

«وما خطب الليموناضة؟» سألته.

قمر إدارة المعركة الصناعي غير المأهول، يرسل تقارير عن ارتفاع نشاط الليزر في قطاع دولوريس المداريّ. أخرجنا عُدة الليزر ودرسناها لنصف ساعة. إجراءات تركيز الأشعة معقدة ولأن اللوح يعمل بتحكم اليد فقط، علينا التمرن على القياسات المحددة بحذر شديد.

ملاحظة عن الأرض: الأرض محفوظة ليلَ نهار، فيها تباينات منطقية

ومتزنة، يقظة طبيعية ونوم، أو هكذا تبدو لشخص محروم من التأثير الموجي.

ولهذا أثارت ملاحظة فولمر عن أيام الأحد اهتمامي. إنه فوق مينيوستا ولا زال يشعر أو يدّعي الشعور، أو يظن أنه يشعر بارتباط موروث بالأرض.

لبشر في هذا البُعد، هذا أشبه بوجود الأشياء في شكلها الفيزيائي من أجل الكشف عن حقيقة حسابية خفية بسيطة. تكشف لنا الأرض عن جمالها المبهر والأخّاذ ليلاً ونهاراً. إنه هناك ليتم احتواؤه ويدمج في الأحداث التّصورية.

يشبه شكل فولمر في البنطال القصير وأداة السّحب بيده، سبّاحاً في المدرسة الثانوية، في كل شيء عدا أنه بلا شعر، لم تكتمل رجولته، ولا يدرك أنه في معرض لأحكامي القاسية، لا يدرك أنه غير جاهز، يقف مكتوف اليدين في مكان فيه صدى للأشياء وروائح الكلورين، هناك شيء غبيّ في صوته. إنه مباشر للغاية، صوت غليظ من سقف فمه، لجوج قليلاً، ومرتفع نوعاً ما. لم يتفوَّه فولمر بشيء يخصني ويزعجني في وجودي. المشكلة في صوته العالي والأجش. صوت بلا نفس.

لسنا محشورين هنا. كل من السطح الداخلي وكابينة الطاقم مصممان بعناية. والطعام جيد إلى حدّ ما. هناك كتب، أشرطة فيديو، أخبار، وموسيقى. نلتزم بتنفيذ بنود القائمة الشفهية، إطلاق النار المحفز دون أيّ تذمر أو لامبالاة. نحن نتحسن في تنفيذ المهام دوماً، التحاور هو الخطر الوحيد.

أحاول أن أبقي حواراتنا سهلة. بحيث أجعلها تحتمل الرّأي الآخر للتحدث عن كل الصغائر، الأشياء الروتينية. هذا منطقيّ بالنسبة لي. قد يبدو كتمرين صوتيّ، وتحت هذه الظروف، يقتصر حديثنا على المواضيع المألوفة. أرغب في إيجاد أرض مشتركة. لكن فولمر يميل للتحدث عن أمور عظيمة. إنه يرغب في الحديث عن الحرب وأسلحتها. إنه يرغب

في مناقشة الاستراتيجيات العالمية، الاضطهاد العالمي. أخبرني الآن أنه قد توقف عن وصف الأرض كعين كونية. إنه يرغب في اعتبارها لعبة لوحية أو نموذجاً محوسباً. إنه ينظر إليّ بوجه خال من التعابير ويحاول زجّي في سجال تنظيري: هجمات انتقائية مركزها الفضاء مقابل التدخلات الطويلة، والمجرّدة، والمنظمة برّاً وبحراً وجوّاً. إنه يقتبس ويذكر مصادره. ما عساي أن أقول؟ سوف يقول: آمال الناس قد خابت في الحرب. إنها تجرّنا إلى أسبوعها الثالث. وهناك شعور بالإنهاك... بالهزيمة. لقد استخلص ذلك من التقارير التي نستلمها دوريّاً. شيء ما في صوت المذيع يوحي بإسدال الستار على الحرب، والمرارة بخصوصها. لعل فولمر مصيب في هذا الشأن. شعرت أنا أيضاً بهذا في صوت قيادة كولورادو. رغم أن أخبارنا مشفرة، إلّا أنهم لا يخبروننا عن أشياء يظنون أن علينا عدم معرفتها، خاصة في ظرفنا هذا وموقفنا المكشوف والحساس. وبصوته الخشن الذي يبدو غبيّاً وغريباً، قال فولمر الشاب: إن الناس لا يستمتعون بهذه الحرب قدر استمتاعهم بها سابقاً، لطالما غذّوا أنفسهم في الحرب، كتوتر محتدم، ودوريّ. لم أعارض فولمر إنه يشاركني عادة في أكثر اعتقاداتي رسوخاً. كلماته تصدر من وجهه الدّمث، في ذلك الصوت الغليظ الذي أجد فيه ملاذاً أخيراً. تقلقني أفكاره التي تفتقد لرباطة الجأش عندما يتكلم عنها. أريد أن تكون الكلمات سرية، تلزم العتمة، قصية في الأعماق. فولمر يجاهر بتجريد الأشياء المؤلمة.

ليس من المبكّر استرجاع الحنين إلى حروب أقدم. كل الحروب تحيلنا إلى الماضي. السفن، والطائرات، والعمليات، والأسلحة الأبسط برُمّتها تحمل أسماء معارك قديمة. الصّراعات التّي نتوجّس منها نجابهها بمفهوم أكثر نبلاً، يطلق عليها اسم صواريخ توماهوك II العابرة للقارات. عندما أجلس في منصة إطلاق النار، أنظر إلى صورة جدّ فولمر في شبابه مرتدياً بنطالاً خاكي اللون وخوذة مسطّحة، واقفاً في حقل أجرد، وبندقية

مربوطة بكتفه. هذه لحظة إنسانية، وهي تذكرني بهذه الحرب. من بين أشياء أخرى، هي شكل من أشكال التّوق.

انقطع تواصلنا مع مركز القيادة. تناولنا الطعام، وتبادلنا الأشرطة. الحرب تسير بشكل جيد، كما أخبرونا، رغم أنه يبدو أنهم لا يعرفون أكثر مما نعرفه نحن.

انقطعنا.

المناورات العسكرية مستمرة، وأنا أشعر بالسعادة والرضا لمتابعة التواصل الإنساني مع أقرب شكل من أشكال العالم الخارجي. دعابات متبادلة، وإهانات متبادلة، وأصوات متبادلة، أخبار وشائعات متبادلة. كنّا نقتات على مؤونة معلبة من البروكلي وعصير التفاح، وفاكهة مختلفة، وبودينغ. يسري الحنين في أوصالي للتنعّم بالرخاء الاستهلاكي الثابت.

على قميص فولمر كلمة: نــقــش[1].

يقول: تمنى الناس أن يكونوا جزءاً لا يتجزأ من شيء يتفوّق على ذواتهم. كانوا يشعرون بهدف مشترك، بمصير مشترك. اعتقدوا أنه سيكون كارثة مشتركة، عاصفة جليدية مثلاً، تغطي مدينة كبيرة. وبغضّ النظر عن احتمال استمرارها أشهراً، أو سنوات، وإهلاك الجميع خلالها، فهي تخلق شعوراً مألوفاً بقرب حدوث المصاعب وتثير الفزع فقط. أغراب يتبادلون أطراف الحديث. وجبات على أضواء الشموع عند انقطاع الطاقة. تعظّم الحرب من كل ما نقوله ونفعله؛ ما كان غير شخصيّ سيصبح شخصيّاً. ما كان شخصياً سيصبح مشتركاً. لكن ما الذي يحصل عندما يبدأ الشعور المشترك بالكارثة بالاضمحلال بسرعة تفوق توقع أيّ شخص؟ سنشعر بأنّه سيستمر وقتاً أطول في العواصف الثلجية.

ملاحظة عن الضّوضاء الانتقائية: قبل ثمانٍ وأربعين ساعة كنت أراقب بيانات على منصة التحكم عندما تداخل صوت مع تقريري لقيادة

1- نــقــش: وردت هكذا في النص الأجنبي «Inscription». (المترجمة)

كولورادو. كان صوتاً مشوّشاً، وملتبساً. تفحّصت سماعتي، والأزرار والأضواء. بعد ثوانٍ وصلت إشارة القيادة وسمعت صوت ضابط حركيّات الرّحلة، يطلب مني تغيير التردد إلى التردد المتكرر. فعلت ذلك، لكن هذا أعادني إلى الصوت الخافت، صوت حمل معه حزناً مبهماً. بدا الصوت مألوفاً. لا أقصد أني أعرف المتحدث. كانت نبرة صوته مميزة، ملامسة لشغاف القلب، كلامه لطيف وبعيد رغم التشويش، صوت غير واضح.

على أيّ حال، استكملت قيادة كولورادو الإرسال في غضون ثوانٍ.

«لدينا انحراف يا توماهوك».

«عُلِم، هناك صوت».

«لدينا تذبذب جسيم هنا».

«هناك شيء من التداخل. كررت كلامي ولست متأكداً من أنك تسمعه».

«نحن نحاول تحديد مصدره».

«شكراً كولورادو».

«لعله مجرد صوت انتقائي. أنت أحمر سالب على الدالة الدّارجة الرّباعية».

«كان صوتاً»، أخبرتهم.

«وردنا تأكيد على أنه صوت انتقائي».

«يمكنني أن أسمع كلمات، بالإنجليزية».

«نحن ننسخ الصوت الانتقائي».

«شخص ما كان يتحدث يا كولورادو».

«ما هذا الصوت الانتقائي برأيكم؟».

«لا أعرف ما هو».

«أنتم تتلقون شيئاً من غير البشر».

«إذا لم يكن بشريّاً فكيف يرسل صوته؟».

«إنه ليس صوتاً بالمعنى المقصود يا توماهوك. إنها ضوضاء انتقائية. لدينا معلومات عن بعد مؤكدة بخصوص ذلك».

«من المفترض أن يكون صوتاً، لكنه ليس صوتاً بالمعنى المقصود. إنه مُحَسّن».

«بدا غير معدّل، وكأنه صوت بشري خالص».

«إنها إشارات متزامنة. مخلّفات مدارية جيوتزامنية. أنت تتلقى رموزاً صوتية من اثنين وعشرين ألف ميل. إنها تقرير عن الطقس. سوف نصحّح التردد يا توماهوك، في الوقت الحالي ننصحك بأن تبقى على اطلاع».

بعد عشر ساعات تقريباً سمع فولمر الصوت. ثم سمع صوتين أو ثلاثة. كانوا أشخاصاً يتحدثون، يتحاورون. أشار لي وهو ينصت، أشار إلى سمّاعة الرّأس، ثم رفع كتفيه، وأبعد السّماعة في إشارة إلى الدهشة والذهول. في الضوضاء احتشاد للأصوات (كما قال لاحقاً) لم يكن من السهل معرفة ما كان الناس يقولونه. كان تشويشاً متكرراً، والإحالة كانت مربكة نوعاً ما، لكن فولمر ذكر كم كان تأثير هذه الأصوات عميقاً، حتى عندما كانت الإشارات أضعف ما يكون. شيء واحد كان يعرفه: لم تكن ضوضاء انتقائية. إنّها أنقى وأعذب حزن انبعث إلى فراغ بعيد. لم يكن أكيداً. لكنه ظنَّ أن هناك صوت ضوضاء في خلفية الحوار. ضحك. صوت أشخاص يضحكون.

في ترددات أخرى، تمكنّا من التعرف على الموسيقى، مقدّمة المذيع، دعابة، وتصفيق، إعلانات تجارية لمنتجات فقدت بريق علامتها التجارية منذ أمد بعيد، مستحضرة أثراً ذهبيّاً لمدن عظيمة دفنت تحت الرمال وطمِيّ النّهر.

بشكل ما، كنّا نلتقط إشارات من برامج إذاعية تعود إلى أربعين، خمسين، ستين سنة ماضية.

مهمتنا الحالية هي تجميع بيانات مُصوّرة عن انتشار القُوّات العسكرية. أحاط فولمر بكاميرته، مشغولاً في تعديلات دقيقة. هناك ركام طبقي باتجاه البحر. ضوء شمس وانجراف ساحلي. أنا أشاهد زهر العوالق بزرقة فارسية، تغيّر في اللون للتعبير عن شكل من أشكال الفرح

البديهي. وبينما تنبسط تضاريس السطح ذكرت أسماءها بصوت مرتفع. إنها اللعبة الوحيدة التي بإمكاني لعبها في الفضاء، ذكر أسماء المظاهر الجيولوجية في الأرض، اصطلاحاً، المعالم والتكوينات. الانحراف الجليدي، الركام الجليدي. تحطم المخاريط عند حافة موقع تأثيره متعدد الحلقات. (كالديرا) منبعثة، مجموعة من الصخور المتقلّعة. هو على رمال البحر الآن. كثبان رملية إهليلجية، كثبان نجمية، كثبان طولية على شكل شعاع هلالي. كلما كانت الأرض جرداء، كان أكثر تألقاً ودقّة في أسمائها. قال فولمر إن أفضل ما يفعله العلم هو إطلاق الأسماء على التضاريس الجغرافية للعالم.

حصل على شهادتين في العلوم والتكنولوجيا. كان قد فاز بمنحة، نال مرتبة الشرف، وعمل كمساعد باحث. إنه يدير مشاريع علمية، يقرأ الصحف التقنية بصوت غليظ يلامس سقف فمه، ونبرة كخبير متخصص (عام)، أمتعض أحياناً من تفكيره اللاعلمي، بصيص النضج والأحكام المتّزنة. بدأت أشعر بالممنوع قليلاً. أريده أن يلتزم باللوائح، والإرشادات إلى المركبة، مؤشرات البيانات. وعيه الإنساني يصيبني بالقلق.

«أنا سعيد»، قال.

لفظ هذه الكلمات بنبرة حاسمة. أثّرت فيّ هذه العبارة البسيطة تأثيراً كبيراً. أرعبني في الواقع. ماذا يقصد بأنه سعيد؟ أليست السّعادة خارج إطار معاييرنا كليّاً؟ كيف يظن أن بإمكانه الشعور بالسعادة هنا؟ أريد أن أقول له: «هذه مجرد تدبيرات منزلية، سلسلة من المهام الروتينية إلى حدّ ما. التزام بالمهام، القيام باختبارات، تفحص قائمة الأشياء التي عليك تنفيذها». أريد أن أقول له: «انسَ حدود بصرنا، اكتساح الأشياء، الحرب ذاتها، الموت المريع. انسَ المبادئ الجوهرية الليلية، النجوم كنقاط ثابتة، (الميادين، الحقول) الحسابية. انسَ العزلة الكونية، وموجات الرعب والألم».

أريد أن أقول: «لا تنطبق السعادة على هذه التجربة، على الأقل ليس إلى حدّ تجاسر المرء والتحدث عنها».

تقنية الليزر أصلها نبوءة. إنها نوع قاتل من البرمجيات القاتلة، شعاع دقيق من الفوتونات، ترابط هندسي، لكننا نستخدم السلاح بعقول مليئة بتحذيرات ومخاوف قديمة. (لا بدَّ من وجود مصطلح لهذه الحالة المثيرة للسخرية: خوف بدائي من الأسلحة والتي نحن متقدمون بما يكفي لتصميمها وإنتاجها). الخوف من قوة الضوء، مادة الكون النقية... ربما لهذا السبب أمرنا القائمون على المشروع بالتدرب على إطلاق نار يعتمد على إجراءات تعاونية بين شخصين، مزاجيْن، روحيْن - وتشغيل الضابطات معاً.

عقل واحد معتم في لحظة وحي قد يظن أن من التحرير إطلاق شعاع مركز على بوينغ حدباء صانعاً دورتها التجارية عند ثلاثين ألف قدم.

اقتربنا أنا وفولمر من لوح إطلاق النار. إن اللوح مصمم بطريقة تتوجّب جلوسنا ظهراً لظهر. وسبب ذلك، رغم أن قيادة كولورادو لم تقل هذا بصراحة، هو أن تمنعنا من رؤية بعضنا. تريد كولورادو أن تتأكد من أن موظفي الأسلحة لا يتأثرون بتشنجات واضطراب بعضهم. نحن الآن ظهراً إلى ظهر، محشورون في مقاعدنا ومستعدون للبدء. يرتدي فولمر فانيلة جيرسي البنفسجية والبيضاء، من البوليستر. هذا مجرد اختبار.

بدأ التشغيل على صوت القيادة الذي سبق تسجيله. أدخلنا مفتاح النموذج في الفتحة المناسبة. قمنا بالعدّ التنازلي معاً: **أنتما منفتحا التفكير الآن.**

فولمر يتحدث في محلل بصمة الصّوت الخاص به.

«هذه الشفرة على عشب أزرق. اطلب تنقية هوية الصوت».

قمنا بالعدّ التنازلي من خمسة ثم تحدثنا في محلل بصمة الصوت. قلنا أيّ شيء خطر في أذهاننا. الهدف ببساطة هو إنتاج بصمة صوت تطابق تلك التي في الذاكرة. هذا يضمن أن الرّجلين الجالسين عند لوح التحكم هما الرجلان المخول لهما البقاء عند النظام. أنت منفتح الذهن الآن.

هذا ما خطر في ذهني: «أنا أقف عند الزّاوية الرّابعة والرئيسة، حيث يوجد آلاف من القتلى لأسباب غير معروفة، إن أجسادهم المحروقة متكدسة في الشارع».

قمنا بالعدّ التّنازلي من ثلاثة. قال الصّوت المعدّل: **يسمح لكما بالمتابعة إلى وضع الإغلاق.**

أدرنا مفتاحيْنا نصف استدارة إلى اليمين. نشطت رقاقة المنطق ودرست الأرقام التي على شاشتي. فضّل فولمر بصمة الصوت ووضعنا في دورة الصوت المنسجم بفتحة استشعار الحاسوب. قمنا بالعدّ التنازلي من خمسة. قال الصوت المعدّل: **لقد أغلق عليك الآن.**

وخلال انتقالنا من خطوة للأخرى انتابني شعور متزايد بالرضا - متعة نخبوية والمهارات السرية، حياة تتحكم فيها قواعد محدّدة، أنماط، شفرات، متحكّمات بكل نفس. أحاول إبقاء النّتائج العمليّة خارج ذهني، غرض هذا كله، ناتج هذه المتتاليات من الخطوات الدّقيقة والخفية ولكني أفشل عادة. أسمح للصور بالمرور في تفكيري، أفكر بالفكرة، حتى إني أنطق بالكلمات أحياناً. هذا مربك، طبعاً. أشعر بأني قد خُدعت. قد غُدر بمتعتي. كما لو أن لها حياة مستقلة، وجود طفولي أو ذكاء حيواني مستقل عن الإنسان الذي عند منصة إطلاق النار.

نقوم بعدّ تنازلي من خمسة. يطلق فولمر الرّافعة التي تحرر قرص تنقية الأنظمة. يظهر مراقب النبض أخضر في فترة 3 ثوانٍ. قمنا بالعدّ التنازلي من ثلاثة. أدرنا مفتاحي النّموذج بثلاثة أرباع الاستدارة إلى اليمين. نشّطتُ شعاع ضبط التعاقب. أدرنا المفتاحين ربع استدارة إلى اليمين. قمنا بالعدّ التنازلي من ثلاثة. تعزف موسيقى العشب الأزرق على صوت الصندوق الحادّ.

قال الصوت المعدّل: **أنت في وضع إطلاق النار الآن.**

درسنا عدّة خريطة العالم خاصتنا.

«ألا تشعر بالقوة فيك أحياناً؟» قال فولمر.

«حالة شديدة من الصحة، نوعاً ما. صحة كبرياء. هذا كل ما في الأمر. أنت تشعر بحال أفضل فتبدأ في التفكير بأنك متفوق قليلاً على الآخرين. نوع من قوة الحياة. تفاؤل بنفسك تكوّنه تقريباً على حساب الآخرين. ألا تشعر بذلك أحياناً؟».

(أجل، في الحقيقة)

«هناك كلمة ألمانية لها. لكني أريد جعل هذا الشعور القوي - لا أعرف - مرهفاً. هذه هي الكلمة. نشعر به في يوم ما، وفي اليوم التالي أنت ضئيل وفاشل. إذا حدث أمر صغير فاشل، تشعر بالفشل، تشعر حرفيّاً بأنك ضعيف ومهزوم وغير قادر على التصرف السليم أو حتى بشكل معقول. الكل محظوظ، إلّا أنت... منحوس، وحزين، وغير مفيد، وفاشل».

(أجل، أجل)

مصادفة، كنا الآن فوق نهر ميسوري، ننظر إلى بحيرات مينيوستا الحمر. شاهدت فولمر يتفحص مجموعته الخاصة به، محاولاً أن يطابق العالمين. إنها سعادة عميقة وغامضة، لتأكيد دقة خريطة. يبدو في منتهى الرضا. إنه يقول باستمرار: «ها هي، ها هي».

تحدث فولمر عن طفولته. بدأ التفكير في المدار في سنوات طفولته الأولى لأول مرة. حضور هذه الذكريات القوي يملؤه دهشة. يبقي رأسه أثناء حديثه بمواجهة النافذة. إن مينيوستا لحظة إنسانية. بحيرة حمراء علوية، وبحيرة حمراء سفلية. إنه يرى نفسه هناك بوضوح.

قال: «الأطفال يمشون، إنهم لا يستحمّون تحت الشمس أو يجلسون تحت الظلال».

كأنه يقول إنّ الأطفال هناك مجهّزون جيداً للتأقلم مع التعزيزات التي يعتمد عليها الآخرون. أفكار رائعة لكن لن تستكمل. إنه وقت إعداد الاحتراق الكميّ.

استمعنا إلى برامج الإذاعة القديمة. شعلات ضوئية عبر الأزرق المخطط، الشروق، والغروب، التعريشات في الظل. ملاحظات امرأة ورجل، توقيت جيد، ضوء، مدبب، بمزاح. هناك عذوبة في النأي والصخب العشوائي قد غلّفا بالفصاحة والحنين. كل صوت خفيّ من هذا الزمن. يقول فولمر إنه يتذكر كل هذه البرامج، رغم أنه طبعاً لم يسمع بها من قبل. يا له من حدث عرضي غريب، يا له من ازدهار أو بهاء لقوانين الفيزياء التي تمكنت من التقاط هذه الإشارات؟ أصوات مسافرة، محفورة وكثيفة. فيها أحياناً تجريد وسريالية وهلوسات سمعية، أصوات في غرفة العلية، شكاوى أقرباء متوفين. لكن التأثيرات الصوتية مليئة بالإصرار والاندفاع. السيارات تنعطف بخطورة خطر الزوايا، إطلاق نار يملأ الليل. كان وقت الحرب. ووقت الحرب هو وقت السّجائر ورقاقات جوزٍ وعنبٍ. يضحك الكوميديون من طريقة تحدث العدوّ. نحن نستمع إلى تهكّم ألماني هستيري، وملاحظة يابانية غبية. المدن مضاءة. ملايين المستمعين، مدللون التقوا براحة في الغرف الناعسة، في الحرب، بينما يخيم الليل بلطف. يقول فولمر إنه يتذكر أوقاتاً محددة، عدوى كوميدية، ضحكة المذيع السمين، إنه يتذكر أصواتاً فردية تتصاعد من ضحكات جمهور الاستديو، قهقات رجال أعمال سان لويس، أنّات شقراء عالية الكتفين قد وصلت للتوّ إلى كاليفورنيا. حيث تسرح النساء شعورهن في ذلك العام بأعشاب عطرية.

يتحرك فولمر في المكان المخصص له وهو يأكل ألواح الجوز.

إنه يطفو أحياناً ويجرب الأرجوحة، ينام بانحناءة الجنين يهتز بين الجدران، ملاصقاً لزاوية السقف الشبكية.

«امنحني لحظة لأفكر باسم» يقول في نومه.

يقول إنه يحلم بمساحات عمودية من زاويته، وهو صبيّ، عندما ينظر إلى شيء ما. أما أحلامي من العيار الثقيل، من النوع الذي يصعب الاستيقاظ منه. إنها قوية بما يكفي لسحبي للنوم، كثيفة بما يكفي لتتركني

برأس ثقيل، شعور بالتخدير، والتّورم. هناك شيء من الرضا بلا سبب، مزعج بشكل مبهم.

قال: «لن تصدقها عندما تفكر فيها، كيف يعيشون هناك في كل هذا الثلج، والرمال، والجبال الوحشية، انظر إليها: صحارى جدباء شاسعة، ومحيطات هائلة المساحة، كيف لهم أن يتحمّلوا كل هذه الفظائع؟ الطوفانات وحدها. الزلازل وحدها تجعل العيش هناك جنوناً. انظر إلى كل تلك القرارات الخاطئة ، إنها كبيرة بحق، هناك الكثير منها. الثورات البركانية وحدها. أيّ شيء أكثر رعباً من ثورة بركان؟ كيف يتحمّلون الجليد عاماً بعد عام؟ اعتياد؟ يصعب تصديق إقامة أشخاص هناك. بإمكانك أن ترى مناطق شاسعة ملونة، قد اجتاحها الطوفان جميعاً. جرفها. كيف سينجون، أين سيذهبون؟ انظر إلى تكوين السحب. انظر إلى مركز الإعصار. ماذا عن الناس الذين يعيشون في مسار إعصار كهذا؟ لا بدَّ أن ريحه صرصر عاتية. البرد وحده. الناس معرضون له على الشواطئ، قرب الأشجار، ودعامات الهواتف. انظر إلى المدن والبرق اللامع في كل الاتجاهات. جرّب أن تفكر بالجريمة والعنف. انظر إلى الأدخنة المعلقة بانخفاض. ماذا يعني هذا لمرضى الربو؟ هذا جنون. من ذا الذي يعيش هناك؟ الصّحارى، كيف يعتدون عليها. كل عام يحرثون المزيد والمزيد من الأراضي. كم هي شاسعة تلك المساحات البيض انظر إلى العواصف الهائلة على المحيطات. هناك سفن في الأسفل، بعض القوارب الصغيرة. جرّب أن تتخيل الأمواج، وهي تتكسر. العواصف وحدها. انظر إلى تلك المجتمعات الساحلية المعرضة للمدّ البحري. هل من شيء أكثر رعباً من المدّ البحري؟ لكنهم يعيشون هناك، باقون هناك، أين عساهم يذهبون؟».

أريد أن أحادثه عن تناول السعرات الحرارية، فعالية سدادة الأذن ومزيل احتقان الأنف. إن سدادة الأذن لحظة إنسانية. عصير التفاح والبروكلي لحظتان إنسانيتان. فولمر نفسه لحظة إنسانية ليس أكثر إنسانية من وجود حرب.

الشعر الشبه النحاسي والطويل. العينان الزرقاوان الوديعتان المتورمتان قليلاً. عينا طويل القامة ومنحني الكتفين الجاحظتان، اليدان والمعصمان الطويلان. الوجه الأنيس. وجه ماهر في الأعمال اليدوية ومتساهل في لوح المقايضة التي فيها تطويلة سلّم مثبت بالسقف لوحة رخصة، خضراء وبيضاء، بشعار الدولة تحت الأرقام. ذلك النوع من الوجوه.

إنه يعرض عليَّ قص شعري. كم هي مثيرة للاهتمام قصة شعره، عندما تفكر فيها. قبل الحرب كان هناك فسحات زمنية مخصصة لهكذا أنشطة. ليس فقط كل شيء منظم لدى هوستون، بل وأيضاً يراقبنا باستمرار في كل تغذية راجعة رديئة قد تستجد. كنا مربوطيْن بأسلاك، وخطواتنا تُسجّل، ونُفحص، ونُقاس. كنّا رجلين في الفضاء، أعمق القضايا والتوترات تستحق التدقيق، والعناية بتفاصيلها.

حرب تدور الآن. لن يأبه أحد بشعري، ما آكله، ما أشعر به اتجاه المركبة الفضائية، ونحن لسنا على تواصل مع هوستون بل كولورادو. لم نعد مجرد بشريين مرهفين في بيئة خارجيّة. قد يقتلنا العدوّ بفوتوناته، ميزوناته، جزيئاته المشحونة أسرع من نقص الكالسيوم أو علة في الأذن الدّاخليّة، أسرع من أيّ ذرة غبار في الفضاء. لقد تبدّلت العواطف. لم نعد مؤهلين لميتة مخجلة، بسبب خطأ أو حدث غير متوقع يجعل بلداً ما يضطرب لاتخاذ الاستجابة المناسبة. كرجليْن في الحرب- حتماً- سنموت، سنولّد حزناً هيّناً، التعاطف الذي تعتمد عليه الأوطان الممتنّة والوفية لتزييف أبسط مراسم العزاء.

ملاحظة عن الكون: فولمر على وشك الإقرار بأن كوكبنا وحيد في التستر على حياة ذكية. نحن مصادفة لن نتكرر. (يا لها من ملاحظة)، في مدار بيضوي، شخصان لا يرغبان في مناقشة الأسئلة الأعظم. شعوره هذا سببه الحرب.

الحرب، يقول إنّها ستهلك الكون. لقد نظر رواد فضاء آخرون إلى

نقاط النجوم وتخيلوا احتمالات لانهائية. عوالم متجمعة في مواقف بائسة بأشكال أرفع. لكن هذا كان قبل الحرب. آراؤنا تغيرت الآن، آراؤه وآرائي. كما يقول، ونحن في العلياء.

هل يقصد فولمر أن التفاؤل الكوني فخامة محفوظة في فترات حروب العالم؟ هل نوجّه فشلنا الحالي وإحباطنا على الأرض نحو النجوم، الليالي النهائية؟ في النهاية، أين هم؟ إذا كانوا موجودين، فلماذا لا تكون هناك علامة، لا توجد علامة، ولا أيّ واحدة، ولا دليل واحد على أن أشخاصاً جادين يتكلمون عبر المذياع، تخبرنا الحرب أن تصديق وجودهم حماقة.

بدأت محادثاتنا مع قيادة كولورادو تبدو كمحادثة وقت الشاي من توليد الحاسوب، فولمر يتساهل مع رطانة كولورادو غير المفهومة. إنّه ينتقد عباراتهم المهينة ولا يمانع في إعلامهم بذلك. إذا وافقت على آرائه في هذه المسألة، هل أُصْبح منزعجاً من شكواه؟ أليس صغيراً على تحدي اللغة؟ هل لديه الخبرة، تخويل رسمي لتوبيخ الضابط المسؤول عن ديناميكية الرّحلة، مسؤولنا عن التصور النظري، المستشارين الموكلين بمتابعة حالتنا في أنظمة التخلص من النفايات واختيارات المراوغة النّطاقية؟ أم إنه أمر مختلف تماماً، أمر مرتبط بقيادة كولورادو وتواصلنا معهم؟ هل هو وقع صوته؟ أيقودني صوته للجنون؟

***

لقد دخل فولمر مرحلة خطرة. صار يمضي جلَّ وقته عند النافذة، ينظر إلى الأسفل للأرض. إما أن يقول القليل أو لا يقول شيئاً. يرغب في المشاهدة بكل بساطة: المحيطات، والقارات، والأرخبيلات. نحن مشكّلون فيما يعرف بسلاسل اجتياز المدار ولا يوجد هناك تكرار في التأرجح حول الأرض من نقطة إلى أخرى. إنه يجلس هناك ويشاهد. إنه يتناول وجباته عند النافذة، ينفذ ما في القائمة على النافذة، بالكاد ينظر إلى ورقة التعليمات أثناء مرورنا بالعواصف المدارية، على حرائق

العشب والمناطق الضخمة. أترقب عودته لاستخدام عبارات غريبة لوصف الأرض: إنها كرة شاطئية، فاكهة مشمش قديمة. لكنه ينظر عبر النافذة بكل بساطة. يأكل اللوز المجروش، يطفو بعيداً. المنظر يسيطر على وعيه بوضوح. إنه مهيب بما يكفي ليلزمه الصمت، ليسكن الصوت الذي يلامس سقف فمه، ليجعله متقوقعاً على الكرسي، منثنياً بشكل غير مريح لساعات في كل مرة.

المشهد مهيمن بشكل غير نهائي. إنه أشبه بإجابة عن أسئلة الحياة والحنين المبهم. إنه يرضي أشباه الأطفال، كل رغبة صامتة، مهما كان فيه من عالِم، شاعر، متفرج بدائي، مراقب للهب والنّيازك. أيما هوس يأكل عقله، أيما توق حالم وعذب لأماكن قصية بلا أسماء، أيما شعور أرضي ينتابه، النبض المحايد لإدراك أجمح، شفقة على البهائم، أيما إيمان بقوة جوهرية راسخة، إله الخلق، أيّما سرّ يتستر على فكرة تفرد الإنسان، أيما أمنية بسيطة، أيما كثير ولا يكفي، كله معاً أو قليلاً بعد قليل، أيما رغبة ملحة للهروب من المسؤولية والروتين، الهروب من تخصصه في التخصص، التحديد والذات المتجهة للداخل، أيّاً كان ما أثار رغبته الطفولية في الطيران، أحلامه بفضاءات غريبة ومرتفعات عجيبة، خيالاته بموت سعيد، أيما تراخٍ وميول مترفة - آكل اللوتس، مدخن الأعشاب، المشاهد بعينين زرقاوين إلى الفضاء - كلها قد أُشبعت، كلها مجموعة ومجتمعة في ذلك الكيان الحيّ، المنظر الذي يشاهده عبر النافذة.

«كل ما هنالك أنها ممتعة... الألوان وكل شيء» قال أخيراً.

الألوان وكل شيء.

الجزء الثاني

- العدّاء (1988)
- البهلوانيّة العاجيّة (1983)
- الملاك إزميرالدا (1994)

الْعَدَّاء

انعطف العدّاء ببطء، وهو يشاهد تجمع سرب البط قرب جسر المشاة حيث كانت الفتاة تنثر فتات الخبز. بالكاد يلتزم الدرب بحدود البحيرة في طريقه، ملتوٍ عبر أشجار باسقة. استمع العدّاء إلى تنفسه المتجانس. كان شابّاً ويعرف أن بإمكانه بذل المزيد من الجهد لكنه لم يرغب في إفساد الإحساس بالمجهود البسيط في النهار الزائل، كل أصوات النهار وضوضائه تلاشت في تعرق متواصل.

نشطت الحركة في الحديقة. أخذت الفتاة فتات الخبز من والدها ورمته على الطريق، وهي تفتح راحة يدها كشخص يشير برقم خمسة. خفّف العدّاء من سرعته على الجسر. كانت هناك سيدتان على بعد ثلاثين ياردة أمامنا، تمشيان على طول الطريق المؤدي إلى الشارع. استعجلت حمامة خطواتها على العشب عند اقتراب العدّاء، منعطفاً في عدوه. كانت الشمس بين الأشجار خلف مسار الحديقة.

كان على ربع المسافة عند غرب البركة، عندما خرجت سيارة عن مسارها، باتجاه الحديقة المنحدرة. هبّت نسمات فرفع العدّاء ذراعيه، وهو يشعر بالهواء يدخل في فانيلته. خرج رجل من السيارة، تحرك بسرعة. مرّ العدّاء بزوجين عجوزين على مقعد خشبي وكانا يجمعان أوراق الصحيفة، استعداداً للمغادرة. أزهار لوستريف أرجوانية على طول الضفة. ظن أن بإمكانه القيام بأربع دورات إضافية، بما يقارب مقدرته البدنية. كان هناك إزعاج هناك، عند كتفه الأيمن، قفزة إلى مستوى آخر. نظر إلى الوراء وهو

يركض، شاهد الزوجان العجوزان ينهضان من المقعد، بلا تركيز، ثم السيارة على العشب، ليست في مكانها، وامرأة تقف على البساط وتنظر نحو السيارة، يداها مرتفعتان، تؤطران وجهها. التفتَ إلى الأمام وركض إلى جانب علامة كتب عليها تغلق الحديقة عند الغروب، رغم أنه لا توجد بوّابات، ولا توجد طريقة فعّالة لإبعاد النّاس خارجها. كان الالتزم بموعد الإغلاق في أذهانهم.

سيارة قديمة ومعطوبة، لُوّن المصد الخلفي بنحاس ضد الصدأ، طقطقة متفرقة من أنبوب العادم.

استدار عند النهاية الجنوبية، شاهد صبيّيْن على دراجتيْن ليشاهد إذا كان هناك شيء في وجهيْهما قد يدل على ما حدث. مرّا إلى جانبه، أحدهما من كل جانب، موسيقى تسربت من سمّاعة رأس أحدهما. شاهد الفتاة مع والدها عند نهاية جسر المشاة. تخللت الماء حزمة رقيقة من الضوء. شاهد السيدة على المنحدر وقد التفتت إلى الطريق الآخر الآن، نظر إلى مسار الحديقة وكان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص ينظرون في الاتجاه ذاته، وآخرون مع كلابهم يمشون فقط. شاهد السيّارات تتدفق في الشوارع المتوجهة إلى الشمال.

كانت السيدة قصيرة القامة، وممتلئة وعالقة على البساط. استدارت نحو بعض المشاة باتجاهها وبدأت في مناداتهم، دون أن تعلم أنهم كانوا يعلمون أنها في محنة. تجمّعوا حول البساط الآن وشاهدهم العدّاء وهم يشيرون لها بالهدوء. كان صوتها خشناً وغليظاً، بتأتأة متقطعة الأنفاس. لم يتمكن من فهم ما قالته.

على طريق ارتفاعه معدّل كان ناعماً ونديّاً. نظر الأب من المنحدر، امتدت يد نحوه، راحتها للأعلى، اختارت الفتاة أجزاء من الخبز واستدارت نحو الحاجز وانقبض وجهها وهي تستعد لرميها. اقترب العدّاء من الجسر. ذهب أحد الرجال قرب البساط إلى الطريق وهرول نحو العشب المؤدي إلى الشارع واضعاً يده في جيبه لمنع سقوط شيء ما. أرادت الفتاة أن يراها والدها وهي ترمي الخبز.

بعد عشر خطوات من الجسر. شاهد العدّاء سيّدة قادمة نحوه عند الزاوية. أدارت رأسها وكأنها سائحة ترجو الاستفسار عن الاتجاهات. توقّف ولكن ليس توقفاً تامّاً، استدار تدريجيّاً واستمرّا في مواجهة بعضهما بينما كان يرجع ببطء إلى الخلف بجسده على الطريق، لا زال يحرّك قدميه في الحذاءيْن الرياضيّيْن. تساءلت بعذوبة: هل شاهدت ما حدث؟

«لا. فقط السيارة في الواقع. قبل ثانيتيْن».

«شاهدت الرجل».

«ماذا حدث؟».

«كنت سأغادر مع صديقتي التي تعيش عبر الشارع هناك. سمعنا السيّارة وهي قادمة على الرّصيف. على العشب تقريباً. خرج الأب من سيّارته وأخذ الصّبي الصّغير. لم يتُح الوقت لأحد ليتصرف. دخلا السيارة وغادرا. كل ما قلته: «إيفيلين». ذهبتْ فوراً إلى الهاتف.

كان يركض في المكان الآن وقد اقتربت هي أكثر، امرأة في منتصف العمر ابتسامة مهملة.

«قابلتك في المصعد». قالت.

«وكيف عرفت أنه والده؟».

«الأمر منتشر حولنا، أليس كذلك؟ يكون لديهم أبناء قبل يصبحوا مستعدين. إنهم لا يعرفون ما يُقحمون أنفسهم فيه. مشكلة بعد الأخرى. ثم ينفصلان أو يتورّط الأب مع الشّرطة ألا ترى هذا طوال الوقت؟ إنه عاطل ويتعاطى المخدّرات. قرّر ذات يوم أنه يريد الالتقاء بابنه أكثر. يريد مشاركة الوِصاية. فكّر بعمق لأيام. ثمّ جاء وتجادلا وبعدها حطّم الأثاث. حصلت الأم على أمر من المحكمة. عليه أن يبقى بعيداً عن الطفل».

نظرا إلى المنحدر، حيث وقفت السيّدة وهي تشير إلى البساط. حملت امرأة أخرى بعض حاجياتها، سترة، حقيبة قماش طويلة. ذهب كلب خلف النّوارس هناك.

«انظر كم هي ثقيلة. نشاهد المزيد والمزيد منها. شابات. لا يمكنهن التّحكم بانفعالاتهن. إنها حالة منتشرة. ومنذ متى وأنتَ في البناية؟».

«أربعة شهور».

«هناك حالات يدخلون المنازل فيها ويبدؤون بإطلاق النار. أرواح. لا يمكنك أن تفصل أحد الوالدين وتتوقع أن تسير الأمور على خير ما يرام. يكفي أن من الصعب أن تنشئ طفلاً حتى وهما معاً».

«لكن يصعب التأكد من أنه والده، هل أنت متأكدة؟».

«لقد شاهدتهما معاً».

«هل قالت أيّ شيء؟».

«لم تتح لها الفرصة. لقد جرّ الصبي إلى السيارة. أظنها تجمّدت في مكانها كليّاً».

«لا. وضع الصبي على المقعد ثم ذهبا. شاهدت كل ما حدث. أراد مشاركتها في الوصاية، لكن الأم رفضت».

كانت مصرّة على رأيها، فزعة في ضوء النهار، أما العدّاء فتذكر أنه قد رآها ذات يوم في غرفة الغسيل وهي تطوي الملابس بالنظرة المتفاجئة ذاتها.

«حسناً، نحن ننظر إلى سيدة في حالة مفاجئة مريعة» قال. «لكني لا أرى أن هناك زوجاً، لا أرى انفصالاً، ولا أرى أن هناك أمراً قضائياً».

سألته: «كم عمرك؟».

«اثنان وعشرون».

«إذن فأنت لا تعرف».

فاجأته حدّة صوتها. ركض في المكان، غير مهتم ويتقطر عرقاً، وهو يشعر بحرارة تصعد من صدره. صعدت سيارة شرطة المنحدر والتفت جميع من وقف على البساط ونظروا إليها. كادت المرأة أن تنهار عندما شاهدت الشرطي يخرج من السيارة. مشى مشية متأنية قد تمرّن عليها نحو المجموعة. بدا أنها تريد أن تسقط، أن تغرق في البساطِ وتختفي. صدر صوت منها، انهيار، فاقترب الجميع منها، بأيدٍ ممدودة.

انتهز العدّاء اللحظة ليحسم الحوار. عاد إلى دوراته، محاولاً استعادة إيقاع خطواته الواسعة وتنفسه. مرَّ قطار عمل خلف الأشجار على الجانب الآخر من البحيرة، صفير عالٍ. انعطف انعطافاً حادّاً عند النهاية الجنوبية، وهو يشعر بالإزعاج. شاهد الفتاة الصغيرة تتعقب خطى والدها على طول الدرب الضيق المؤدي إلى المخرج. شاهد سيارة شرطة ثانية على العشب عن يساره. تفرّق جمع الناس. عبر الجسر، محاولاً أن يعثر على المرأة التي كان يكلمها. أبحر البط في مسارات متذبذبة إلى الخبز المتناثر.

دورتان إضافيتان وسيتوقف.

أسرع الركض، لا زال يعمل على الإيقاع. سيارة الشرطة الأولى مع المرأة. شاهد أن النهاية السعيدة صارت خالية الآن، فانزلق إلى الظل العميق. انعطف، وهو يعلم أنه قد أخطأ في قطعه المحاورة بشكل مفاجئ، حتى لو كانت تكلمه بشكل حادّ. مجموعة سيارات برزت من المياه الضحلة. اقترب العدّاء من الجسر.

بضع خطوات من آخر دورة إلى المنحدر، خفّف العَدْو تدريجيّاً إلى مشي. مال شرطي على باب السيارة، متحدثاً إلى آخر الشهود، كان ظهر الرّجل مواجهاً للعدّاء. أسرعت السيارات بالمرور، بأضواء مُنارة. رفع الشّرطي نظره عند مرور العدّاء.

«عذراً على المقاطعة أيها الضابط. أنا أتساءل فقط عمّا قالته السيدة. هل كان زوجها، شخصاً تعرفه، ذلك الذي خطف الصبي؟».

«مجرد سيارة زرقاء بمصدّ واحد غير ملوّن. أربعة أبواب. لم أشاهد اللوحات أو ألاحظ ما حدث. لمحة بسيطة للرجل. كن يتحرك بشيء من الثقل».

«عاد الشرطي إلى ملاحظاته».

«كان غريباً. قالت، هذا كل ما استطاعت إخبارنا به».

الرجل الآخر، الشاهد، استدار، ووقف ثلاثتهم في دائرة غير محكمة الاستدارة. لا يشعرون بالراحة، عيون لا تلتقي. شعر العدّاء أنه قد دخل في تنافس ذي أبعاد شائكة. أومأ بلا سبب وعاد إلى الدرب يعدو من جديد. في شيء من التّعجل، حرّك ذراعيه. جلست مجموعة من النوارس على الماء الساكن.

اقترب العدّاء من نهاية عدوه. توقف ومال بعمق، يداه على وركيه. بعد دقيقة بدأ في المشي على طول الدرب. غادرت سيارة الشرطة وتركت علامات الإطـارات على العشب، ثلاث مجموعات من المنحنيات تركت الحواف بقذارة سميكة. ذهب خارجاً باتجاه الشارع وتجاوزه باتجاه صفّ من المحلات المضاءة. كان عليه ألّا يتحداها، مهما كان نمطها مريباً وعنيداً. كانت تريد حمايتهما فقط. من سيصدق أن أباً جاء ليأخذ ابنه أو شخصاً عرج بمركبته من اللامكان، من مكان حالم؟ نظر إليها على المقاعد خارج الممشى، حيث يجلس الناس عادة في المساءات الدافئة. حاولَتْ أن تطيل وقت الحدث. جعله مميزاً. هل كنتَ تفضل شكلاً عشوائيّاً للحدث، رجلاً من الخيال؟ شاهدها تجلس تحت شجرة القرانيا إلى يمين المدخل.

«بحثت عنك هناك». قال.

«لا يمكنني إخراجه من ذهني».

«لقد تحدّث مع الشرطي».

«لأني لم أتمكن من استيعابه لدى رؤيته حقيقة. كان في غاية المبالغة. مشاهدة الطفل في قبضة ذلك الرجل. أظنه كان أكثر عنفاً من المسدّسات. وتلك المرأة المسكينة التي شاهدت ما حدث. أنّى لها أن تتوقع ما سيحدث؟ لقد شعرت بالضعف والغرابة. وعندما شاهدتك مقبلاً ارتأيت أن أكلمك. إنّي مضجرة».

«كنتِ في تحكّم تام».

«كنت أجلس هناك أفكر، أن لا شك في العناصر. السيارة، والرجل،

والأم، والطفل، هذه الأمور. لكن كيف ترتبط هذه الأجزاء ببعضها؟ بما أن لديَّ بعض الوقت للتفكير، لا يوجد تفسير لثقب فتح عالياً في الهواء. هذا قدر المعنى الذي يصنعه. يستحيل أن أنام اليوم. كل شيء كان مريعاً، جسيماً».

«لقد تعرّفت إلى الرجل. كان الأب حتماً، لقد أعطت الشرطة كل التفاصيل الدقيقة».

نظرتْ إليه بتمعن. لقد شعر بنفسه فجأة، وهو يرتدي شورتاً برتقاليّاً وبلوزة بالية وممزقة، وشعر بانفصاله عن المشهد، كما لو كان يشاهد من مكان محتجب. ابتسمت الابتسامة الغريبة. تراجع قليلاً، ثم مال ليصافحها. هكذا قالا. طاب مساؤك.

ذهب إلى الرّواق الأبيض. صدى العذْو يسري في جسده. وقف يتأمل الإجهاد الضّبابي والعطش. وصل إلى المصعد وفُتح الباب. صعد إلى قلب المبنى وحيداً.

الْبَهْلوانِيَّةُ الْعاجِيَّةُ

وقَفَت في الشارع المزدحم عند انتهائها واستمعَت إلى ثرثرة كثيرة من كل أولئك الناس. لقد سمعَت أول أبواق سيارة مفاجئة من بعيد في الحي. درَس النّاس بعضهم ليطابقوا ردّ فعل بعضهم. شاهدَتْهم يبحثون في الشارع عن وجوه، إشارات تدل على أنّ هذا وذاك آمنان. أدركَت أن أضواء الشارع كانت مضاءة وحاولَت أن تتذكر منذ متى وشقتها مظلمة. كانت الجميع يتحدثون. سمعت بعض العبارات المتكررة ووقفت مكتوفة الأيدي إلى الصدر، شاهدَت امرأة تحمل كرسيّاً إلى الشارع. أشخاصاً يغادرون المدينة في تدفقات كبيرة العدد. كانت تفكر بالفعل في أن تسبق الآخرين. من المفترض أن تكون هناك أخرى دائماً، ربما العديد منها.

وقف لاعبو الورق خارج المقهى، اشتبه بعضهم بقطعة سقطت على الطريق الجانبي، وآخرون نظروا إلى السقف هنا وهناك، وجوه فزعة، أجساد تسير ببطء، باحثة. كانت ترتدي ما ارتدته عندما بدأت لأول مرة، جينزاً وقميصاً وسترة، كان ليلاً شتويّاً، خُفّان مضحكان تنتعلهما إذا كانت في المنزل فقط. ارتفع صوت أبواق السيّارات وكأنّه صياح، عواء، حيوان. إنّ ربّ الذّعر إغريقي في نهاية الأمر. فكرتْ فيها مرة أخرى ولم تكن أكيدة من أن الأضواء كانت قد انقطعت البتّة. وقفت النساء مكتوفات الأيدي في البرد. مشت على امتداد منتصف الشارع، وهي تستمع إلى الأصوات، وتُتَرجم عباراتهنّ لنفسها. والأمر ذاته انطبق

على الناس. قالوا الأشياء ذاتها وبحثوا في الوجوه. كانت الشوارع ضيقة هنا فجلس النّاس في السيارات المركونة، يدخّنون. طفل يركض هنا وهناك، أيادٍ تستفسر عمّا حدث، أطفال متحمّسون عند منتصف الليل تقريباً، ظنّت أنها ستشاهد نوراً في السماء ثمّ ذهبت على امتداد الشارع الفرعي المؤدي إلى الخليج. بدا أنها تستعيد في ذاكرتها قراءة أن هناك ضوءاً في السماء قبل وبعد حدوثها مباشرة. كان هذا تحت مانشيت: لا سبب واضح لها.

بعد ردح من الزمن بدؤوا يعودون إلى الدّاخل. مشت كايلي ثلاث ساعات. شاهدت اندفاع السيارات نحو الأحياء الكبيرة والمؤدية إلى الجبال والساحل. كانت إشارات المرور بلا طاقة في بعض الأنحاء. صفوف السيارات الممتدة، متعرجة، تشق طريقها بصعوبة في الشلل المروري. فكرت في أن المشهد يشبه بعض المناظر في الأجزاء الحالمة منّا، ما الذي تعلمنا المدينة أن نهابه. كانوا يضغطون على الأبواق. انتشرت الضّجة على امتداد الشوارع واستفحلت إلى إنكار جَمْعيّ، غربة. قد انحسرت بعد زمن، ثم بدأت في بناء نفسها مجدداً شاهدت أشخاصاً نائمين وأُسراً مجتمعة في السيارات المركونة على جانبي الطرق والقطاعات الوسطى. تذكرَت كل الأشياء التي سمعتها عن الزلزال.

في القطاع الذي تقيم فيه صارت الشوارع خاوية. ذهبَت إلى درَج المبنى الصّغير ومنه إلى الطّابق الخامس. كانت الأنوار مُنارة في شقتها، وأجزاء محطمة من تماثيل طينيّة (تذكرت وجودها للتوّ) مبعثرة على الأرض عند حافظة الكتب. شقوق طويلة تفرّعت على طول الحائط الغربي... استبدلت خُفّيها بحذاءيْن رياضيين، ارتدت سُترة ببطانة مخصصة للتزلج وأطفأت الأنوار عدا مصباح قرب الباب. ثم استلقت على الأريكة بين الملاءة والبطانية، وأسندت رأسها على وسادة. أغلقت عينيها وتدثرت، مرفقاها إلى وسط جسدها، ويداها مضمومتان بين ركبتيها. حاولت الخلود للنوم لكنها أدركت أنها كانت تصغي باهتمام للغرفة. استلقت في

نوع من الانسياق الأبديّ، دوّامة في عقلها، وأفكار غير مكتملة. نامت نوماً زائفاً وهي تصغي مجدداً. فتحت عينيها. كانت الساعة الرابعة وأربعين دقيقة. سمعت شيئاً يشبه انهمار الرمال بين الأعمدة خلف الجدران. بدأت الغرفة تتحرك. أعلى، بقوة. نهضت من الأريكة وفي طريقها إلى الباب تريّثت قليلاً. فتحت الباب ووقفت على عتبته حتى توقف الاهتزاز. نزلت للأسفل باستخدام السلالم. لا جيران يخرجون من الأبواب هذه المرّة، أيادٍ مكتوفة في معاطف. ظلّت الشوارع المتاخمة شبه خالية وخمّنت أن الناس لا يريدون تكبّد عناء العودة مجدداً. هامت على وجهها بعد الفجر. اشتعلت بعض الحرائق في الحدائق. أبواق سيارات انتشرت هنا وهناك الآن. طافت حول مسكنها عدة مرات، ثمّ جلست أخيراً على مقعد خشبي قرب كشك الصحف. شاهدت الناس يتوافدون إلى الشارع ليبدؤوا يومهم وبحثت هي عن شيء في وجوههم قد يخبرها عن نوع الليلة التي أمضوها. كانت خائفة من أن يبدو كل شيء طبيعياً. كرهت التفكير في أن الناس قديماً كانوا يتابعون روتين حياتهم في أثينا البالية. لم ترغب في أن تكون وحيدة أثناء حدوثها. ضاقَت العِبارة.

تناولت الغداء مع إدموند - زميل في مدرسة الأطفال - حيث تعلّم موسيقى المجتمعات العالمية من الصف الثالث إلى السادس. كانت تتوق لمعرفة تصرفه في الحادثة لكنها كلّمته أولاً عن تناول الطعام خارجاً على طاولة موضوعة مقابل واجهة حانة مزدحمة.

«سنموت إما بسبب الشرفات المتساقطة، أو تجمداً من البرد على كرسيّنا». قال إدموند.

«بماذا شعرت؟».

«ظننتُ أن قلبي سيقفز من صدري».

«جيد. أنا أيضاً».

«لقد هربت».

«طبعاً».

«في طريقي إلى الأسفل على الدّرجات أجريت أغرب حوار مع الرّجل الذي يعيش عند الرّدهة. أعني أننا بالكاد قلنا أيّ كلمة لبعضنا. كان هناك جمع من الناس ينزلون علي الدّرج بسرعة. فجأة أراد أن يتحدث. لقد سألني عن مكان عملي. عرّفني إلى زوجته، التي لم تهتم إطلاقاً بتفاصيل وظيفتي. لقد سألني عن رأيي في الإقامة في اليونان».

كانت السحب رمادية اللون ومنخفضة. الناس ينادون بعضهم في الشوارع، يهتفون من السيارات العابرة. *Eksi comma eksi*. كانوا يقصدون الأولى، الأكبر. ستّ فاصلة ستّ. استمعت كايلي إلى الرقم طوال الصباح، وهم يذكرونه بإجلال، بتوتر، بكبرياء، بكدر، صداه منتشر على امتداد الشوارع، شكل من أشكال التحايا الأساسيّة.

«ماذا حدث بعدها؟». قالت.

«أما في الثانية، فقد استيقظت قبلها بلحظات».

«هل سمعتَ شيئاً؟».

«أشبه بطفل ينثر حفنة رمل بيده على النافذة».

«جيد» قالت.

«ثم ضرَبَتْ».

«ضرَبتْ».

«بانغ... فوثبت من السرير كمجنون».

«هل انقطع النور؟».

«لا».

«ماذا عن المرة الأولى؟».

«غير متأكد صراحة».

«جيد. هل كان هناك أيّ نور في السماء في أيّ وقت؟».

«لم ألاحظ».

«لعلنا نتعامل مع أسطورة هنا».

«ذكرت الصحف أنّ السبب قد يكون من انقطاع الطاقة في محطة مما تسبب في حدوث ومضة ضوء. هناك أقوال متواترة في هذا الشأن».

«لكننا اختبرنا أشياء متشابهة».

«سيتبيّن ذلك». قال.

«جيد، يسرني».

كانت تعتبره فتى إنجليزيّاً رغم أنه في السادسة والثلاثين من عمره، منفصل، وليس حتى إنجليزيّاً. لكنه شعر بجذل إنجليزي عوّضه عن الخفّة الإغريقية، حيث كان كل ما شاهدته كايلي دخاناً كيميائيّاً يغلف بقايا المعمار. وكان يملك وجهاً متزمتاً لصبي في المدرسة في صورة رسمية، شعراً متموجاً ومتأملاً.

«أين مركز الزلزال؟». تساءلت.

«على بعد 40 ميلاً غرباً من هنا».

«الأموات؟».

«ثلاثون وفي تزايد».

«ماذا سنفعل؟».

«في ماذا؟».

«كل شيء. كل ما بعد الصّدمة».

«مررنا بمئتي هزة حتى الآن. ومن المتوقع استمرارها لعدة أسابيع. اقرئي الصحف. أشهراً ربما».

«اسمع يا إدموند، لا أرغب في أن أكون وحدي هذه الليلة. حسناً؟».

***

عاشت في عزلة. كانت تنقطع عن الناس دائماً، تُصغي وحدها في شقتها. تُحسّن من سمعها، تمييز مرتعش. جلست إلى الطاولة الصغيرة حيث تأكل وجباتها، استمعت. كان في الغرفة عدّة أصوات، صوت مزعج على وجه الخصوص، ضغط انطلق في الجُدران، انتبَهت

وانتظرَت. كان هناك مرحلة ثانية وأكثر أماناً لقد تحفّظت على ضوضاء الشارع، المصعد يرتفع. كان الخطر في الدّاخل.

جلجلة. تموّج بسيط. جثمت عند الباب المفتوح كطفل ذرّي.

تسرّبت الاهتزازات إلى مجرى دمها. أصغت وانتظرت، لم تتمكن من النوم ليلاً، ومرّت بلحظات غريبة في النهار، رقدت في غرفة مهملة في المدرسة. خافت من العودة إلى المنزل. كانت تشاهد الطعام أحياناً في طبقها وتوقفت، تصغي بانتباه، باستعداد للذهاب، للخروج. لا بدَّ من وجود ما هو هزليّ في مكان ما، امرأة تقف بلا حراك حول طعامها، تميل قليلاً نحو الباب، بصمات أصابع على حافة الطاولة.

هل صحيح أن الكلاب والقطط تهرب قبل الهزة الأرضية؟ ظنّت أنها قد قرأت في مكان أنّ الناس في كاليفورنيا عادة يطالعون الأعمدة المتخصصة في الصحف الإخبارية باستمرار ليلاحظوا إذا ارتفع عدد الكلاب المفقودة، أم إننا نتعامل مع خُرافة هنا؟

أرجحت الرياح ظُلّة النافذة. أصغت إلى زاوية الغرفة، أنابيب. سمعت كل شيء.

وضعت حقيبتها الشخصية قرب الباب للخروج السريع. نقود، كتب، جواز سفر، رسائل من الوطن. سمعت صوت حدادة سكّين.

لم تقرأ الصّحف، ولكنها استنتجت أن عدد الهزّات ثمان مئة حسب آخر إحصاء وزاد عدد القتلى عشرين الآن، أنقاض فندق وخيام منصوبة قرب مركز الزلزال والناس يعيشون في المناطق المكشوفة في أنحاء أثينا، حُكِم على منازلهم بأنها غير آمنة.

ارتدى لاعبو الورق معاطفهم في الداخل. مشت بجوار أشجار التّوت المشذّبة وعبر أسواق الشارع ونظرت إلى سيدة تبيع البيض وتساءلت عمّا يمكنها قوله لمواساتها، بلغتها اليونانية المتقنة، وهي تتسوق بحثاً عن صفقات. أوقف رجل المصعد لكنّها لوّحت له بأدب واستخدمت المصعد. صعدت إلى شقتها. أصغت. تطايرت ستائر

الشرفة بفعل الرياح، واصطفقت بقوة. أرادت أن تكون حياتها عرضية مجدداً، كمجهولة، خفيفة، متضررة، واعية، راضية بإشغال نفسها في ملاحظات عابرة. أرادت الثرثرة مع الجدّات والأطفال في الشارع الذي تقع فيه مدرستها.

تدرّبت على خروجها ذهنياً. عدّة خطوات من الطاولة إلى الباب. كثير من الخطوات من العتبات إلى الشارع. قد لا تسير الخطّة التي تصوّرتها مسبقاً بسلاسة.

صاح بائع اليانصيب: «اليوم... اليوم».

حاولت أن تقرأ رغم الليالي الهوجاء. أوقات رعب بطيئة. كانت هناك شائعات بأن تلك لم تكن هزّات ارتدادية إطلاقاً بل تحذيرات من اضطراب أعمق في الأخدود القاري، إنذار من قوة قد تطوي المدينة ذات القلب الرخامي وتجعل عاليها سافلها. جلست وتصفّحت الأوراق، وحاولت التّنكر كشخص يقرأ بانتظام لخمس عشرة دقيقة قبل أن يخلد للنوم بسهولة.

لم يكن الأمر سيئاً للغاية في المدرسة، حيث كانت مستعدة لحماية الصغار، وأن تحمي أجسادهم بجسدها.

عاشت ارتعاشات في جسدها، كانت جزءاً من كل نفس من أنفاسها. توقفت عن الأكل. جلجلة. ارتجاج. وقفت واستمعت، وحدها مع الأرض المهتزة.

أخبرها إدموند أنه اشترى هدية تمثالاً للزينة، بدل ذلك الذي أسندته إلى الجدار فوق حافظة الكتب. أوراق نبات الأفثنوس تخرج من رأس تمثال هيرمس نصف نائم تهشّمت عند أول هزة أرضية.

«لن تفتقدي هيرمس خاصتك أبداً... أعني أنه موجود في كل مكان».

«هذا ما أحبه فيه».

«بإمكانك الحصول على آخر بسهولة. مجموعات كبيرة بأسعار مخفّضة».

«سوف تتحطم، عندما تضرِب التالية». قالت.

«لنغيّر الموضوع».

«هناك موضوع واحد فقط. هذا فظيع. كنت قوية الشخصية. ماذا حدث لي؟».

«حاولي أن تفهمي أنها انتهت».

«أنا...»

«الحياة مستمرّة. الناس يسعون خلف رزقهم».

«لا، ليسوا كذلك. ليس بالطريقة ذاتها، فقط لأنهم لا يمشون ويبكون».

«لا يوجد ما يبكون لأجله. لقد انتهت».

«لا يعني هذا أنهم غير مستعدين لها. لقد بدأت منذ أقل من أسبوع. هناك هزّات في كل مكان».

«تأثيرها يقلّ». قال لها.

«بعضها ليس قليل التأثير. بعضها يجذب الاهتمام حتماً».

«غيّري الموضوع رجاء».

وقفا خارج مدخل المدرسة وكانت كايلي تشاهد مجموعة أطفال يركبون الحافلة لرحلة إلى المتحف خارج المدينة. كانت تعلم أنها تستطيع مشاركة الشاب الإنجليزي في مشاعرها. كان وفيّاً بتلك الطريقة. وكانت تعرف دائماً رأيه وبإمكانها التّنبؤ بكلماته عادة، تحرّك شفتيها غالباً بتزامن مع شفتيه. لقد جلب بعض الاستقرار في أوقات الرعب.

«لطالما كنتِ ضعيفة».

«انظر إليَّ الآن». قالت.

«متثاقلة».

«أنا أرتدي طبقات من الثياب. أرتدي الملابس وأغيرها باستمرار. لأكون جاهزة».

«لا أستطيع تحمل تكلفة تغيير الثياب». قال.

«لا أستطيع تحمل تكلفة التنظيف على الناشف».

«أتساءل أحياناً كيف حدث هذا لي».

«أنا أعيش بلا ثلاجة وهاتف ومذياع وستارة استحمام، وماذا بعد؟ أنا أضع الزبدة والحليب على الشّرفة».

قال حينئذٍ: «أنت هادئة جداً. الجميع يقولون كذلك».

«هل أنا كذلك؟ من قال؟».

«كم عمركِ بالمناسبة؟».

«بما أننا قد أمضينا الليلة معاً، تعني؟».

«أمضينا ليلة معاً. ليلة واحدة استُهلكت في محادثة حارة».

«لقد ساعدتَني. جعلتَني مختلفة فعلاً. كانت ليلة حاسمة. هذا لا يعني أنّ الآخرين كانوا غير مريحين».

«عودتك مرحب بها دائماً، تعلمين ذلك. أنا أجلس هناك أفكر. امرأة شابة تطير عبر المدينة إلى ذراعيّ».

لوّح الأطفال لهما من النّوافذ وقام إدموند بتقليد حركة عيني سائق حافلة واسعتين وعالق بازدحام مروري ومنزعج. شاهدت الوجوه المضيئة وهي تبتعد.

«تملك لوناً جميلاً». قالت له.

«ماذا تقصدين؟».

«وجنتاك ورديّتان وصحيّتان. لطالما أخبرني أنّي سأحصل على وجنتين ورديتين إذا تناولت الخضروات».

انتظرت أن يسألها إدموند ماذا اعتاد والدك أن يخبرك؟ ثم مشيا فيما تبقى من النهار قبل حلول المساء. اشترى إدموند قطعة رغيف مسمسم وناولها إياه. لقد دفع ثمنها عبر فتح قبضته وجعل البائع يختار النقود المعدنية. لقد أثبت لكل شخص أنه مجرد عابر بالمكان.

«لقد سمعتَ الشائعات». قالت.

«هراء».

«تخفي الحكومة البيانات السيسموغرافية».

«لا يوجد أيّ برهان علمي على أن الهزّة الكبرى وشيكة. اقرئي الصحف».

خلعت سترة سميكة وجعلتها تتأرجح على كتفها. أدركت أنها تريد أن يظنها حمقاء قليلاً تتحكم بها عواطف جياشة. كان في ذلك شيء من العزاء، لكنها لم ترغب في إظهار الانكسار التام، مشت متسائلة إذا كان إدموند سيعجب بها إذا استخدمت تصريحات حماسية ضد نفسها.

«هل لديك حياة خاصّة؟».

«أنا أنام». قال.

«هذا ليس ما أعنيه».

ركضا على امتداد الحيّ حيث تزيد السيارات سرعتها إلى حدّ التسابق. بدا من الجيّد أن تهزّ جسدها. ظلت تركض لربع مربع سكني ثم انعطفت لتراه يقترب قابضاً صدره ويتحرك على قدمين مهتزتين، كما لو كان من أجل أن يرفه عن أطفال. كان بإمكانه أن يبدو مهتمّاً بالكتب وحتى أن يِثب.

وصلا إلى مبنى المدرسة.

«أتساءل كيف سيبدو شعرك إذا تركته ينمو».

«لا يمكنني تكلفة قص الشعر في فترات منتظمة».

«أنا أعيش دون بيانو».

«وهل هذا بؤس مقارنة بعدم وجود ثلاجة؟».

«يحقّ لك أن تسأل السؤال، لأنّك لا تعرفني. أنا أعيش دون سرير».

«هل هذا صحيح؟».

«أنا أنام على أريكة لها ملمس دبق».

«ولماذا تبقين في البلد؟». تساءل.

«لأن ليس باستطاعتي جمع المال الكافي للذهاب إلى أيّ مكان آخر

وأنا حتماً لست مستعدة للعودة إلى الوطن، غير أنّي أحب الإقامة هنا. أنا عادية نوعاً ما لكن برغبتي على الأقل حتى الآن. المشكل في الحاضر هو أنّ بإمكاننا أن نكون في أيّ مكان. والشيء الوحيد الذي يهم هو مكان وقوفنا عندما تضرب».

حينها قدم لها الهديّة، أخرجها من العلبة الحافظة وأزال الورق البني اللون بغرض زيادة الإثارة». كانت تمثالاً عاجيّاً مقلّداً. من قبرص الواثبة فوق الثور، أنثى جسدها ممشوق بقدم مدببة تقترب من ذروة القفزة. وضّح إدموند أن المرأة الشابة والتي كانت متقوّسة على قرني ثور هائج، هي مشهد مألوف في فن الحضارة المينونيّة، موجودة في النّماذج الجصّية، والبرونز، وأختام الطين، وخواتم الذّهب، وأكواب الاحتفالات. قد يكون شابّاً، وقد تكون شابة تتشبث ممسكة بقرني ثور وتتأرجح، وهي ممسكة برأس حيوان. أخبرها أن التمثال العاجي الحقيقي قد انقسم إلى نصفين في عام 1926 وسألها عمّا إذا كانت تريد معرفة كيفية حدوث ذلك.

«لا تخبرني. أريد أن أخمّن».

«هزّة أرضية. لكن الترميم كان روتينيّاً».

أخذت كايلي التّمثال بين يديها.

«ثور يركض، هل هذا ممكن؟».

«لست مخولاً بالإجابة عن شيء قد حدث قبل ثلاثة آلاف وستين عاماً».

«أنا لا أعرف شيئاً عن المينونيّين». قالت. « هل هم بهذا القِدَم؟».

«أجل، أقدم من ذلك بكثير».

«ربّما كان الثّور مكبّلاً بإحكام».

«لا يبدو ذلك. يبدو كبير الحجم، ومتوحشاً، وقافزاً»، قال.

«هل علينا أن نصدّق حدوث شيء بالدقة التي يصوّرها الفنّانون؟».

«لا. لكنّي أفضل ذلك. وحتى لو أن هذه القافزة تحديداً لا يرافقها ثور، نحن نعرف من موقفها أنّ هذا ما كانت تفعله».

«إنها تثِب من على الثّور».

«صحيح».

«وسوف تعيش لتخبر عنه».

«لقد عاشت. إنها تعيش، وإلّا لماذا أحضرتُ لك هذا التمثال في الواقع. أنا أريدها أن تذكركِ بالمرونة الكامنة فيكِ».

«لكنك أنت البهلوانيّ ولست أنا». قالت كايلي. «أنت من يملك المفاصل المرنة، ويؤدي العروض في الشّوارع».

«حتّى أذكركِ بنفسك القافزة والفصيحة السالفة».

«أنتَ القافز والفارس».

«مفاصلي تؤلمني بشدة في الواقع».

«انظر إلى الأوردة في يديها وذراعيها».

«ابتعتها بسعر زهيد من سوق الأشياء المستعملة».

«هذا يجعلني أشعر بحال أفضل».

«إنّها حتماً لك». قال. «لا بدَّ أنها أنتِ. ألا نتفق على هذا؟ شاهدي واشعري. إنها ذاتكِ الحقيقية السحريّة، مصنوعة على نطاق واسع».

ضحكت كايلي.

قال: «إنّها فقيرة ومرنة وشابة، ومفعمة بالحياة».

ضحِكت. ثم قُرع جرس المدرسة ودخلا.

وقفت في منتصف الغرفة، ترتدي ملابسها عدا الحذاءين، أغلقت أزرار قميصها ببطء. توقفت. أغلقت آخر زر، ثم وقفت على الأرض الخشبية تصغي.

كان هناك الآن خمسة وعشرون قتيلاً، وآلاف المشردين. هجر بعض الناس المباني غير المتضررة، مُفضلين أمان الحياة الخارجية المهترئة. كان بإمكان كايلي أن ترى بوضوح كيفية حدوثها. نالت أول قسط معقول من النوم، لكنها واصلت تجنب المصاعد وصالات السينما. أسقطت

الرياح الأشياء المتخلخلة من الشرفات. أصغت وانتظرت. تصوّرت خروجها من الغرفة.

سقط الكبريت من غيوم المصنع، ملطِّخاً البلاط، وقالت معلمة في المدرسة إنه هبوب رمال من ليبيا من إحدى تلك الصحارى الجميلة في ليبيا.

جلست على الأريكة في ثياب النّوم وجوربين تقرأ كتاباً عن ربَّة الزهور المحلّية. دثّرت ساقيها بلحاف. كان هناك كأس ماء نصف مملوءة على حافة الطاولة. أبعدت عينيها عن الصفحة قبل دقيقتين من انتصاف الليل. توقفت، نظرت إلى منتصف شقتها، ثم سمعت حدوثها، زمجرة أرض، قوة تتحرك في الهواء. جلست لثانية طويلة، فكّرت مليّاً، قبل رميها للحاف. تفجّرت اللحظة من حولها. هرعت إلى الباب وفتحته. نصف مدركة لصوت غطاء المصباح وشيء رطب. تمسكت بإطار الباب وهي تواجه الغرفة. كانت الأشياء تتقافز علوّاً ونزولاً. كونت فكرة تصنيفية، هذه ليست الأكبر حتى الآن. صارت الغرفة ضبابية تقريباً. كان هناك شعور بأنها على وشك التشظّي. لقد شعرت بالتأثير تحت قدميها هذه المرة، نوع من النّقر، استسلام ضعيف لشيء من الوهن، كان تصديقها صعباً، يصعب أن تُصدّق أنها استمرت طويلاً. ضغطت بيديها على إطار الباب، بحثاً عن السكينة في نفسها. كان بإمكانها أن ترى صورة عقلها، رماديّة وبيضاء، تطفو في الغرفة. لم تتوقف الهزّة. انتابها الغضب. لم يكن من السهل معرفة ما كان يحدث حولها. لم تتمكن من رؤية الأشياء بالطريقة العادية. كان بإمكانها أن ترى نفسها فقط، فاتحة البشرة، تنتظر أن تطويها الغرفة.

ثم انتهت فارتدت ثياباً فوق ملابس النوم ونزلت إلى الأسفل باستخدام الدّرج. ركضت عبر الرّدهة الصغيرة، مرّت برجل يشعل سيجارته عند الباب. كان النّاس متجمّعين في الشارع. مشت نصف مربع سكني وتوقفت عند مجموعة كبيرة من النّاس. كانت تتنفس بصعوبة

وذراعاها منهكتان. أول فكرة واضحة راودتها هي أن عليها العودة لمنزلها عاجلاً أم آجلاً. استمعت إلى الأصوات من حولها. أرادت أن تسمع شخصاً يقول هذا تحديداً: توجد القسوة في وقت لا نكون فيه مستعدّين لها. أخبرت امرأة بجانبها أنها تعتقد أن أنبوب الماء قد انفجر في شقتها فأغلقت المرأة عينيها وهزّت رأسها الثقيل. متى ستنتهي جميع الهزات؟ قالت للمرأة كذلك إنها نسيت إحضار حقيبتها في طريقها إلى أسفل السلم رغم أنها أمضت وقتها في التخطيط الحذر وحاولت إضفاء الحزن على القصّة، ولتجعلها مضحكة وفيها سخرية من ذاتها. لا بدَّ من وجود شيء طريف يمكننا الركون إليه. وقفتا هناك وهزّتا رأسيهما.

في كل جيئة وذهـاب في الشارع كان هناك أشخاص يشعلون سجائرهم. إنه ثامن يوم منذ أول هزّة، ثمانية أيام وساعة واحدة.

مشت معظم الليل. توقفت عند الثانية صباحاً في ميدان أمام الأستاد الأولمبي. كانت هناك سيارات مركونة وأعداد كبيرة من الناس فدرست الوجوه ووقفت تصغي. السيّارات تتحرك ببطء. كان هناك فضول مضاعف، انعكاس لوحدتهم في كل الأحاديث، شعور بأن الناس كانوا يتوقون للرفقة. بدأت تمشي مجدداً.

تناولت طعام الإفطار في شقتها عند التاسعة صباحاً. شعرت بأول هزّة ارتدادية. مالت الغرفة بقوة. نهضت عن الطاولة، عينان دامعتان، فتحت الباب ووقفت عنده ممسكة برغيف مدهون بالزبدة.

خطأ. لم تكن الأخيرة الأكبر على مقياس ريختر. كانت ستّاً فاصلة اثنتين على مقياس ريختر فقط.

وقد اكتشفت أنّها ليست أطول من الأخريات. كان هذا وهماً، طبقاً للشائعة في المدرسة.

والماء الذي شاهدته أو شعرت به لم يكن مصدره أنبوباً مكسوراً بل كأس ماء على الطاولة قرب الأريكة.

ولماذا تحدث في الليل؟

وأين كان الشاب الإنجليزي؟

كانت كأس الشراب سليمة لكن غلاف كتابها الذي عن حياة النّباتات كان مبتلّاً ومتيبساً.

ظلت تصعد وتنزل الدّرج.

أبقت حقيبة صغيرة جاهزة عند الباب.

كانت مسلوبة العواطف، والذّرائع، والتنبؤات.

وقت قاس، خطر داهم بمروره.

كانت محرومة من الاستنتاج، الإقناع، التعقيدات، الكذبات، وحتى من كل تدبير يجعل الحياة ممكنة.

ابقي خارج صالة السينما والصالات المزدحمة، قالت لنفسها.

توقفت، وحيدة، وأصغت.

تصوّرت خروجها المعقول من الغرفة.

بحثت عن شيء في وجوه الناس قد يخبرها عن تجربة تماثل تجربتها، في أبسط الأشياء.

لا بدَّ من وجود شيء مضحك في مكان ما يمكنّها من الخروج من الظلام.

لقد سمعت كل شيء.

كانت ترقد في المدرسة.

كانت محرومة من المدينة ذاتها. قد تكون في أيّ مكان، في أيّ جزء مفقود من أوهايو.

حلمت بذبابة مايو والأزهار المتساقطة.

استخدمي السلالم في كل مكان. خذي طاولة قرب الباب في المقاهي والحانات.

جلس لاعبو الورق وهم يدخّنون، وقاموا بالخطوات الضرورية فقط، غطّوا أوراقهم بتجهّم.

عَلِمت أن إدموند كان في الشمال مع أصحابه، يزور الأديرة.

سمعت انطلاق الدراجات النارية على التّل.

اكتشفت تصدّعات في الجدار الغربي وتحدّثت إلى صاحب المنزل، والذي أغلق عينيه وهزَّ رأسه الثّقيل.

جلست ليلاً بصحبة كتابها ذي الصفحات المتيبسة، محاولة أن تقرأ هروباً من الشعور بالعجز.

نبات الأفنثوس دائم الانتشار.

ككل شيء في العالم سواء في داخل المنزل أم خارجه.

عثرت ذات يوم على التّمثال داخل درج مكتب في المدرسة، موضوعاً بين (أقراص السعال وملاقط الأوراق)، في مكتب يستخدمه المعلمون. لم تتذكر حتى وضعه هناك وشعرت بعار يجري في دمائها - حرارة في جسدها إثر الاقتراب من الأشياء المنسية. التقطته بحثاً عن شيء مميز في حركة تمثال الواثبة، في توتر ساعديها وتفاصيل يديها. ألا يجب أن يكون لما هو قديم ارتباط رسمي بالحاضر، تكوين صلب؟ كان هذا عملاً سهلاً وانسيابيّاً. لكنه أبعد من هذه الدهشة، كان هناك الكثير لمعرفته. لم تكن تعرف المينونيّة. لم تكن حتى أكيدة من مادة صنعه، أي نوع من العاج المقلّد. مرّ في ذهنها أنها كانت قد تركت التّمثال في درج المكتب لأنها لم تعرف ما يمكنها فعله به، كيف تُثبّته أو تسنده. الجسد وحده في المساحة، دون أيّ دعامة، دون وضع ثابت، وبدا أن مكانه الأمثل هو راحة اليد.

وقفت في الغرفة الصغيرة تصغي.

قال إدموند إن تمثال المرأة يشبهها. درسته بغية استخلاص برهان إضافي.

فتاة ترتدي تنورة عند الخاصرة وضمادة معصم، وقلادة مزدوجة، متدلية من ثور راكض. الفعل، القفزة ذاتها، قد تكون استعراضاً مسرحيّاً أو رعباً مقدساً، كانت هناك محاور وأسرار وعلم ذو طوابق في تمثال

ارتفاعه ستّة إنشات والذي لم تبدأ كايلي في تخمين ماهيّته. التفتت إلى الجماد الذي في يدها. التشابه بسيط. شابة، تقفز، معاصرة، وثيران هائجة وأرض مهتزّة. لم يكن هناك ما يربطها بهذا العمل، نحت عاجيّ، 1600 قبل الميلاد، تحركه قوى بعيدة كل البعد عنها. تذكرت تمثال الإله هيرمس الطيني القديم، ومتوّج بالزّهور، وهو ينظر إليها من ماضٍ معروف، من مسرح الوجود المشترك. كان المينونيون خارج هذا كله. خصر رفيع، إباء ميول أخرى فقدت في وديان اللغة والسحر، عبر علم الكونيات، هذا هو الغموض الذي اكتنف هذه القطعة الصغيرة. كانت نقيض كل ما تعرفه، ويُعنون حدود الذّات. أحكمت قبضتها عليه بقوة وشعرت بأنها تستطيع الإحساس بنبض دقيق ومنظم على جلدها.

وقفت بثبات، برأس مائل، تصغي. مرت حافلات، وانبعثت أبخرة الديزل من خلال فتحات شبكة النافذة. نظرت إلى زاوية الغرفة، وركّزت تفكيرها. استمعت وانتظرت.

انتهى اهتمامها بالهزة حينما انتبهت للبهلوانية القافزة. ما إنْ أدركت هذا، حتى وضعتها في جيبها وأخذتها معها إلى كل مكان.

المَلاكُ إزْميرالْدا

استيقظت الرّاهبة العجوز فجراً، وهي تشعر بالألم في كل مِفصل من مفاصل جسدها. كانتْ تستيقظ فجراً مذ قدّمت طلبَ التَّرَهبُن، جلستْ على الأرض الخشبية الصُّلبة لتصلّي. رفعت ظُلّة النافذة أولاً. هذا هو ذا العالم هناك، تفاحات خضر صغيرة وأمراض مُعدية. انسلّت حُزمة من الضّوء إلى الغرفة، وملأت حبيبات أنسجة الخشب العميقة بأنماط وألوان لدرجة أن كان عليها أن تشيح النّظر بوجهها عنها أو أن تستحوذ عليها كفتاة صغيرة. ركَعت على طيّات الثّوب الأبيض، والذي غُسِل عدداً لانهائيّاً من المرات بصابون صلب. والجسد فوقه، ذلك الشيء السّابغ الذي حملته عبر العالم، بشحوب غالباً، ويدان مبقّعتان وأوردة بارزة، وشعرٌ مقصوص لا بأس به ورماديّ، وعينان زرقاوان. شاهد كثير من الفتية والفتيات هذه النظرات المختلِسة في أحلامهم. قامت بأداء علامة الصّليب. تمْتمَت بكلمات منْظومة. آمين، كلمة عتيقة، تعود إلى الإغريقيين والعِبريين، حتماً- لمست منتصف جسدها لتكمل شكل الصليب. أقصر الصّلوات اليوميّة ومع ذلك فهي تحمل بين طيّاتها ثلاث سنوات من الصّبر، سبع إذا غمسَت يدها في الماء المقدّس قبل أن تقوم بالإشارات على الجسد. الصلاة عملية استراتيجية، لفائدة مكتسبة دائمة تعين على مواجهة الأسواق الرأسماليّة الآثمة.

تلت الصلاة الصّباحية ثم وقفت على قدميْها. فركت يديها بصابون جافٍّ بني اللون عند الحوض عدة مرات. كيفَ لليدين أنْ تكونا نظيفتيْن

والصّابون قذراً؟ كان هذا سؤالاً مُلحّاً في حياتها. لكنّك إذا نظّفت الصّابون بمُبيّض، فبماذا ستغسل قارورة المُبيّض؟ إذا استخدمت مسحوق التّطهير على قارورة المبيض، فكيف ستنظف قارورة المطهّر؟ لكل جرثومة شخصيّة تميّزها. أشياء مختلفة من أنواع ماكرة متعددة. ويبقى السؤال بلا إجابة.

بعد ساعة كانت ترتدي غطاءها وشخصيتها، جلَست في مقعد الرّاكب في شاحنة سوداء كانت تتجه إلى الجنوب خارج حيّ المدرسة مروراً بطريق إسمنتي سريع إلى شوارع الضّلال، مبانٍ مُحترقة مُبعثرة وأرواحٌ لم يطالب بها أحد. (غريس فاهي) كانت خلف مقود السيارة، إنها راهبة شابة ترتدي زيّاً مدنيّاً. جميع الراهبات في الدّير كنّ يرتدين قمصاناً ملساء وتنانير عدا الأخت إدغار، والتي كان لديها تصريح من أم الدّير يخوّلها بعدم ارتداء الثياب القديمة، الخمار، والطوق، وقميص إلى العنق. كانت تعلم أن هناك حكايات تُنسج عن ماضيها، كيف اعتادت على تدوير سبّحة خرزها كبير الحجم وعلى ضرب التّلاميذ بالصّليب الحديدي على أفواههم. كانت المسائل أبسط آنذاك. الملابس بطبقات، ولم تكن الحياة معقدة. لكنّ إدغار توقفت عن ضرب الأطفال منذ سنوات، حتى قبل أن تصبح أكبر في العمر على التّعليم. كانت تعلم أنّ الأخوات يتهامَسْن بِتلذذ عن حزمها، ويشعُرن بالخِزي والرّهبة معاً. يا له من استعراض للقوة من أنثى لها جسد الطّير ورائحة الصّابون. توقفت إدغار عن ضرب الأطفال عندما تغيّر الحيّ وصارت وجوه التّلاميذ أكثر اسمراراً. كل الثّائرات الفاضلات اتّخذن موقفاً منها. كيف لها أن تضرِب طفلاً لم يكن مثلها؟

قالت غريسي: «السّيارة القديمة تحتاج إلى صيانة. هل تسمعين هذه الضوضاء؟».

«اطلبي من إسماعيل إلقاء نظرة عليها».

«كو- كو- كو- كو».

«إنّه الخبير».
«يمكنني إصلاحها بنفسي. أحتاج إلى الأدوات الصّحيحة فقط».
«أنا لا أسمع شيئاً»، قالت إدغار.
«كو- كو- كو- كو؟ ألا تسمعين ذلك؟ ربّما سأصبح صمّاء».
«سأصبح صمّاء قبلكِ يا أختاه».
«انظري، ملاكٌ آخر في السماء».

نظرت كلتاهما إلى رقعة من الأرض مملوءة بالأشياء المتراكمة وهياكل السيارات المعطلة. أزمنة مصفوفة في القمامة. كان يُطلق على هذه النّاحية (الطّير) بالتعبير الهزليّ لرجال الأمن، اختصاراً لموْئِل الطير، وهو اصطلاح يشير في هذه الحالة إلى جزء من الأرض لا يتّسق مع النّظام الاجتماعيّ. حشيشٌ وأشجارٌ تنمو وسط مكب للأشياء التي تمَّ التّخلص منها. كان هناك طعام كلاب، مشاهدات للصقور والبوم. عمّال المدينة يأتون إلى هنا باستمرار كي ينقّبوا في الموقع، لاءمتهم القُلنسوات المتّصلة بملابسهم بشكل مريح تحت القُبعات الصّلبة، يقفون بحذر إلى جانب آلات الكهرباء الضخمة، جرّافات ورافعات يقطينيّة اللّون، كما دبابات الجنود المتقدمة. لكنّهم يغادرون سراعاً، إنهم يغادرون دائماً بثقوب نصف محفورة في الأرض. ومعداتٍ مبعثرة، وأكواب ستايروفوم، وبيتزا ببروني. نظرت الرّاهبتان إلى كل هذا. كانت هناك شبكات من الآفات الحشريّة، حُفر مليئة بالتّركيبات والجص. كانت هناك أجزاء إطارات ممزقة وفيها نباتات مزدهرة. صوت إطلاق نار عند غروب الشّمس قرب الجدران المُنخفضة والمدمّرة للمباني. جلست الرّاهبتان في الشّاحنة ونظرتا. كان هناك مبنى وحيد ومنعزل، منزلٌ مهجورٌ بجدار مكشوف كان يتشاركه مع منزل آخر. على هذا الجدار قام إسماعيل وفريق عمله من خطّاطي الغرافيتي برسم ملاك تذكاريّ في كل مرة تسلب فيها روح طفل في الحيّ. ملائكة بالأزرق والورديّ ومصفوعون. اسم الطّفل وعمره كان يرسم داخل فقاعة رسوم متحركة تحت كل ملاك منهم، وأحياناً يذكر سبب الوفاة أو ملاحظات

من عائلته، وباقتراب الشّاحنة تمكنت إدغار من مشاهدة مفردات: السّل، نقص المناعة المكتسبة، الضّرب، إطلاق النّار، أمراض الدّم، الحصبة، إهمال عام، هجران منذ الولادة - ترك في سلة القمامة، نسيان في السّيارة، ألقي في كيس بلاستيكي بعد احتفال بعيد الفصح.

قالت غريس: «ليتهم اكتفوا برسومات الملائكة. إنه عديم الذوق تماماً، إلى كنيسة تعود للقرن الرّابع عشر، سيذهب الملائكة. هذا الجدار يروّج لكل الأمور التي نهدف لتغييرها. على إسماعيل البحث عن الأشياء الإيجابية ليُحفّزها. المنازل، الحدائِق العامّة التي يزرعها الناس. إنّ المنازل جيدة، إنها نظيفة. امشي في الزاوية، ستجدين أناساً عاديين، يذهبون إلى المدارس، والمتاجر، والكنائس».

«كـنـيسَـةُ الْـمَـعْـمَـداني الْـقَـويّ».

«هذه كنيسة، وهذه كنيسة، ما الفرق؟ إنّ المنطقة مليئة بالكنائس. أشخاص نزيهون يعملون. يرغب إسماعيل في رسم جداريّة، وهؤلاء الأشخاص هم من يجدر به الاحتفاء بهم. كوني إيجابيّة».

ضحكت إدغار ملء شدقيْها. كانت مأساة الملائكة هي ما جعلها تشعر بالانتماء إلى هذا المكان، بسبب الموت المريع الذي أظهرته الرّسومات، بسبب الخطر الذي واجه الرسامين وهم يرسمون على الجدران. لم تكن هناك مخارج للطوارئ أو نوافذ في الجدار التّذكاري وكان على رسامي الغرافيتي الهبوط من السقف بحبال مربوطة أو التأرجح على سقالة مؤقتة عندما رسموا ملاكاً في الصّفوف المُنخفضة. تحدّث إسماعيل عن جدارٍ رقيقٍ لرسّامي الغرافيتي الأموات، وهو يبتسم ابتسامة عابثة.

«إنّه يستخدم الورديّ للفتيات والأزرق للفتيان. هذا يُغضبني فعلاً».

«بالتأكيد، إن الرّموز التي تحملها الملائكة عالياً. أشرطة وردية ضخمة في السماء... تشعرني بالتقزز».

توقفوا عند الدّير لينقُلوا الطّعام الذي سيوزعونه للمعوزين. الدّير عبارة عن مبنى محشور بين الشقق. ثلاثة رهبان في أثواب رمادية وأحزمة فوقها كانوا يعملون في غرفة الانتظار، ويجهّزون شُحنة اليوم. غريس وإدغار والأخ مايك حملوا الحقائب البلاستيكية خارجاً إلى الشاحنة. كان مايك إطفائياً سابقاً ذا لحية كثّة وشعرٍ يشبه ذيلِ الحصان. بدا وكأنّه شخصان مختلفان من الأمام والخلف. عندما شاهد الرّاهبتيْن عرضَ عليهما أن يكون مُرشداً، وحامياً، لكن إدغار رفضت رفضاً قاطعاً. كانت متيقنة من أن رداءها وغطاءها سيُوفران الحماية الكافية. خارج شوارع برونكس الجنوبية هذه، قد ينظر النّاس إليها ويظنون أنّها موجودة خارج إطار التّاريخ وترتيبه الزّمني، لكنها كانت بين الأنقاض مشهداً مألوفاً، هي والرّهبان.

أيّ الأشخاص خرجوا عن زمنهم وارتدوا ثياباً كهذه بين الجُرذان والأوبئة؟

أحبّت إدغار مشاهدة الرّهبان في الشوارع. زاروا الحي، شيّدوا الملاجئ للمُشردين، جمعوا الطعام للجوعى. وكانوا رجالاً في مكان يندر وجود الرجال فيه. فتيان مراهقون في تجمّعات، تجّار مخدرات مسلحون - هؤلاء هم الرّجال في الشوارع الآن. إنّها تجهل إلى أين ذهب الآخرون، الآباء كوّنوا أسراً ثانية أو ثالثة، يختبئون في الملاجئ أو ينامون تحت الطرق السريعة في صناديق البرّادات، مدفونون في حقل خزف على جزيرة هارت.

قال الأخ مايك: «أنا أُحصي أجناس النّباتات. لديَّ كتاب آخذه خارجاً إلى المجموعة».

قالت غريس: «أنت على هامش الحياة، أليس كذلك؟».

«إنهم يعرفونني في المجموعة».

«من يعرفك؟ أتعرفك الكلاب؟ إنّها مسعورة يا مايك».

«أنا فرانسيسكان[1]، مفهوم؟ الطيور الخفيفة تحط على إصبعي».

«ابقَ في الهامش». قالت غريس له.

«هناك فتاة أشاهدها باستمرار، لعلّها في الثّانية عشرة من عمرها، تهرب بعيداً عندما أحاول أن أحادثها. ينتابني شعور بأنها تسكن في الدّمنة. اسألي عنها».

«سأفعل» أجابتها غريس.

عادوا إلى الدير عند تعبئة الشّاحنة بالحمولة لينجزوا المهمّة مع إسماعيل وينقلوا بعض أعضاء فريقه ليساعدوهم في توزيع الطعام. ما علاقتهم بإسماعيل؟ إنّهم يسلّمونه قوائم مُفصّلة بأماكن السّيارات المهملة شمال برونكس، تحديداً على امتداد ضفة نهر برونكس، والذي كان أكبر مكبٍّ للمركبات المسروقة، الكلاب المنبوذة، سحب الغاز. أرسل إسماعيل فريق عمله ليجمعوا هياكل السيارات وأجزاء لم يتخلَّ عنها. استخدموا شاحنة مسطحة برافعة لا يعوّل عليها ورسامي الغرافيتي الذين يرسمون الأرواح بعد موتها على سطح التاكسي وقلابة الوحل. تأتي السّيارة الضّخمة إلى هنا للاستقصاء وتحديد إسماعيل للأسعار ثم تُنقل إلى مكب الخردوات في أقاصي بروكلين. كان هناك أحياناً أربعون أو خمسون سيارة مفككة في المجموعات، بجودة عالية - معطوبة وصدئة، بلا غطاء، بلا أبواب، نوافذ مهشمة مثل ليال حالمة في الجبال.

عند اقتراب الشاحنة من المبنى، استشعرت إدغار عند منتصف جسدها القفازين اللذين كانت تثبتهما في حزامها.

كان لدى إسماعيل مجموعات من مدقّقي السّيارات والذين انتشروا في القرية، متمعّنين في الشّوارع السّود أسفل الجسور والمعابر. سيارات محروقة، سيارات مقلوبة، سيارات فيها جثث مغلفة بستائر دورة المياه كلها متوفرة من أجل تنظيف داخل حدود المدينة. المال

1- فرانسيسكان: رهبنة في الكنيسة الكاثوليكية تتصل روحيّاً بالقديس فرانسيس. (المترجمة)

الذي دفعه للراهبتين نظير دورهما في تحديد المواقع أُنفق على شراء حاجيات الدّير.

أوقفت غريس الشاحنة، المركبة الوحيدة التي تعمل في نطاق البشر. أوصلت الحلقة الفولاذية المكسوّة بطبقة الفينيل إلى دولاب القيادة، أدخلت العصا في مُبيّت القفل. وفي الوقت ذاته لبست إدغار القفازين بقوة، وهي تستشعر التأكيد الخفي للأشياء المصنوعة، بلاستيك مُمطط صمغي، درع ضد الخطر العضوي، تدفّق دم أو كميّات صديد مخفية، طفيليات مجهرية في أغطية بروتين.

نزلاء يشغلون عدداً من الطوابق. لم تحتج إدغار إلى رؤيتهم لتعرف من هم. كانوا يقيمون دون تدفئة، أو نور أو ماء. كانوا يملكون ألعاباً وحيوانات أليفة، مدمنو مخدرات يتجوّلون ليلاً بأحذية الأموات. كانت تعرفهم من خلال أوصافهم، عبر الإعلانات التي انتشرت في الشوارع. كانوا يطوفون بحثاً عن العلف للدواب مقتنين وجامعين للقناني، أشخاص يترنحون في أنفاق السيارات وبأيديهم أكواب ورقية. وعشيقات يستلقين في الطقس الخانق، ورجال صدر بحقّهم مذكرات اعتقال، متهورون وخطيرون، وفاسدون لامبالون وإهانات أخرى تفرضها المواقع الفكتورية المستديرة والتي استغلتها المحاكم الحديثة لتلائم أشغال الخشب. وهاتفون باسم الرّوح المقدسة، كانت متيقنة من ذلك - جماعة ساحرة قفزت وبكت في الطابق العلوي، وهم يتمتمون بكلمات وبغير الكلمات، يعالجون جروح السكّين بالصلاة.

استقر إسماعيل على ثلاثة رسامين. صعدت الراهبتان إلى أعلى الدرج. كانت غريس تنظر للخلف إلى الراهبة الأكبر، التي كانت تؤلمها مفاصلها لكنّ سرعتها كانت جيّدة بما يكفي، ورداؤها يُحفْحف على الدّرج.

«حقن على الأرض» حذرتهم غريس.

شاهدوا الحقن، تجنبوها، أدوات بارعة في التقليل من الذات. لم

تستطع غريس أن تفهم سبب عدم تأكد المُدمن من نظافة الحقن. هذا الفشل جعلها تصدر صوتاً غاضباً. لكن إدغار شعرت برغبة في اللّعن. إذا كنت تعرف أن لا قيمة لك، فإن مصاحبة الموت سترضيك.

وقف إسماعيل عاري القدمين على الأرض المغبرة ببنطال قطني مثني عند ربلة ساقه وفانيلة زاهية اللون خارج بنطاله، كان أشبه بكوب يبحر سعيداً.

«ماذا لديكن يا أخواتي لي؟».

ظنّت إدغار أنه كان صغيراً للغاية رغم تمرّسه، لعلّه في بداية الثلاثينيات - لحية غير مهذبة، ابتسامة لطيفة وأسنان سيئة. وقف أعضاء فريقه يدخّنون، غير أكيدين من الصّورة التي يرغبون في نقلها للآخرين. أرسل اثنين منهم ليراقبوا الشاحنة والطعام. عرفت إدغار أن غريس لا تثق بأولئك الصغار. رسامو الغرافيتي، زبّالو السيارات، لعلهم لصوص، ولعلهم أسوأ. كلّ الشارع، لا منزل ولا مدرسة. شكوى إدغار الأساسية كانت من لغتهم الإنجليزية. كانوا يتّحدثون بجمل غير تامة المعنى، بسيطة ومختلطة، ملحقات غير كافية، وكانت ترغب في وضع حرف g في نهاية الأفعال.

سلّمته غريس قائمة بالسّيارات التي عثروا عليها في الأيام القليلة الماضية. بتفاصيل الزمن والمكان، ونوع السيارة، وحالتها.

قال لها: «أنتِ تقومين بجهد جميل. ليت الآخرين يحذون حذوك، لكنّا نتحكم بالعالم الآن».

ما الذي على إدغار فعله الآن، تصويب نطقهم للكلمات والنّحو، الأطفال يعانون من نقص الغذاء، منهم أيتام، وبعضهن حوامل - كانت هناك على الأقل أربع فتيات في المجموعة. في الواقع كانت مجبرة على القيام بهذا فقط. كانت ترغب في إدخالهم إلى فصل فيه سبورة سوداء وتملأ رؤوسهم بقواعد الإملاء، وعلامات الترقيم، والأفعال المتعددة، i قبل e عدا بعد حرف. c كانت تريد أن تغرقهم بدروس عن التغليم

المسيحي للكنيسة الكاثوليكية. الحقيقة والزيّف، الصّواب والخطأ، ملء الفراغ. كلّمت إسماعيل في هذا الشّأن ليساعدها، لكنه ادّعى عدم الاهتمام، أومأ برأسه بقوة ونطق بتأكيدات غير صادقة بأنه سيفكر في المسألة.

قال إسماعيل: «سأدفع لكِ في المرة القادمة لديَّ بعض المشاغل في العاصمة».

«ما هذه المشاغل؟». تساءلت غريس.

«أنا أخطط لإيصال الكهرباء والتدفئة إلى هنا، إضافة إلى كيبلات مسروقة من أجلهم».

وقفت إدغار في أقصى الغرفة، عند نافذة تواجهها، وشاهدت شخصاً يتحرك بين أشجار الحور والسَّماء في الجزء المزهر من هذه المنطقة. فتاة ترتدي قميصاً فضفاضاً للغاية وبنطالاً مخططاً وقذراً تحت الأشجار، لعلّها تريد تناول شيء أو ثياباً. شاهدتها إدغار، طفلة طويلة وهزيلة لديها شيء من الذكاء المتوحّش، واثقة من خطاها ولغة جسدها - كانت تراقب بوَهن يشوبه الحذر، بدا أنها لم تستحم لكنها كانت نظيفة تماماً بطريقة ما، نظيفة وجائعة وسريعة. فيها شيء قد سَلب لُبّ الرّاهبة، شيء ساحر، كبرياء موجّه ومؤكد.

قالت إدغار شيئاً ما وعندها اختفت الفتاة وراء رُكام السّيارات وعندما وصلت غريس إلى نافذة السيارة كانت بالكاد في مدى الرؤية، تائهة بين بقايا مركز إطفاء قديم.

قالت غريس: «من هذه الفتاة؟ هناك في المكب والتي تختفي عن الجميع؟».

نظر إسماعيل إلى فريق عمله، وأجاب أحدهم، شاب قصير يرتدي بنطالاً عليه آثار الأصباغ، داكن البشرة وبلا قميص.

«إزميرالدا. لا أحد يعلم أين أمها».

قالت غريس: «هل تستطيع العثور على الفتاة وإبلاغ الأخ مايك؟».

«إنّ الفتاة سريعة الهرب».

تمتمت تؤيده.

«ملاحقتها حماقة».

ضحك بفتور.

«ولماذا غادرت أمها؟».

«مدمنة. إنهن يهربن، تعرفين، متوقع».

إذا جعلتني أعلمك كيف تكوّن جُملاً سليمة - قالت إدغار لنفسها - فسأنقذ حياتك.

قال إسماعيل: «قد تعود أمّها. إنها تشعر بتأنيب الضمير. يجب أن تفكري بإيجابية».

قالت غريس: «أنا أفكر بإيجابية طوال الوقت».

«لكن في واقع الأمر هناك أطفال أفضل حالاً دون أمهاتهم أو آبائهم، لأن أمهاتهم أو آباءهم يشكلون خطراً على سلامتهم».

قالت غريس: «إذا رأى أيّ شخص إزميرالدا، فخذوها إلى الأخ مايك أو أمسكوها، أعني أمسكوها ريثما آتي وأكلمها. إنها أصغر من أن تعيش وحدها أو مع الآخرين. قال الأخ إنها في الثانية عشرة من عمرها».

«اثنا عشر عاماً... ليست صغيرة». قال إسماعيل «أحد أفضل خطاطي الغرافيتي لديَّ، إنه يرسم أنماطاً جامحة، وهو في الثانية عشرة تقريباً. جوانو. وأنا أرسله إلى الأسفل بالحبال للحروف المعقدة».

«متى سنحصل على نقودنا؟» قالت غريس.

«في المرة القادمة حتماً، أنا لا أجني شيئاً عمليّاً، كما تعلمين، من الخردوات. منطقتي خالية. أسعى للتوسع خارج بروكلين. أبيع سياراتي إلى إحدى تلك الدول التي تصنع القنبلة».

قالت غريس: «تصنع ماذا؟ لا أظنهم يبحثون عن سيارات خردة. أظنهم يبحثون عن اليورانيوم المخصّب».

«لقد بنى اليابانيون أسطولهم البحري في الحيّ السادس. هل تعرفين

القصة؟ في يوم ما كانت خردوات، وفي اليوم التالي صارت طائرة تقلع، تعرفين كوريا».

لمحت إدغار ابتسامة غريس الساخرة. لم تضحك. لم يكن هذا موضوعاً يستحق الضحك عليه. كانت إدغار راهبة باردة المشاعر في الحرب، وكانت قد غطّت الجدران بورق الألومنيوم كعازل ضد شظايا قنابل الشيوعيين. لم تستلطف الحرب. حلمت حلم يقظة بكثير من القباب الملتمعة على جلدها، حاولت استحضار الانفجار الآن، وحاولت تفريق حروف الاتّحاد السوفيتي، سقطت الحروف العملاقة مثل أبجدية عملاقة.

ذهبوا إلى الأسفل إلى الشاحنة، الراهبات وثلاثة أطفال، وطفلان من الشارع ليوزعوا الطعام، بدءاً من الحافظات الأثقل.

ركبوا المصعد ومشوا إلى الرواق. خلف كل باب عدد من الأرواح المعذبة، لها تاريخها وذكرياتها، وأسماك صغيرة في أحواض مُغبرة. سبقتهم إدغار، خمسة أطفال في قطار خلفها، كل منهم يحمل كيسي طعام، وغريس في المؤخرة، تحمل الطعام، وتنادي بأسماء الأشخاص في القائمة.

تحدثوا مع امرأة عجوز كان تقيم وحدها، مصابة بالسّكري ورجلها مبتورة.

شاهدوا رجلاً يعاني من الصّرع.

تحدّثوا مع سيدتين مكفوفتين كانتا تعيشان معاً وتتقاسمان استخدام كلب للمكفوفين.

شاهدوا امرأة على كرسي للمقعدين كان ترتدي قميصاً كتب عليه اللعنة على نيويورك. قالت غريس إنهم قد يقايضون الطّعام بالهروين، أقذر شارع موجود. نظر طاقم العمل لبعضهم وهم عابسون. صكّت غريس على أسنانها، وضاقت عيناها قليلاً وهي توزع الطعام. لقد

تجادلوا بشأن هذا، الراهبتان وطاقم العمل أيضاً. كانت الأخت غريس ضد الجميع. حتى السيدة المقعدة لم تظن أن عليها أن تحصل على الطعام.

شاهدوا رجلاً مصاباً بالسرطان وقد حاول تقبيل يديّ الأخت إدغار.

شاهدوا خمسة أطفال صغار مجتمعين على سرير مع صبي في العاشرة.

نزلوا إلى الرواق. عاد فريق العمل ليجلبوا مزيداً من الطعام من الشاحنة. ذهبوا واحداً تلو الآخر في ضوء الشمس.

لقد تحدثوا مع سيدة حامل كانت تشاهد مسرحية تلفزيونية تتطرق لمشكلة اجتماعية بالإسبانية. أخبرتها إدغار أن الطفل إذا مات بعد التعميد، فإنه سيذهب إلى الجنة مباشرة. كانت السيدة مبهورة. قالت إدغار: إذا كان الطفل في خطر ولم يكن هناك كاهن، فإن بإمكان أمه تعميده بنفسها. كيف؟ تصب ماء عاديّاً على جبين الطفل، وهي تقول: «أنا أُعمّد فلان باسم الأب والروح المقدسة». أعادت السيدة هذه الكلمات بالإسبانية والإنجليزية وشعر الجميع بحال أفضل.

نزلوا إلى الرواق ومروا بمئات الأبواب المغلقة وفكرت إدغار بكل المواليد المهملين، غير المعمدين، أطفال تحت خط الفقر، في جحيم، والأطفال المُجهضين، سحابة كونية من أجنة يطوفون في حلقات زحل، أو أطفال ولدوا بنقص مناعة، أطفال فقّاعة يربيهم الحاسوب، أو أطفال مدمنون - شاهدتهم طوال الوقت، مواليد رؤوسهم كبيرة بملابس ممزقة، كانوا يمثلون شيئاً خارجاً عن التقاليد القروية.

سمعوا صوت تحطم قمامة أسفل مزالق المحرقة ثم مشوا واحداً بعد الآخر، ثلاثة فتيان وفتاتان يكوّنون جسداً واحداً مع الراهبتين، كجسد واحد له عدة أطراف متحركة. نزلوا عبر المصعد أنهوا التوصيل لمجموعة الشقق حيث استبدل الزجاج المهشم بألواح على أبواب الرواق.

أقلَّت غريسي فريق العمل إلى الطائر عند وصول الحافلة تماماً، ما هذا، هل تصدق ذلك؟ حافلة سياح يرتدون ألواناً احتفالية وعلامة على الزّجاج الأمامي كتب عليها: سريالية جنوب برونكس. تنفّست غريسي بصعوبة. ثلاثون سائحاً أوروبيّاً يحملون كاميرات وقفوا على استحياء أمام المحال المهشمة الزجاج والمصانع المغلقة ونظروا عبر الشارع المهجور في المنتصف البعيد.

جنّ جنون غريس، فأخرجت رأسها من الشاحنة وصاحت: «إنه ليس سرياليّاً. إنه حقيقي، إنه حقيقي. أنتم من تجعلونه سرياليّاً بوجودكم هنا. حافلتكم سريالية. أنتم سرياليون».

ثار راهب بالقرب على دراجته المتهالكة. شاهده السياح وهو يقودها في الشارع. استمعوا إلى صراخ غريس عليهم. شاهدوا رجلاً مقبلاً يحمل بطاريات وعجلات كان يبيع دَوّارة زاهية الألوان معلقة بعصا، وكان يحمل منها دزينة تقريباً وأخرى برزت من جيوبه وأخرى معلقة تحت ذراعيه، دوّارات بلاستيكية تدور من حوله - شخص أسود كبير في العمر يرتدي قبعة صفراء. شاهدوا هذا الرجل. شاهدوا غابة من **الإيلنطس**[1] وركام السيارات المحطمة ونظروا إلى المبنى المكون من ستة طوابق من الملائكة المرسومة والعناوين فوق رؤوسهم الطفولية.

صاحت غريس: «هذا حقيقي، هذا حقيقي. بروكسل سريالية. ميلان سريالية. هذه هي الحقيقة الوحيدة. برونكس حقيقية».

اشترى سائح اللعبة الدوّارة وعاد إلى الحافلة. تراجعت غريس وهي تُتَمتم. «ارتداء راهبات أوروبا الغطاء كدعامات منازل على الشاطئ. هذا سريالي»، قالت. الطريق المزدحم لم يسبّبه (الطير). جلست الراهبتان بأفكار منهمرة. شاهدت إدغار أطفالاً يمشون إلى منازلهم من المدرسة، يتنفسون هواء يتصاعد من المحيطات وتهب الريح إلى هذا الشارع على حافة القارة. فاجعة وجود طفل بأظافر قذرة. اعتادت الهجوم بالضرب

1- الإيلنطس: شجرة استوائية. (المترجمة)

على طلاب الفصل الخامس بمسطرة على أيديهم إذا لم تكن أظافرهم براقة كقطعة نقود مسكوكة.

تصاعدت ضجّة من حولهم، صوت أبواق السيارة المُرهق وصفّارات الشرطة وجَلَبة ضخمة من بوق سيارة إطفاء.

قالت غريس: «يا أختاه، أتساءل أحياناً لماذا تنشغلين بهذا كله. لقد نلتِ شيئاً من السلام والهدوء. بإمكانك أن تعيشي في الريف وتقومي بكل أعمال التطوير من أجل النّظام. كم أودّ الجلوس في بستان الزهور وبين يدي رواية غامضة وفلفل متكوّر عند قدميّ. فلفل العجوز هو اسم القط في منزل الراهبة الأم الريفي. بإمكانك أن تقومي برحلات غداء إلى البركة».

كان لدى إدغار حزن داخليّ كئيب والذي ظهر في مكان ما قرب حنكها. لم تكن تتوق إلى الحياة في الريف. هذه هي حقيقة العالم، إنّها هنا تماماً، سكنى روحها، ذاتها - لقد شاهدت ذاتها، في الطفلة الخائفة التي تواجه أهوال الشوارع لتعالج الدمار الذي في داخلها. وأين عساها تقوم بعملها إلا تحت جدارية (إسماعيل مونوز) المجنون والشجاع؟

خرجت غريس من الشاحنة إلى الشارع. كانت قد فكت حزام الأمان، ظل الباب مفتوحاً. فهمت إدغار فوراً. استدارت وشاهدت الفتاة، إزميرالدا، على بعد مربع سكني من غريس، تركض نحو شاحنتهم. تحركت غريس بين السيارات بحذاءين كعبهما مرتفع وتنورة. لحقت بالفتاة إلى الزاوية حيث توقفت حافلة السّياح بسبب الازدحام المروري. شاهد السّياح هاتين الشخصيتين الرّاكضتين. تمكنت إدغار من مشاهدة رؤوسهم تلتفت في تناغم، دوّارات تدور عند النوافذ.

احْتَشَدَتْ كُلُّ الأَصْواتِ فـي السّمـاءِ الْـمُـعْـتِـمَـة.

ظنت أنها تفهم السّياح. أنت تسافر إلى مكان ما، لا لتشاهد المتاحف وغروب الشّمس بل الآثار، المناطق التي فُجّرت، ومن أجل ذكرى التعذيب والحرب المكسوة بالطحالب. كانت مركبات الطوارئ قد

تجمعت على بُعد مربع سكني ونصف، شاهدت العمّال يتطفلون على نفق مفتوح تخرج منه أدخنة ثم تلتْ صلاةً سريعةً، فِعْلُ أملٍ، ثلاث سنوات من الصّبر. بعدها بدأت رؤوس وجذوع بالظهور، بغموض، تجمعٍ الناس حولهم بأفواه مفتوحة في ثوران جنونيّ. جولة قصيرة، حريقٌ في نفق القطار. من النافذة الجانبية لاحظت أن بعض السياح ينزلون من الحافلة ويحتشدون على طول الشارع، استعداداً لالتقاط الصور، أما تلاميذ المدرسة الذين مرّوا بجانبهم، فبالكاد كانوا مهتمين - شاهدوا تسجيلات لقتل حقيقي على التلفاز. لكن ماذا كانت تعرف، امرأة عجوز تأكل السمك يوم الجمعة وتتوق للتّجمعات اللاتينية؟ كانت أقل قيمة من الأخت غريس. كانت غريس جنديّة، محارِبة لإعلاء قيمة الإنسان، وكانت إدغار مُحقّقة مبتدِئة، تحمي مجموعة قوانين وممنوعات. لقد سمعَت صوت سيارات الشرطة تنبض متوقفة في الازدحام، وشاهدت مئات من سائقي النّفق يخرجون ويرافقهم العمّال في سترات متوهجة وشاهدت السّياح يلتقطون الصّور وفكرت بالرحلة التي قامت بها إلى روما قبل عدة سنوات، من أجل الدّراسة والتّجديد الدّيني، حين ترددت على القباب العظيمة وطافت بسراديب الموتى وسراديب الكنائس وهذا ما ظنّت أنّ السائقين يفعلونه عند خروجهم للشارع، كيف وقفت في الكنيسة الجوفية، في الكنيسة الكابوشينية ولم تستطع إبعاد عينيها عن الجماجم المتراكمة هناك، متسائلة عن الرّهبان الذين كان لحمهم ذات يوم مزيناً بعظام وجماجم، كثير من الجماجم تكدّست في تجاويف وزوايا مائلة، وقد تذكرت تفكيرها الحقود في أن هؤلاء هم الأموات الذين سيخرجون من الأرض ليضرِبوا الأحياء بالسياط والهراوات - لكن هل تريد هي تصديق ذلك فعلاً؟

اقتربت غريس من مقعد السائق، حزينة، ومحتقنة بالدّم. «كدت أمسك بها. ركضت في أكثر الأماكن ازدحاماً عندها شرد ذهني، مرعوبة في الواقع، لأن الوطاويط، لم أصدق ذلك، وطاويط حقيقيّة - الثّديات

الوحيدة الطائرة على الأرض؟ «قلّدت حركة الجناحين بسخرية. خرجت تبحث في حفرة مليئة بالمخلّفات الطبية. ضمادات ملطّخة بالدّماء».

«لا أريد الاستماع» قالت إدغار.

«لقد شاهدتها، حقن مستخدمة تكفي لإبادة مدن كاملة. فئران بيض نافقة قرب مئات من الجثث المتيبسة. بإمكانك أن تقلبيها كأوراق البيسبول».

مدّت إدغار ذراعيها داخل القفازين الأبيضين.

«وإزميرالدا في مكان ما في تلك الشجيرات والسّيارات المُهملة. أراهن على أنها تعيش في إحداها» قالت غريس.

«ما الذي حدث هناك؟ حريق في الميترو، يبدو ذلك».

«صحيح».

«أي قتلى؟».

«لا أظن ذلك».

«ليتني أمسكت بها».

«ستكون بخير» قالت إدغار.

«لن تكون بخير».

«بإمكانها الاعتماد على نفسها. إنّها تعرف المكان. إنّها ذكية».

«لاحقاً أم آجلاً سأمسك بها». قالت غريس.

«إنها بخير. إنّها ذكية. ستكون بخير».

وفي تلك الليلة، تحت وطأة النّوم، شاهدت إدغار في حلمها سائقي قطار الأنفاق مرة أخرى، ورجالاً راشدين، وإناثاً في عمر الإنجاب، كانوا قد أنقذوا من الأنفاق المليئة بالدخان، اجتمعوا على منصّات وصعدوا للأعلى عبر سلالم إلى الشارع - آباء وأمهات، الآباء التائهون عثر عليهم، قمصان ممزّقة، وأجساد مستقيمة، يقودهم أشخاص بلا وجوه ولهم أجنحة زاهية اللون إلى السطح.

بعد عدة أسابيع شقّت إدغار وغريس طريقهما سيراً على الأقدام

إلى ضفاف نهر برونكس قرب حدود المدينة حيث كانت هناك سيارة هوندا مهملة تحت الشجيرات، بلا لوحة أرقام السيارة، إطاراتها منهوبة، ونوافذها مرفوعة، عليها خدش جرذان، وبعد أن لاحظتا تفاصيل الهجرات، عادتا إلى الشاحنة، انتاب إدغار شعورٌ مقيت، أحد تلك الوساوس التي شعرت بها قبل عدة سنوات عندما شعرت بأشياء رهيبة تخص تلميذاً أو أباً أو راهبة وعلمت بمعلومات مخزنة في الأروقة المغبرة للدير أو غرفة المؤونة في المدرسة التي كانت تنبعث منها رائحة خشب الرصاص وكتب الإنشاء، أو الكنيسة المتاخمة للمدرسة، معرفة مظلمة في الدخان المتصاعد من مبخرة هيكل الصبي المتأرجحة، لأن المشاعر كانت تأتيها من صرير أخشاب الأرض وعطور الملابس، جلود الجمَل التي ارتداها الآخرون، لأنها رسمت الأخبار، والشائعات، والمصائب في خيوط القطن النظيفة التي في ردائها وغطائها.

هي حتماً لم تدّعي القوة لتعيش بلا تشكيك في مجريات الحياة.

كانت تُشكك وتُنظف. مالت تلك الليلة على حوض الغسيل في غرفتها وغسلت كل شعرة من فرشاة الجسم بصوف قاسٍ ومبلل بمطهر. لكن هذا كان يعني أن عليها أن تغطس قارورة المطهر في شيء أقوى من المطهر ذاته. لكنّها لم تفعل. لم تقم بذلك لأن انتكاسها كان كُلّيّاً. والانتكاس كان تامّاً ويسمى تمام الانتكاس. هل ترى كيف يصبح الشك مرضاً ينتشر بعد لفظ مُلِحّ للمسألة في مساحات راقية حيث تلعب الكلمات على نفسها؟

وفي صباح يوم آخر، جلست في الشاحنة وشاهدت الأخت غريس تخرج من الدّير، مشية متقلبة، رجلان قصيرتان وجسد مربع، أدارت غريس وجهها واقتربت من مقدمة المركبة وفتحت باب السائق.

ركبت وأمسكت بالمقود، وهي تنظر إلى الأمام مباشرة.

«استلمتُ مكالمةً من الدير».

ثم مدّت يدها للباب وأغلقته. مسكت بالمقود مجدداً.

«شخص ما اعتدى على إزميرالدا ورماها من أعلى السطح».

«أنا أجلس هنا وأفكر، سأقتل من؟».

نظرتْ إلى إدغار لبرهة قصيرة من الزمن، ثم وضعت الشّاحنة على وضع التشغيل.

«سأقتل من الآن؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يمكنني طرحه على نفسي دون أن أنهار تماماً».

ذهبتا جنوباً عبر الشوارع الجنوبية، رائحة المنزل طينية في ضوء الصباح. شعرت إدغار بغضب غريس وألمها - كانت قد اقتربت من الفتاة مرتين أو ثلاثاً في الأسابيع القليلة الماضية، تحدثت معها من بعيد، رمَت حقيبة ملابس على النباتات حيث كانت إزميرالدا تقف. قادت الشّاحنة طوال الطريق دون أن تنبس ببنت شفة مع الرّاهبة الأكبر في العمر. تتلو في ذهنها أسئلة وأجوبة من أنشودة مسيحية بالتيمور. قوة هذه التمارين - كأنها صلاة أبديّة - كانت تكمن في أصوات من أنشدوها، الأطفال يستجيبون عبر قرون زمنية، بلفظ واضح، ترنيمة صفير كانت تفصح عن حياتها. أسئلة وأجوبة. أيّ حوارات أعمق قد يورثها الحكماء؟ وضعت يدها على يد غريس على العجلة وأبقتها كذلك لدقيقة حسب الساعة في لوح العدادات. من خلقنا؟ الله خلقنا. هذه العيون الصافية مؤمنة. من هو الرّب؟ الإله الأعلى الذي خلق كل الأشياء. شعرت بخدر في ذراعيها، كانتا ثقيلتين وميتتين عندما وصلت إلى القطاع الثاني عشر، بان لهم المبنى المهمل من الخلف. نوافذه العلوية بيض تراقصها أشعة الشمس على وجه حجر داكن.

عندها نطقت غريس أخيراً: «لا يزال موجوداً».

«من الذي لا يزال موجوداً؟».

«اسمعيه، هل سمعته؟».

«أسمع ماذا؟» قالت إدغار.

«كو- كو- كو- كو».

ثم قادت الشاحنة إلى المشاريع نحو الجدران المرسومة.

عندما وصلنا إلى هناك كانت الملاك إزميرالدا قد رُسِمت. لقد منحوها قميصاً وردّياً لطيفاً وبنطالاً وحذاءي (آير جوردن) بشعاره الشهير - منحها إسماعيل حذاءي عَدْو لأنها تحب الركض. والطفل الصغير الذي اسمه جوانو لا يزال معلقاً بالحبال، معلقاً من السقف برافعة قوية كانوا يستخدمونها لرفع السيارات إلى سطح الشاحنة. مال إسماعيل والآخرون على الرّف الخشبي، محاولين أن يهتفوا بالحروف الصحيحة له، وجوانو يميل حاملاً آلة الرش ويرسم حروفاً متداخلة من زمن الغرافيتي العظيم والجامح. وقفت الرّاهبتان خارج الشاحنة، وهما تشاهدان الصبي ينهي آخر كلمة محددة وشاهدوه يتأرجح عالياً في الرياح.

إزميرالدا لوبيز

12 عاماً

مخمية في الحنّة.[1]

التقوا ببعضهم جميعاً في في الطابق الثالث، وجرّت غريس خطاها إلى الشّقة. وقف إسماعيل في الزاوية يدخن (فيليس بلونت). لم تعرف الراهبتان من أين عليهما البدء، كيف تخاطبان شخصاً بلا اسم، شخص اعتدى على طفلة كانتا ترغبان فعلاً في إنقاذها. توانت غريس، أحكمت غلق قبضتيها. سمعوا صوت حافلة المدينة على بُعد بضعة مربعات سكنية.

«إسماعيل. عليك اكتشاف هويّة الشخص المغتصب».

«وهل تظنون أنّي ألعب هنا؟».

«لديك معارف في الحيّ ولا أحد غيرك يعرفهم».

«أيّ حيّ؟ الحيّ هناك. هنا الطير. كل ما أستطيع فعله هو إحضار

1- مخمية في الحنّة: «محمية في الجنّة»، قلبت حروف في النص الأجنبي للتأكيد على عدم إتقان قواعد الإملاء. (المترجمة)

كل أولئك الأطفال كي يكتبوا كلمة على الجدار اللّعين. في السابق، كنّا نكتب في الأنفاق في الظلام دون أن نخطئ في حرف واحد».

«من يأبه بالإملاء؟» قالت غريس.

تبادل إسماعيل نظرة مختلَسَة مع الأخت إدغار، وهو يبتسم ابتسامة مواربة لها، كشفت عن أسنانه التي أهملها طبيّاً. لقد شعرت بالضعف والضياع. بما أن الرعب قد ساد الآن، كيف نعيش؟ فكرت. شبح عظيم - ليس جماداً قذفته السماء، أطلقت عنانه ربّة إغريقية على إناء مزخرف 500 عام قبل الميلاد. ما هو الرعب الآن؟ قليل من الضوضاء في سرداب قريب، أم إنه لص يحمل سكيناً حادة أم سيارة تدور باستمرار. شخص يحمل طفلك. خوف قديم دبّت فيه الحياة. سوف يسرقون طفلي، سيقتحمون منزلي أثناء نومي ويستخرجون قلبي لأنهم متواصلون مع الشيطان. سمحت غريس لنفسها بحمل كآبتها وإرهاقها لبقية اليوم واليوم التالي ولثلاثة أسابيع بعد الحادثة. ظنّت إدغار أنها قد تقع في مصيبة، بدأت ترى العالم كانبثاق مسألة صريحة صادفت لتجعل كوكب زمرد هنا ونجماً ميتاً هناك، وبينهما خردوات عشوائية. كان الاطمئنان العميق مفقوداً من نومها، شكْلاً وقدراً، القوة التي ترهب وتروع. عندما أخذت غريس الطعام مع الطاقم إلى المشاريع، كانت إدغار تنتظر في الشّاحنة... كانت الرّاهبة التي في الشّاحنة، غير قادرة على مواجهة الناس الذين كانوا يحتاجون إلى أجوبة عن إزميرالدا.

يـا أمَّ الـرَّحْـمَـة صَـلّـي لَـنـا.

ثم بدأت الحكايات تُنسج، كلمات من بشر إلى بشر، تطوف الكنائس والأسواق، مبتورة قليلاً، أخطؤوا في فهمها هنا وهناك، لكنها ليست مشوهة تماماً - كان من الواضح أنّ النّاس يتحدثون عن الحدث العُجاب ذاته. بعضهم ذهب فشاهد ثمّ أخبر الآخرين، محفّزاً نمو الأمل فيهم لتجاوز الأشياء.

اجتمعوا بعد الغسق في مكان فيه رياح بين مدخلي الجسر، سبعة أو

ثمانية أشخاص جذبتهم كلمة شخص أو شخصين، ثم ثلاثون شخصاً جذبتهم كلمة سبعة، ثم حشدٌ صامتٌ من النّاس والذين زاد عددهم ولم يفقدوا احترامهم، مئتا شخص حشروا في جزيرة مزدحمة في أقاصي برونكس حيث يتقوس الطريق عند السوق الحدودي وساحات السكك الحديدية الممتدة نحو الطرق الضيقة، كلّ الخراب الصّناعي الذي يفتّت جمال قلبك بكآبته ونكده - ارتفاع الأسعار الذي يُنبِت الحشيش الطّويل عند سكّة الحديد القديمة الممتدة فوق نهر هارلم، وهو جسر مفتوح الجانبين، قد يتذبذب قليلاً في الرياح المستمرة.

احتشدوا، جاؤوا وركنوا سيّاراتهم - إذا كانت لديهم سيارات - ست أو سبع سيارات، رُكنت بانحراف على مكان مرتفع أو في شوارع المصنع الجانبية، وحشروا أنفسهم في جزيرة إسمنتية بين الطريق السريع والشارع، استشعروا النسمات العليلة وحدّقوا عالياً في الازدحام الجنوني إلى لوحة معلّقة بأسى - لوح إعلاني عُلّق عالياً فوق ضفة النهر بقصد جذب نظرات المسافرين الفاقدة للتركيز على متن القطارات المستمرة في حركتها من الضواحي الشمالية إلى نقود مانهاتن ووفرة سلعها.

جلست إدغار متصالبة القدمين مع غريس في حجرة الطعام. أكلت طعامها دون أن تتذوقه لأنها قررت قبل عدة سنوات أن هدف تناول الطعام ليس التّذوق. الهدف هو تنظيف الماعون.

قالت غريس: «لا، رجاء، لا يمكنكِ».

«فقط لأشاهده».

«لا، لا، لا».

«أريد أن أشاهد بنفسي».

«في هذه الصحيفة أسوأ تركيز للخرافات. إنها فظيعة. تماماً، ما هي؟ تنازل تامّ عن المبادئ، تعرفين؟ كوني عقلانية. لا تتخلي عن شعورك الإيجابي».

«لعلّها هي التي يشاهدونها».

«أتعرفين ما هذه؟ إنها أخبار المساء. إنها الأخبار المحلية عند الحادية عشرة بكل عناصرها المتنافرة والمتناقضة لتجبرك على مشاهدتها لنصف ساعة».

«يجدر بي الذّهاب» قالت إدغار.

«إنّه شيء للمستضعفين في الأرض ليواجهوا ويحكموا ويفهموا، إذا استطاعوا، وعلينا أن نراه في إطاره. الضّعيف بحاجة إلى البصيرة، مفهوم؟».

«أظنك تناصرين الأشخاص الذين تحبينهم» قالت إدغار بلطف.

«هذا ليس عدلاً».

«أنت تقولين المستضعفين. لكن من سيظهر قدّيسه أيضاً؟ هل يظهر القديسون والملائكة ليحققوا ما يبتغونه من الرؤساء؟ تناولي الجزر».

«إنها أخبار المساء. متاجرة فاضحة وشنيعة بمقتل فتاة».

قالت إدغار: «من ذا الذي يتاجر بمقتلها؟ لا أحد يتاجر. سيذهب النّاس إلى هناك للنحيب، للتصديق».

«وهكذا تصبح الأخبار أقوى؛ إنّها لا تحتاج إلى تلفاز أو صحف. إنها تُخلق خلقاً في وعي الناس. إنها تصبح حقيقة أو حقيقة مزيفة - ليؤمنوا أنهم يشاهدون الواقع بينما هم في الحقيقة يشاهدون شيئاً مُخْتلقاً. إنّها الأخبار دون إعلام صادق».

تناولت إدغار رغيفها.

«أنا أكبر من البابا. لم أظن أني سأعيش طويلاً لأصبح أطول عمراً من البابا أظن أن عليَّ مشاهدة ذلك الشّيء».

«الصّورة تكذب» قالت غريس لإدغار.

«أظن أنّ عليَّ مشاهدته».

«لا تُصلّي للصور، صلّي للقديسين».

«يجدر بي الذهاب».

«لا يمكنكِ. هذا جنون. لا تذهبي يا أختاه».

لكن إدغار ذهبت. ذهبت مع شخص هادئ الطباع اسمه جينس لودرميلك، الذي كان يرتدي تقويم أسنان لتباعد أسنانه. استقلّا الحافلة مروراً بالنفق ثمّ مشيا بين الأحياء الثلاثة الأخيرة. حملت الأخت جان هاتفاً محمولاً في حافظة في حال احتاجوا للمساعدة.

تَـعَـلَّـقَ قَـمَـرٌ بُـرْتـقـالـيّ في سماء الْـمَـديـنَـةِ.

أشخاص مذهولون في السّيارات العابرة، اجتمع المئات على الجزيرة، ركنوا سياراتهم الخاصة مائلة بخطر قرب تدفق السيارات. أسْرعت هي والرّاهب عبر الشارع وحُشرت في الجزيرة، أفسح النّاس مجالاً لهما، أجساد متلاصقة تباعدت ليقفا براحة.

تتبّعا نظرات الحشد. وقفا وشاهدا. كانت اللوحة الإعلانية مضاءة بشكل غير متساوٍ، باهتة في أجزاء، ومنيرة في أجزاء أخرى، لكن العنصر الأوسط كان صافياً، شلالٌ خلابٌ من عصيرِ برتقالٍ يصبُّ قطريّاً من أعلى اليمين في كأس إلى أسفل اليسار - تصبّه يد تعود لقوقازية من المدن. صفصاف بعيد، وبحيرة ضبابية، وأشخاص في حيّز صغير. لكن العصير هو ما أسَرَ الأعين، سميكٌ ولُبِّي بفوران يشبه القمر المجنون. وأولى تفاصيل صب العصير في قاع الكأس هو تناثره، كل قطرة ملتقطة بعناية كما لو أنّها ملحمة متقنة الكتابة. «يا لهما من جهدٍ وتقنيةٍ مهدورَيْن، ما عاد للثقافة وجود»، قالت إدغار لنفسها. كأنها كنائس من العصور الوسطى، قناني بحجم أونصات من عصير (مينت ميد) مصفوفة أسفل قوس العصير، مئات القناني المتشابهة والمألوفة في الشكل والخط كما لو أن لكل منها شخصية قائمة بحد ذاتها، برتقالات صغيرة لطيفة كأنها بشرية.

لم تعرف إدغار كم من الوقت عليها أن تنتظر أو ماذا من المفترض أن يحدث. مرّت شاحنات المنتج عند الغروب. سمحت لعينيها بالتّمعن في جمْع البشر. عاملون، وعاملات، وأصحاب محلات، ربما بعض

التائهين والمتطفلين لكنّ عددهم ليس كبيراً، ثم لاحظت مجموعة من الناس المتأنقين عند المقدمة تقريباً، وكأنهم مقدمة سفينة للجزيرة التي يقفون عليها. كان الذين يتمتعون بشعبية من الطابق العلوي في الطير[1]. يرتدون الأبيض الفضفاض، نساء يشبهن الأسطوانة، رجال مهزولون وشعورهم مجدولة بضفائر صغيرة. كان النّاس صبورين، على عكسها، فالتوتر قد انتابها عندما سمعت صوت غريس في رأسها. مرت طائرات نحو لاغواردينا، وقصفت السماء بضجيجها. تبادلتْ هي والأخت جان النظرات. وقفتا وشاهدتا. حدّقتا في العصير بغباء. بعد عشرين دقيقة كانت هناك ضوضاء، نوع من الرياح البشرية، ونظر الناس إلى الشمال، وأشار الأطفال إلى الشمال بسباباتهم. تأهبّت إدغار لاقتناص لمحة ممّا يشاهدونه.

الْـــقِـــطـــار.

لقد شعرت بالكلمات قبل أن تشاهد أيّ شيء. شعرت بالكلمات رغم أن أحداً لم يتحدث عنها. هكذا توحّد الجماعة كل وعي فرداني فيصير جمعيّاً مشتركاً. ثم شاهدته: قطار سفر عادي، رمادي وأزرق، بلا أيّ رسوم عليه، يتحرك بسلاسة نحو الجسر المتحرك. سقطت أنواره على اللوحة الإعلانية، وسمعت صوتاً من الناس، انبهار غدا بكاء وصياحاً ودموعاً لمتألمين مجهولي الهويّة. هتاف جماهيري، صراخ إيمانيّ متزايد، لأن أنوار القطار اجتاحت الجزء المعتم من اللوحة الإعلانية، فظهر وجه على البحيرة الضبابية... كان وجه الطفلة القتيلة. عشرات النساء أمسكن رؤوسهن، صرخن وبكين، مرت روح، أنفاس الرّب بين الجمع.

إزمـيـرالـدا.

إزمـــيرالـدا.

إدغار في حال يرثى له؛ لقد شاهدتها ولكن بشكل خاطف، أسرع

1- المبنى المهدوم الذي يؤوي الفقراء. (المترجمة)

مما أمكنها أن تدركه - أرادت أن تعاود الصورة الظهور. حملت النساء أطفالهنّ ليشاهدوا اللوحة، كما لو أنّ تدفق العصير، سيعمدهم كالبلسم والزيت. تحدثت الأخت جان، وسط الصخب والضوضاء، قائلة:

«هل هذه صورتها؟».

«أجل».

«أواثقة أنتِ؟».

«أظن ذلك»، قالت إدغار.

«هل شاهدتها من قبل عن قرب؟».

«لقد شاهدها أبناء الحيّ. كل من هنا. كانوا يعرفونها لسنوات».

كانت غريس لتقول، يا له من رعب، يا له من مشهد سيء الذوق. كانت تعرف ما ستقوله غريس. كانت غريس لتقول، شيء أسفل اللوحة أو تيار كهربائي تسبب بظهور الصّورة على الإعلان العلوي وهو لا يظهر إلا عند توفر الضوء الكافي عليه.

شاهدت إدغار غريس وهي تمسك بحنجرتها، وتتنفس بصعوبة.

هل هي مصيبة في رأيها؟ هل وصلت الأخبار إلى الوكالات الدعائية لتنشره؟ هل كانت الأخبار تختلق نفسها على مرأى من الناس الواقفين والعابرين؟

لكن ماذا إذا لم يكن هناك ورقة علوية؟ ما سبب وجود إعلان قديم تحت إعلان عصير برتقال؟ هم بالتأكيد أزالوا الإعلانات السابقة.

قالت الأخت جان: «ماذا بعد؟».

انتظرتا. انتظرتا هذه المرة فقط ثماني أو تسع دقائق قبل اقتراب قطار آخر. تحركت إدغار إلى الطرف قليلاً وأمالت جسدها للأمام بلطف. أفسح الناس المجال لها، لقد شاهدوها - راهبة في غطائها وردائها الطويلين بشال شتويّ وتتبعها راهبة أخرى ترتدي معطفاً وخماراً، وترفع هاتفاً محمولاً عالياً.

لقد شاهدوها. وعانقوها وهي سمحت لهم بذلك. كان وجودها قوّة تأكيد، قامة من كنيسة كونية بسرّ مقدس واتصالات خفية - لقد اصطفاها الرّب لتكابد الفقر، والتّطهر والخضوع. عانقوها... سمحوا لها بالمرور وصارت بجانب المتأنقين، اهتزّ المبشّرون بالإنجيل في مكانهم عندما سقطت أضواء القطار على لوحة الإعلان مرة أخرى. شاهدت تشكّل وجه إزميرالدا تحت قوس العصير المسكوب وفوق البحيرة الصغيرة، كانت هناك إنسانة تعيش في الصّورة، روح مميزة لها شخصية، مخلوقة عاقلة وجميلة - في أقل من ثانية من الحياة، أقل من ثانية قبل أن يصبح مكانها معتماً.

لقد شعرت بشيء يتغلغل فيها. عانقت الأخت جان. تصافحتا، وهما شاخصتا النّظر إلى السّماء. تصافحتا مصافحة حميمية، كلمات مُنمّقة على لسانيهما، كلمات مُنْتشية. فكرت إدغار - إنّهم يترنّمون بأشياء تختلف عن الهذيان المألوف. ضَربتْ صدر رجل ما بجانبها بقبضتيْها. بدا كلّ شيء في متناول اليد، متغلغلاً فيها: الحزن، والفقد، والمجد، وتعاسة الأمهات العاجزات البائسات، وألم عظيم جعلها جزءاً لا يتجزّأ من الهلعين والباكين، وفزع الناس على امتداد الطريق - غرقت في اللحظة، تاهت في تفاصيل تاريخها الشّخصي، لحظة فارقة تصب على الناس على شكل عصير.

قالت الأخت جان: «أنا لا أعرفها».

«بالتأكيد تعرفينها. تعرفينها. لقد شاهدتها».

«أنا لا أعرفها. كانت ظلّاً».

«إزميرالدا على البحيرة».

«أجهل ما شاهدت».

انتظرتا مزيداً من القطارات. تساقطت الأضواء من الطائرات العابرة على الجزيرة والماء، قطار كل نصف ساعة، اختلطت ضوضاء النهر بضوضاء البشر، وكان في الهواء رائحة الوقود. انتظرتا قطاراً إضافيّاً.

كيف تنتهي الأشياء؟ أشياء كهذه... تضمحل وتصير إلى العدم إلى بُعد ذي جوهر منْسي من بشر صادقين ومرهقين تحت المطر؟

وفي الليلة التالية ازدحم الموقع بألف شخص. ركنوا سياراتهم في الحي وحاولوا شق طريقهم إلى الجزيرة المزدحمة لكن معظمهم وقفوا على الطريق السّريع البطيء، باستحياء وتَنَبُّه. صدمت دراجة نارية سيدة فتدحرجت على الإسفلت. جرّت سيّارة فتى مسافة مئة ياردة، إنها مئة ياردة دوماً. باعة يتجوّلون بين مسارات الشّارع المتوقفة، يبيعون الزّهور، والمشروبات الباردة وصغار القطط. كانوا يبيعون صوراً مضيئة لإزميرالدا مطبوعة على بطاقات دعاء، كانوا يبيعون العجلات الدّوارة التي لم يتوقف دورانها.

أمّا في الليلة التالية، فبانت الأم - والدة إزميرالدا المفقودة - والتي انهارت بذراعين مفتوحتين عندما ظهر وجه الفتاة على اللوحة الإعلانية. نقلوها بسيارة إسعاف يتبعها عدد من مركبات القنوات التلفزيونية. تشاجر رجلان وضربا بعضهما بهيكل إطار السيارة الحديدي، وأعاقا المرور. صوّرت طائرة الهليكوبتر المشهد ووزّعت الشّرطة شريطاً بُرتقاليّاً تحذيريّاً حول المنطقة - اللون البرتقالي الزاهي ذاته للعصير.

لكن في الليلة التالية، كانت اللوحة الإعلانية خالية. يا للفراغ الذي تركته في المكان. أقبل النّاس وهم يجهلون ما يقولونه أو يفكرون به، أو إلى أين ينظرون أو ماذا يصدقون. كان الإعلان عبارة عن لوحة بيضاء فيها كلمتان صغيرتا الحجم: مساحة إعلانية فارغة، يتبعها رقم هاتف من الطراز الرفيع.

عندما وصل أول قطار، عند الغروب، لم تكشف أضواؤه عن شيء.

وماذا ستتذكر، عندما يعود الجميع إلى منازلهم وتستحيل الشوارع مساحة خالية من الإمعان والأمل، وتذرو الرياح بالذكرى بعيداً؟ هل الذّاكرة هشّة ومُرّة وتُخجلك بزيفها الجوهريّ - فارق دقيق يكاد لا يدرك وخيال توّاق؟ أم إنّ قوّة التّفوق تحجب الشعور بحادثة انتهكت

القوى الطبيعية؟ أينبض شيء مقدس في الأفق المتأجج، وتتعطش لوهم لأنك تحتاج إلى إشارة تخالف ظنونك؟

حملت إدغار الصّورة في قلبها، ذلك الوجه المحبب على الإعلان الضوئي، توأمها البَتول والتي كانت ابنتها أيضاً. تذكرت رائحة الوقود على الجزيرة. صار ذروة تجربتها - رائحة خشب الأرز المحروق واللبان - وسيطاً واقياً وحافظاً لكُليّة اللحظة، كل اللحظات، ذروة تجربة... أشعلت حزناً مباغتاً وشعوراً مألوفاً في الأوصال.

شعَرت بالألم في مفاصلها، ذلك الألم المعتاد في جسدها الطاعن، وجع في أماكن مِفْصَليّة، وخز عذاب حاد في الرّوابط بين العظام.

نَـهَـضَـتْ وَصَـلَّـتْ.

يا أبانا الّذي في السَّماوات، نَرْجوكَ باسْمِكَ الْمُقَدّس، أنْ تَمْلَأَ قُلوبَنا بِنورِك.

تقال هذه الصلاة عند الفجر، والعصر، والعشاء لعشر سنوات، وبقلب مخلص قدر الإمكان.

الجزء الثالث

- بادِر – ماينْهوف (2002)
- منتصف الليل في دوستويفسكي (2009)
- مِطْرقة ومِنْجل (2010)
- الجائعة (2011)

بادِر - ماينْهوف

كانت تعرف أن هناك شخصاً في القاعة. لم يكن هناك إزعاج صرف، مجرد ضجة بسيطة وراءها، هواء مختلف قليلاً. ظلّت وحيدة بعض الوقت، جلست وسط المعرض، على مقعد وسط القاعة واللوحات حولها، سلسلة لوحات تتكون من خمس عشرة لوحة. شعرت أنّها تجلس كما يفعل شخص في كنيسة تختص بالدفن، وهي تراقب جسد قريب أو صديق.

يطلق على هذا الفعل (معاينة)، كما ظنّت.

كانت تنظر إلى أولريك الآن– رأسها ونصف جسدها العلوي - على رقبتها حبل محروق، لم تعرف على وجه التحديد نوع الأداة المستخدمة في تنفيذ حكم الإعدام.

سمعت خطوات شخص يمشي باتجاه المقعد، مشية رجل متثاقل الخطوات، نهضت وذهبت إلى المنصة أمام صور أولريك. ثلاث لوحات مترابطة، أولريك ميتة في كل منها، على أرض زنزانتها، رأسها مائل. العنق، وأثر الحبل، والشعر، وتعبيرات الوجه، كانت مرسومة، فروق دقيقة من الالتباس والكآبة، وتفاصيل أوضح هنا وهناك، الفم المطبق في لوحة ما يبدو طبيعياً في فم آخر، لا نمط واضح.

«برأيك لماذا رسمها بهذه الطريقة؟».

لم تلتفت إليه.

«بهذه القتامة... وبلا ألوان؟».

أجابته: «لا أعرف»، وذهبت إلى مجموعة الصور الأخرى، اسمها **رجل أردى قتيلاً**. كان اسمه أندرياس بادر. فكرت فيه باسمه الأول واسم عائلته. فكرت بماينهوف، رأت ماينهوف كاسم أول فقط، أولريك، وكذلك الحال مع غودرَن.

«أنا أحاول التفكير فيما حصل لهم».

«إمّا أنّهم انتحروا، أو أنّ الدولة قتلتهم».

قال: «الدولة»، بصوت أعمق، في نبرة تهديد ميلودرامية، محاولاً قراءة سطر قد يبدو مناسباً.

كانت تريده أن يكف عن إزعاجها، لكنها بدلاً من ذلك شعرت بضيق مبهم. لم يكن من عادتها استخدام هذا المصطلح - الدولة - في سياق صارم تعبيراً عن القوة العليا العامة. لم تكن هذه ألفاظها.

كانت لوحتا بادر قتيلاً في زنزانته بالحجم ذاته، لكنهما كانتا تناقشان موضوعين مختلفين تماماً، وهذا ما تفعله هي الآن - لقد ركزت على الاختلافات: الذراع، والقميص، وشيء غير معروف عند حافة الإطار، والتباين أو التذبذب.

«أجهل ما حدث لهم» قالت. أنا أخبرك برأي النّاس فقط. حدث هذا قبل خمسة وعشرين عاماً، لا أعرف الحال آنذاك، في ألمانيا، من ناحية التفجيرات والاختطافات»

«لقد عقدوا اتفاقاً، ألا تظنين ذلك؟».

«يعتقد بعض الناس أنهم قُتلوا في زنزاناتهم».

«ميثاق. كانوا إرهابيين، ألم يكونوا كذلك؟ عندما لا يقتلون الآخرين، فإنهم يقتُلون أنفسهم» قال.

نظرت إلى أندرياس بادر القتيل... أول لوحة، بعدها الثانية، ثم أعادت الكرّة.

«لا أعرف. ربما هذا أسوأ بطريقة ما. إنها أكثر حزناً. هنالك الكثير من الحزن في هذه اللوحات».

«هناك لوحة فيها ابتسام» قال.

كانت هذه القتيلة غوردَرن، في لوحات **المواجهة 2**[1].

«لا أعرف إذا كانت هذه ابتسامة. قد تكون ابتسامة».

«إنها أصفى لوحة في الغرفة. وربما في المتحف كلّه. إنها تبتسم» قال.

التفتت إلى غوردرَن عبر المعرض وشاهدت الرجل الذي على المقعد - نصف التفاتة له - يرتدي بدلة وربطة عنق غير معقودة، بدأ صلعه في عمر مبكر. لمحته فقط. كان ينظر إليها لكنها كانت تنظر وراءه، إلى تمثال غوردرن في سجن كثيف الدخان، تستند إلى الجدار وتبتسم، غالباً، أجل، في اللوحة الوسطى. ثلاث لوحات غوردرَن، لعلها تبتسم، ولعلها لا تبتسم.

«أنت بحاجة إلى تدريب خاص لقراءة هذه اللوحات. لا يمكنك التفريق بين الأشخاص».

«بلى، بإمكانك. أمعن النّظر».

شعرت بتعنيف بسيط في صوتها. ذهبت إلى أبعد جدار لتنظر إلى لوحة تصوّر إحدى الزنزانات، وفيها مكتبة كتب عالية تغطي تقريباً نصف اللوحة وشكل داكن، خال من أيّ شيء ملموس، قد يكون ذلك معطفاً على حامل.

قال: «لعلك طالبة، أو تُعلّمين الفن... بصراحة أنا هنا لتسجية الوقت. هذا ما أفعله بين اجتماعات العمل».

لم تشأ أن تخبره أنها جاءت للمعرض ثلاثة أيام متواصلة. تحركت نحو الجدار المحاذي، أقرب من موقعه على المقعد.

«ستنفقين مبلغاً كبيراً، ما لم تكوني عضواً».

«لست عضواً».

---

1 - وردت هكذا في النص وتدل على اسم مجموعة اللوحات. (المترجمة)

«إذن فأنتِ تُعلّمين الفن».

«أنا لا أُعلم الفن».

«أتريدينني أن ألزم الصّمت؟ انْخَرِس يا بوب. غير أن اسمي ليس بوب».

في البداية، لم تعلم أنّ ما يحمله النّاس على أكتافهم توابيت. استغرقت وقتاً طويلاً لتلاحظ حشد الناس. كان هنالك جمعٌ، معظمه بتمويه رمادي، ويوجد أشخاص في المنتصف ظهورهم للمشاهد. وفي أعلى اللوحة هناك انفصال اللوحة، قطاع باهت من التراب أو الطريق، ثم مجموعة أخرى من الناس أو الأشجار. كما استغرقت وقتاً لتدرك وجود ثلاثة أشياء بيض عند منتصف اللوحة موضوعة على النعوش.

هذه جثامين أبان أندرياس بادر، غوردرَن إنسلن ورجل ثالث لا تتذكر اسمه، أُطلق عليه الرّصاص وهو في زنزانته. كما أُطلق الرّصاص أيضاً على بادر، أما غوردرَن فقد شنقت.

كانت تعرف أنّ هذا حدث قبل عام ونصف العام بعد أولريك. أولريك توفيت في شهر مايو من عام 1976.

دخل المعرض رجلان، يتبعهما امرأة بيدها عصا من الخيزران. وقف ثلاثتهم أمام المادة التوضيحية، يقرؤون.

كان في لوحة النعوش شيء آخر لا يسهل العثور عليه. لم تكتشفه إلّا في اليوم الثاني، أمس، وقد أدهشها عندما اكتشفته، تأكدت منه الآن - شيء في أعلى اللوحة، على يسار المنتصف، شجرة ربما، على شكل صليب.

اقتربت من اللوحة، وهي تسمع السيدة التي معها العصا تتحرك نحو الجدار المعاكس.

كانت تعرف أن هذه اللوحات مستمدّة من صور فوتوغرافية، لكنها لم تشاهدها ولا تعرف إذا كان فيها شجرة بلا أوراق، شجرة ميّتة خلف المقبرة، في إحدى الصور، تتكوّن من ساق طويلة عليها فرع واحد فقط، بل فرعان على شكل أفقي.

كان يقف بجانبها الآن، الرجل الذي كانت تتحدث إليه.

«أخبريني بما تشاهدينه. صدقاً، أريد أن أعرف».

دخلت مجموعة زائرين للمعرض، تقودهم مرشدة، فالتفتت لبرهة، وشاهدت تجمعهم عند اللوحة الأولى في السلسلة، لوحة أولريك، امرأة أصغر بالعمر بكثير، صبيّة فعلاً، شاردة، وحزينة.

«أدركتُ الآن أنّي بالكاد كنت أشاهد في الأيام الثلاثة الأولى. كنت أعتقد أني أعاين لكني كنت بالكاد ألمح ما في هذه اللوحات. بدأت للتوّ بالتدقيق».

وقفا ينظران، معاً، إلى النّعوش والأشجار وحشد الناس. بدأت المرشدة في الحديث إلى المجموعة.

«وما هو شعوركِ وأنتِ تشاهدين اللوخات؟» سألها.

«لا أعرف. إنها معقدة».

«أنا لا أشعر بشيء».

«أظنني أشعر بالعجز. هذه اللوحات تشعرني بالعجز الذي يجب أن يشعر به المرء».

«ألهذا حضرتِ لثلاثة أيام متواصلة؟ لتشعري بالعجز؟» سألها.

«أنا هنا لأني بتّ أحب هذه اللوحات أكثر وأكثر. كنت في البداية متحيّرة، وما زلت قليلاً. لكني أعرف أني أحبها الآن».

كان صليباً. تراءى لها أنّه صليب وجعلها تشعر، محقة أو مخطئة، بوجود عنصر التسامح في اللوحة، أن الرجلين والسيدة إرهابيون، وأولريك إرهابية كذلك، إلا أنّهم يحرمون من الغفران.

لكنها لم تلفِت انتباه الرجل الواقف إلى جانبها للصليب. لم يكن هذا ما تريده، نقاش حول الموضوع. كانت متيقنة من وجود الصّليب الذي كوّنته ضربات فرشاة التلوين، لكنها لم ترغب في سماع شخص يثير شكوكاً برأيها.

ذهبا إلى حانة ليتناولا وجبة خفيفة وجلسا على كرسيين بلا ظهر أو ذراعين حول المحاسب على طول النافذة الأمامية. شاهدت الناس في الحيّ السابع، أشخاصاً يتدافعون، وبالكاد ذاقت ما ابتاعته.

قال لها: «فاتني يوم الافتتاح. في ذلك اليوم ارتفعت الأسهم بشكل خرافي، أربع مئة بالمئة في بضع ساعات. وصلت إلى سوق الأوراق المالية متأخراً، والذي كان متدنياً، الأكثر تدنياً».

يتناول الناس طعامهم وقوفاً، عندما لا يتوفر كرسي لهم. أرادت العودة إلى المنزل وتفحّص رسائل الهاتف المنزليّ.

«أنا أُجري المواعيد الآن. أحلق. أضحك. حياتي جحيم حيّ» قال لها برقة، وهو يتحدث بينما يمضغ طعامه.

لقد شغل مساحة، رجلٌ طويلٌ وعريضٌ فيه شيء من اللامبالاة، شيء مرتجل ومتثاقل. اقترب شخص منها ليأخذ منديلاً من الحافظة. لم تكن تملك أدنى فكرة عما يفعله هنا، وهي تتحدث إلى هذا الرجل.

قال: «لا لون لحياتي. لا معنى لها».

«ما فعلوه كان له معنى. كان خطأً لكنه لم يكن عشوائيّاً وخاوياً. أظن أن هذا هو هدف الرسّام. وكيف آلت الأمور إلى تلك النهاية المأساوية؟ أظن أن هذا تساؤله. كل شخص منهم مات».

قال: «وكيف ستنتهي الأمور بغير الموت؟ قولي الحقيقة. أنتِ تعلّمين ذوي الاحتياجات الخاصة الفن».

لم تعرف إذا كان ذلك ذمّاً أم مدحاً، لكنها وجدت نفسها تقابل النافذة وتبتسم ابتسامة مواربة.

«أنا لا أُعلّم الفن».

«هذا طعام سريع وأنا أحاول تناوله ببطء. لا موعد لديَّ حتى الثالثة والنصف. كُلي ببطء. وأخبريني ماذا تُعَلّمين».

لم تخبره أنها عاطلة عن العمل. لقد سئمت من وصف عملها

الإداريّ، مع ناشر تعليمي، فلماذا تجهد نفسها، فكرت، بما أن الوظيفة والشركة لم يعودا موجودين.

«المشكلة هي، أن تناول الطعام ببطء مغاير لسليقتي. يجب أن أذكّر نفسي بهذا. لكن حتى إذا تأقلمت فلن أتمكن من تغييرها».

لكن ذلك لم يكن السبب. هي لم تخبره أنها كانت بلا عمل لأن ذلك سيجعلها في حال مشترك معه. وهي لا ترغب في هذا. إثارة شفقة متبادلة، مصادفة مبعثرة، لتكن النبرة مبعثرة إذن.

شربت عصير التفاح ونظرت إلى العابرين في الطريق، إلى وجوه تبدو مألوفة لنصف ثانية تقريباً، ثم تنسى إلى الأبد.

قال: «كان علينا الذهاب إلى مطعم حقيقي. الحديث صعب هنا. أنتِ غير مرتاحة».

«لا، لا بأس بهذا المقهى. أنا في عجلة من أمري الآن».

بدا أنه يدرك اضطرارها للمغادرة، لكنه يرفضه، فهو لم يفقد الثقة بنفسه. فكرت بالذهاب إلى دورة المياه ثم عدلت عن رأيها. فكرت بقميص المقتول، قميص أندرياس بادر، أكثر قذارة أو دماً في إحدى اللوحات من اللوحة الأخرى.

«وأنت لديك موعد عند الثالثة» قالت له.

«الثالثة والنصف، لكن لا زال هناك وقت طويل. إنه عالم آخر، حيث أربط ربطة عنقي وأمشي وأخبرهم من أنا». توقف لحظة، ثم نظر إليها. «كان من المفترض أن تقولي: من أنت؟».

تخيّلت نفسها وهي تضحك، لكنها لم تقل شيئاً له. فكرت في أنّ حرق حبل أولريك الذي حول عنقها قد لا يكون حرقاً، بل في الحبل ذاته، هذا إذا كان حبلاً وليس سلكاً أو حزاماً أو شيئاً آخر.

قال: «إن هذه جملتك. من أنت؟ لقد تجهزت لك بشكل جميل وأنت شاردة الذهن. فقدتِ اللحظة المناسبة تماماً».

أنهيا تناول طعامها لكن الأكواب الورقية لم تفرغ بعد. مشيا عبر

الشقق المؤجرة، في جزء من البلدة. لم ترغب في إخباره عن مكان سكنها. كانت تعيش على بعد ثلاثة مربعات سكنية، في منزل تلاشى لون لبناته، أدركت أنّ حياتها تدور في محيط منزلها. وأنها تريد شيئاً غير شكاوى الأيام العادية.

كانا يتحدثان عن أماكن قيادة الدراجة، عندما أخبرها عن مكان سكنه وعن الطريق الذي يهرول فيه، أما هي فأخبرته أن دراجتها قد سرقت من مرآب مسكنها، وعندما سألها أين تسكن، أجابته بشيء من اللامبالاة، وهي تشرب المشروب الغازي المخصص للريجيم وتنظر إلى النافذة، أو فيها، ربما، إلى انعكاسها الخفيف في الزجاج.

عندما خرجت من دورة المياه، كان يقف عند نافذة المطبخ كما لو كان ينتظر تجسّد مشهد ما في الواقع. لم يكن هناك شيء في الخارج عدا لبنات الطّوب الحجريّ والزجاج، والواجهة الخلفية لمبنى صناعي في الشارع التالي.

كانت شقة استديو، والمطبخ معزول بجدار جزئي والسرير في زاوية الغرفة، صغير، دون أعمدة أو لوح الرأس، مغطى بملاءة ذات لون زاهٍ، اللون الوحيد المختلف قليلاً في الغرفة.

عرفت أن عليها تقديم الشّراب له. شعرت بالغرابة، فهي ليست ماهرة في شؤون الضّيافة، عند قدوم ضيوف غير متوقعين. أين تجلس، وماذا تقول، كان عليها التفكير بهذه المسائل. لم تذكر له النبيذ الذي تحتفظ به في البرّاد.

«منذ متى تعيشين هنا؟».

أجابته: «منذ أربعة أشهر فقط. كنت أنتقل كثيراً. أسكن مع الرّفيقات فترات قصيرة دائماً، منذ فشل زواجي».

«زواج».

قال في نبرة تخالف نبرة الصوت التي استخدم فيها كلمة (الدولة) مسبقاً.

«أنا لم أتزوج قط. هل تصدقين هذا؟ أغلب أصدقائي الذين في عمري... كلهم في الواقع... متزوجون. أطفال. طلاق. أطفال. هل تريدين أطفالاً يوماً ما؟».

«متى يعني يوماً ما؟ أجل، أظن ذلك».

«أنا أفكر في الأطفال مما يجعلني أنانيّاً، أنا متحفظ بشأن تكوين أسرة... لا أكترث إذا كانت لديَّ وظيفة أم لا. سيكون لديَّ عمل في القريب العاجل، وظيفة جيدة. هذه ليست المسألة. أنا أهاب تنشِئَتهم، تحديداً، بشر في منتهى الصّغر والرقة».

شربا ماءً كربونيّاً أضيفت له شرائح الليمون، جلسا قطريّاً عند الطاولة الخشبية المنخفضة، طاولة القهوة حيث تتناول طعامها. لقد فاجأها الحوار قليلاً. لم يكن صعباً، حتى عند السكوت، لم تكن السّكتات محرجة وبدا صادقاً في ملاحظاته.

رنّ هاتفه المحمول، نبش جيبه وأخرجه ثم تحدث بإيجاز، جلس بعدها ممسكاً بالهاتف، وغارقاً في تفكيره.

«يجب أن أتذكر إغلاقه. عندما أفكر في الموضوع، ماذا سأخسر لو أغلقته؟ ماذا سيفوتني؟ معجزة ما؟».

«المكالمة التي تغير كل شيء».

«شيء لا يصدق. كيف لمكالمة واحدة أن تقلب الحياة رأساً على عقب. ولهذا أحترم هاتفي المحمول».

أرادت أن تنظر إلى الساعة.

«لم تكن مكالمة عن مقابلة عمل، أليس كذلك؟ أأُلغيت؟».

قال إنّها لم تكن عن المقابلة، فاختلست النظر إلى الساعة التي على الجدار. تساءلت عما إذا كانت تريده أن يفوّت المقابلة. لم يكن هذا ما تريده.

قال لها: «لعلكِ مثلي. يجب أن تجدي نفسك على شفا حفرة من أمر ما، قبل أن تعدّي العدّة لها. عندها تصبحين جادة في الموضوع».

«هل نتحدث عن الأُبوّة؟».

قال: «في الحقيقة، لقد ألغيت المقابلة بنفسي. عندما كنتِ في الداخل» وهو يشير إلى دورة المياه.

شعرَت بذعر غريب. لقد أنهى شرب مائه المُكَربَن، رفع رأسه للخلف حتى انزلق مكعب ثلج إلى فمه. جلسا شيئاً من الوقت، حتى ذابت قطعة الثلج، ثم نظر مباشرة نحوها، لمس بإصبعه إحدى نهايتي ربطة عنقه.

«أخبريني بما تريدينه».

جلست هناك.

«لأني أشعر بأنك غير مستعدة وأنا لا أريد فعل شيء على عجل، ولكن تعرفين، نحن هنا».

لم تنظر إليه.

«أنا لست أحد أولئك الرجال المتحكمين. لا أرغب في التحكم بأيّ امرأة. أخبريني بما تريدين».

«لا شيء».

قال: «حوار، حديث، غرام، أيّ شيء... هذه ليست لحظة عظيمة في العالم. ستمر مرور الكرام. لكننا هنا، إذن».

«أريدك أن ترحل، رجاء».

استهجن ثم قال: «أياً كانت رغبتك».

قال لها: «أخبريني بما تريدين»، فأجابته: «أريدك أن ترحل».

جلس في مكانه بلا حراك. قال لها: «لقد ألغيت المقابلة لسبب، ولا أظن أن هذا هو السبب، هذه المحادثة تحديداً. أنا أنظر إليك، وأقول لنفسي، أنت تعرف حالها؟ إنها أشبه بامرأة تتعافى بعد صدمة».

«أنا على استعداد لتحمل الخطأ».

قال: «أعني، نحن هنا. كيف حدث هذا؟ ما من خطأ. لنكن صديقين».

«أظن أن علينا التوقف عند هذا الحد الآن».

«التوقف عن ماذا؟ ما الذي نفعله؟».

كان يحاول التّحدث بصوت رقيق، ليخفف من غضبه.

«إنها امرأة تتعافى. حتى في المتحف، هذا ما فكرتُ به. حسناً. لكننا الآن هنا طوال هذا النّهار، مهما كان حديثنا أو ما نفعله، وقت عابر».

«لا أريد لهذا أن يستمر».

«لنكن صديقين».

«هذا ليس صواباً».

«بلى، لنكن صديقين».

صوته كان يحمل حميمية زائفة بدت كتهديد. لم تكن تعرف سبب وجودها حتى الآن معه. مال عليها، ثم وضع يده على ساعدها.

«أنا لا أحاول التحكم بالناس. هذا ليس من طباعي».

وقفت محاولة الابتعاد، عندها أحاط بها من كل الجهات، أدارت رأسها نحو كتفها. لم يبذل جهداً أو يحاول لمسها بل مسكها في نوع من الاحتواء الحر. بدا وأنها قد اختفت للحظة، مستديرة الرأس وثابتة، بلا أنفاس كاختفاء، ثم تراجع مبتعداً عنها. سمح لها بفعل ذلك ونظر إليها بشكل مركز، بتأثير كبير، حتى إنها بالكاد تعرفت عليه. كان يرعبها، يمسّها بطريقة مخيفة ومدمرة.

«لنكن صديقين».

هزّت رأسها رفضاً، في محاولة لتكذيب هذه اللحظة. سوء تفاهم. نظر إليها. كانت تقف قرب السرير وكانت هذه هي المعلومة التي تضمنتها نظرته تحديداً، هذان الشيئان، هي وهو والسرير. استهجن كما لو أنه يقول: هذا صواب. ما فائدة البقاء هنا إذا لم نفعل ما نحن هنا لفعله؟ ثم خلع سترته، لحظات سريعة بدا وأنّ قميصه المجعّد قد غلّف

الغرفة. كان أضخم حجماً مما اعتقدت، متعرقاً، مجهولاً تماماً بالنسبة لها. حمل السترة بذراعه الممدودة.

قال لها: «شاهدي السهولة. جاء دورك. ابدئي بالحذاءين... الأول، ثم الآخر».

توجّهت نحو دورة المياه. لم تعرف ما عليها فعله. مشت على امتداد الحائط، مُطأطِئة الرأس، امرأة تمشي على غير هدى، ثم دخلت دورة المياه. أغلقت الباب لكنها خشيت إقفاله، لئلا يستشيط غضباً، فيفعل ما لا تحمد عقباه كتحطيم شيء أو أسوأ من ذلك. لم تقفل ترباس الباب. كانت قد قررت عدم فعل هذا إلا إذا سمعته يقترب من دورة المياه. لم يتحرك، كانت أكيدة، شبه أكيدة من أنه كان يقف قرب طاولة القهوة.

قالت له: «غادِر رجاء».

صوتها غير طبيعي، حادّ ومنخفض حتى إنه أفزعها أكثر مما أفزعه، ثم سمعته يتحرك. بدا متروياً شيئاً ما. كان يمشي بخطى صغيرة، تقريباً، مروراً بالبرّاد، حيث اهتز الغطاء قليلاً، وباتجاه السرير.

«عليك المغادرة» قالت له بصوت أعلى الآن.

كان جالساً على السرير، يفك حزامه. هذا ما اعتقدت سماعه، طرف حزام ينزلق من الإبزيم ثم صوت نقرة. سمعت صوت فتح زمام بنطاله.

وقفت عند باب دورة المياه. سمعت أنفاسه بعد فترة، صوت مُجهَد، أنْفيّ وإيقاعيّ. وقفت هناك وانتظرت، مُطأطِئة الرأس، جسدها على الباب. لم يكن هناك ما تفعله سوى الإصغاء.

عندما انتهى، كان هناك صمت طويل، ثم بعض الهسهسة والتعبير. اعتقدت أنه يرتدي سترته. اقترب منها الآن. أدركت أنه كان من الممكن أن تغلق الباب في وقت أبكر، عندما كان على السربر. وقفت هناك وانتظرت. شعرت أنه يميل على الباب، ثقل جسده، على بعد إنش واحد منها، ليس مندفعاً بل مرتخياً. قفلت الباب، بهدوء. كان هناك، يتنفس بعمق عند الباب.

قال: «سامحيني».

بالكاد سمعته، كأنّه آهة. وقفت هناك، وانتظرت.

قال: «أنا آسف. رجاء. لا أعرف ما يمكن قوله».

انتظرت مغادرته، سمعته يعبر الغرفة ويغلق الباب خلفه- أخيراً - انتظرت دقيقة كاملة، ثم خرجت من دورة المياه وأغلقت باب الشقة.

لقد شاهدت كل شيء مرتين الآن. كانت حيث تريد أن تكون؛ وحيدة، لكن لم يعد شيء على حاله. إنّه وغد. كان لكل شيء في الغرفة الآن تأثير مزدوج: الغرفة سابقاً، والرّبط الذهني به. خرجت للمشي، وعندما عادت كان الارتباط به لا يزال موجوداً، على طاولة القهوة، على السرير، في دورة المياه. وغْدٌ. تناولت طعام العشاء في مطعم قريب وخلدت إلى النوم باكراً.

***

عندما عادت إلى المعرض في الصباح التالي كان يجلس وحيداً على المقعد وسط القاعة، وظهره إلى المدخل، وكان ينظر إلى اللوحة الأخيرة في المجموعة، أكبر اللوحات حتى الآن ولعلها أكثرها سلباً للألباب، تلك التي فيها النّعوش والصّليب، اسمها الجنازة.

مُنْتَصَفُ اللّيْلِ في دوستويفسْكي

كنّا شابين بائسين محدودبي الظهر في معطفينا. حولنا شتاء كئيب. كانت الجامعة على أطراف بلدة صغيرة ريفية، بالكاد يطلق عليها قرية، لعلها ضيعة قلنا، أو مجرد محطة توقف للقطار، وكنّا دائمي المشي، نخرج، ونذهب إلى اللامكان، غيوم منخفضة وأشجار عارية، تصعب مشاهدة أيّ روح. هكذا كنا نتحدث عن النّاس المحليين: كانوا أرواحاً، كانوا أرواحاً زائلة، وجه في نافذة سيارة عابرة، أكثر انسيابية بضوء منعكس، أو شارع طويل فيه مجرف بارز من المنحدر الثلجي، لا أحد على مدّ البصر.

كنا نمشي بمحاذاة السّكة الحديدية عندما اقترب قطار حمولة قديم فتوقفنا وشاهدناه. بدا أنّ تاريخاً قد مرَّ ولم يلحظه أحد غالباً غيرنا، محرك ديزل يجر مئة عربة نقل إلى ريف بعيد. تشاركنا لحظة إجلال لم نفصح عنها – تود وأنا – لأوقات مضت، حدود اختفت، ثم تابعنا المسير، ونحن نتحدث عن القليل المفيد. سمعنا صوت صفّارة القطار مع اختفائه وقت الغروب.

في هذا اليوم شاهدنا رجلاً يرتدي معطفاً بقبعة. تجادلنا عن معطفه: معطف من قماش مقاوم للماء، تتصل به قلنسوة، كقبعات القطب الشمالي. من عادتنا إيجاد مواضيع لنتجادل حولها.

لأجل هذا وُلِد الرّجل، لينتهي به الأمر في هذه البلدة وهو يرتدي معطفاً. كان متقدماً علينا في خطواته ويمشي ببطء، يداه خلف ظهره، شخص صغير ينعطف الآن ليدخل شارعاً سكنياً ويتلاشى من المشهد.

«معطف واقٍ بلا قبعة. القبعة ليست جزءاً من المعطف. إنه واقٍ من الماء أو مخصص للقطب الشمالي» قال تود.

«هناك أخرى. هناك معاطف أخرى دائماً».

«اذكر اسم أحدها».

«معطف من النّسيج الصوفي».

«حقيبة من النّسيج الصوفي».

«هناك معطف من النّسيج الصوفي».

«هل تتضمن الكلمة (قبعة)؟».

«إن الكلمة تشمل المثبّتات المعدنية التي في المعطف».

«المعطف والقبعة. لا نعرف إذا كان في المعطف مثبّتات معدنية».

قلت: «لا يهم، لأنّ الرجل كان يرتدي معطفاً للقطب الشمالي».

«(أنوراك) كلمة من لغة شعب الإسكيمو».

«وماذا في ذلك؟».

«أنا أقول إنّ اسم المعطف أنوراك»، قال لي.

حاولتُ اختراع اشتقاق لكلمة (باركا) لكنْ لم أفكر بسرعة كافية. كان تود يناقش موضوعاً آخر - قطار الشحن، وقوانين التّنقل، تأثيرات القوة، التسلل، إلى سؤال عن عدد العربات المسحوبة في القاطرة. لم نذكر من قبل أنّ أرشيف المصروفات سيؤخذ، لكن كل منا كان يعلم أن الآخر سيحصي، حتى لو كنّا نتحدث عن أشياء أخرى. عندما أخبرته عن رقمي، لم يجب، وكنت أعلم ما يعنيه ذلك. كان يعني أنه قد وصل إلى الرقم ذاته. لم يكن من المفترض حدوث هذا - لقد أقلقنا، جعل العالم رتيباً - ومشينا لبعض الوقت بصمت مزعج. حتى في مسائل الحقيقة الفيزيائية النّقية، اعتمدنا على احتكاك بين قدراتنا الأساسية للشعور، قدرتي وقدرته، وفهمنا الآن أن بقية المساء سنقضيها في إيجاد الفوارق.

رجعنا إلى المحاضرة المتأخرة من ذلك النّهار.

«(أنوراك) كلمة دقيقة. والمعطف بدا دقيق الصّنع، و (الأنوراك)

له قبعة من الفرو. تفكّر في أصل الكلمة. أنت من جاء بلغة شعب الإسكيمو. ألن يستخدم شعب الإسكيمو الفرو ليكسوا به قبعاتهم؟ إن لديهم دبباً قطبيّة. لديهم حيوان الفَظ. إنهم بحاجة إلى المعاطف ليزيدوا حجم أجسادهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم».

أجابني قائلاً: «لقد شاهدنا الرجل من ظهره. فكيف عرفت نوع القبعة؟ من الخلف ومن بعيد؟».

أفكّر في أصل كلمة أنوراك. كنت أستخدم معرفته بالإسكيمو ضده، لأجبره على الإجابة بمنطق، علامة نادرة على ضعف موقفه. كان تود مُفكّراً ضليعاً وكان يحب إيجاد الحقيقة أو الفكرة للمرحلة السابعة من التعليلات. كان طويل القامة، ونحيلاً، بُنيته لا تناسب مفاصله. قال شخص ما إنه يشبه صغير طيور اللّقلق، وآخرون شبّهوه بالنعامة. بدا أنه لا يستمتع بتذوّق الطّعام، كان يستهلكه، يمتصه، مسألة هضم لما أصله حيواني أو نباتي. كان يتكلم عن المسافات بالأمتار والكيلومترات وقد احتجت إلى وقت لأفهم أن ذلك لم يكن شغفاً بقدر حاجته لتحويل وحدات القياس مباشرة تقريباً. كان يحب اختبار نفسه فيما يعرفه. كما يحب التّوقف عن المشي ليؤكد على موضوع ما بينما أواصل أنا المسير. هذه قاعدة ثابتة بالنسبة لي؛ أن أجعله يقف هناك متحدثاً إلى شجرة. وكلما زادت ضحالة نقاشاتنا، صرنا أكثر انفعالاً.

أردت استمرار إمساكي بزمام الأمور، بقائي متحكماً، هل كان ما أقوله مهمّاً؟

حتى من بعيد بدت القبعة صغيرة جدّاً لتكون مكسوة بالفراء. كانت القبعة مرنة قلت له: «ستكون (الأنوراك) الحقيقية بحجم يكفي قبعة صوفية تحتها. أليس هذا ما يفعله شعب الإسكيمو؟».

ظهر الحرم الجامعي على مقربة من صف أشجار طويلة على الجانب الآخر من الطريق. كنّا نعيش في سلسلة من المنازل المكتفية بالطاقة بألواح شمسية، والمكسوة بالنباتات وجدران الأرز الأحمر. تقام

المحاضرات في المباني الرئيسة، وحدات من الإسمنت هائلة الحجم تعرف لدى الجميع بالزنازين، بدا ركوب الدراجة أو المشي بعيداً عن المخادع ومجموعات الطلبة في موجات مزدحمة، جزءاً من معمار هذا المكان. كانت هذه سنَتي الأولى هنا وكنت لا أزال أحاول ترجمة العلامات والتأقلم مع الأنماط.

قلت له: «لديهم مقهى كاريبو يوفّر اللحم المختوم والثّلج».

اهجر المعنى لتفتك بالمشاعر أحياناً. لتكن الكلمات هي الحقائق. كانت هذه طبيعة أحاديثنا - أن نُسجّل ما يحدث في الخارج، كل الإيقاعات المُبعثرة للظروف والأحداث، ونعيد تكوينها كضوضاء بشريّة.

كان درس المنطق، في قاعة 2، جلس ثلاثة عشر طالباً على جانبي طاولة طويلة، وأستاذنا إلغوسكاس على رأسها. رجل سمين، في أواخر الأربعينيات، ضايقنا اليوم بسعاله المتكرر. كان يتحدث واقفاً، مال قليلاً، يداه على الطاولة، ويحدق عادة لفترة طويلة في الجدار الخالي في نهاية القاعة.

«العلاقَة المُعتادة» قال لنا وهو يحدّق في الجدار.

حدّقَ، نظَرْنا. تبادلنا النظرات عدة مرات، من جانب الطاولة إلى الجانب الآخر. كان يذهلنا. بدا رجلاً في غيبوبة، لكنّه لم يَغِب عن ملاحظاته، صوت آخر مستنفد له صدى في آخر نفق من سنوات التعليم. قرّرنا - بعضنا - أنه يعاني من حالة عصابية. لم يكن مملّاً، بل متخلخلاً، يتحدث بحرية وعصبية تعبيراً عن بصيرة ثاقبة. كانت مسألة كيمياء عصبية. كنّا قد قرّرنا أن حالته غير مفهومة بشكل كافٍ لنمنحها اسماً، وإذا لم يكن لها اسم، قلنا، نعيد صياغة المسألة بالمنطق، وعلى ذلك يستحيل علاجها.

«الحقيقة الذريّة» قال.

ثم أسهب في الحديث لعشر دقائق ونحن نصغي، ونتبادل النظرات، ونلاحظ، ونقلب الكتب بحثاً عن ملاذ في صورة ما توضّح لنا معنى ما يقوله. لم تستخدم الحواسيب الشخصيّة أو الأجهزة المحمولة أثناء المحاضرة. إلغوسكاس لم يمنعها، نحن من منعها- نوعاً ما - دون أن نتفق علناً. بعضنا لم يستطع إكمال فكرة دون أن يلمس الألواح الإلكترونية أو يضغط على الأزرار، لكننا فهمنا أن أنظمة البيانات فائقة السرعة لا تنتمي إلى هذا المكان. كانت اعتداء على البيئة التي يحكمها طول، وعرض، وعمق، وزمن، وتحصيها نبضات القلب. جلسنا وأصغينا أو جلسنا وانتظرنا. كتَبنا بالرّصاص أو الحبر. دفاتر الملاحظات فيها صفحات مصنوعة من الأوراق المرنة.

حاولت تبادلت النظراتِ مع فتاة عبر الطاولة. هذه هي المرة التي نتقابل فيها وجهاً لوجه لكنّها أبْقت نظرها على ملاحظاتها، ويديها، وربما حبيبات الخشب على امتداد حافة الطاولة. قلتُ لنفسي إنّها لا تتجنبني بعينيها بل كانت تتجنب إلغوسكاس.

قال: FF وليس F

جعلها تخجل، التأثير الفظ لرجلٍ، ضخم البنية، غليظ الصوت، سعاله متفرق، حتى البدلة القديمة القاتمةَ التي كان يرتديها، غير مكوية، في كل درس، شعر صدره مجعد خارج ياقة قميصه المفتوح. كان يستعمل مصطلحات ألمانية ولاتينية دون أن يوضّح معناها. حاولت تخيّل نفسي في مدى نظر الفتاة، أُصدر إزعاجاً وأنظر للأعلى. أصغينا بجدّ، جميعنا، على أمل أن نفهم ونتجاوز الحاجة للفهم.

كان يسعل أحياناً في يده، وأحياناً على الطاولة. تخيلنا كائنات مجهرية ودقيقة هائلة العدد على سطح الطاولة وتتحرك في المساحة التي نتنفسها. أولئك الجالسون بجانبه تفادوه بفزع، بابتسامة نصف اعتذارية. ارتعش كتفا الفتاة الخجولة، رغم أنها كانت تجلس بعيدة عن الرجل. لم نتوقع اعتذار إلغوسكاس. نحن الملامون، لوجودنا في القاعة شاهدين

على سعاله، أو لعدم تأقلمنا مع تصاعده الزّلزالي، أو لأسباب أخرى لم نعرفها بعد.

«هل لنا أن نطرح هذا السؤال؟»، قال.

ترقبنا السؤال. تساءلنا عمّا إذا كان السؤال الذي طرحه كان هو السؤال الذي نترقب أن يطرحه. أي، هل له أن يسأل السّؤال الذي سأله؟ لم تكن خدعة، ولا لعبة، ولا أحجية منطقية. وإلغوسكاس لا يفعل ذلك. جلسنا وترقبنا. حدّق في الجدار البعيد في نهاية القاعة.

كان في الخروج في هذا الطقس شعور جيد، لسعة شتوية تنذر بثلج قريب. كنت أمشي في شارع المنازل القديمة، بعضها في حاجة ماسّة للإصلاح، حزين ووسيم، نافذة هنا، رواق منحنٍ هناك، عندما انعطف في الزاوية جاء باتّجاهي فوراً، جثَم قليلاً، المعطف ذاته، كاد وجهه أن يضيع داخل القبعة. كان يمشي ببطء، كما قبل، يداه خلف ظهره، كما قبل. بدا أنه قد توقف عندما رآني، بشكل غير ملحوظ تقريباً، رأسه منخفض الآن، والدّرب ليس مستوياً.

لم يكن هناك أحد على الطريق. وعند اقترابنا من بعضنا، غيّر مساره مبتعداً، كذلك فعلتُ، مبتعداً عنه قليلاً، لأطمئنه، لكنّي اختلست النظر إليه. كان الوجه الذي داخل القبعة غير حليق - شيخ بشعر رمادي، قلتُ لنفسي، أنف كبير، عينان على مسار المشي لكنّهما تلحظان وجودي أيضاً. بعد أن مررنا ببعضنا انتظرت لحظة ثم التفت وشاهدته. لم يكن يرتدي قفازين وبدا هذا ملائماً، لا أعرف السبب، بلا قفّازين، رغم البرودة القارسة.

بعد ساعة، كنتُ جزءاً من حركة الطلاب الغفيرة المتعاكسة الاتجاهات، في رياح ثلجية، صفّان متوازيان تقريباً يتحركان من الحرم الجامعي القديم إلى الجديد والعكس، وجوه ترتدي أقنعة التزلج، وأجساد تضربها الرياح أو تدفعها. شاهدت تود، مشى طويلاً بتركيز. كانت هذه طريقتنا الأساسية في تبادل التحية أو الموافقة - أشرنا. صرختُ عند مروره إلى جانبي.

«شاهدته مجدداً. المعطف ذاته. القبعة ذاتها. شارع مختلف».

أومأ برأسه وبعد أسبوعين كنا نمشي في الأجزاء الحدودية من البلدة. أشرتُ إلى شجرتين ضخمتين، عاريتي الأغصان متشعبتي ومرتفعتي الأغصان للأعلى بارتفاع خمسين أو ستين قدماً.

«قيقب نرويجي» قلت.

لم يقلِ شيئاً؛ لم تعنِ الأشجار، أو الطيور، أو فرق البيسبول له شيئاً. كان مهتمّاً بالموسيقى الكلاسيكية، وتاريخ الرياضيات، ومئات الأشياء الأخرى. كنت أعرف الأشجار من المخيّم الصيفي، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كنت أكيداً من أنها قيْقب، أمّا النّرويج فمسألة أخرى. كان بإمكاني أن أقول قيْقباً أحمر أو قيْقب سكّر لكن نرويجي، بدا أنّه أعمق أثراً، وأكثر علماً.

كلانا كان يعرف لعب الشطرنج، وكلانا كان مؤمناً بالرب.

كانت المنازل مطلة على الشارع. شاهدنا امرأة في منتصف عمرها تخرج من سيارتها وتخرج عربة الطفل من المقعد الخلفي وتطويها، ثم أخذت أربعة أكياس بقالة من السيارة، واحداً في كل مرة، ووضعت كل واحد منها في العربة. كنا نتحدث ونشاهد. كنا نتحدث عن الآفات والأسقام والأوبئة، لكننا كنا نشاهد السيدة. أغلقت باب السيارة وسحبت العربة للخلف على الثلج إلى الممشى ثم إلى العتبات المرتفعة إلى رواقها.

«ما اسمها؟».

«إيزابيل» قلتُ له.

«كن جادّاً. نحن شخصان جادّان. ما اسمها؟».

«حسناً، ما اسمها؟».

«اسمها هو ماري فرانسيس. اسمعني» ثم همس قائلاً:

«ما-ري فران-سيس. وليس فقط ماري».

«حسناً ربما».

«ومن أيّ جحيم جئتَ بإيزابيل؟».

بان التّهكم عليه، وهو يضع يداً على كتفي.

«لا أعرف. إيزابيل هي أختها. إنهما توأم متطابق. إيزابيل تعاقر الخمر، لكنك تفرّط بالأسئلة الأساسية».

«لا، لست أفرط فيها. أين الطفل الذي يكون في العربة؟ طفل من هو؟» سألته. «ما اسم الطفل؟».

نظرنا إلى الشارع المؤدي إلى البلدة وسمعنا صوت طائرة من القاعدة العسكرية. التفت ونظرت إلى الأعلى وكانت هناك ثم اختفت، ثلاث طائرات حربية تتجه إلى الغرب، ثم شاهدت الرجل ذا القبعة على بعد مئة ياردة، وهو قادم من الشارع المرتفع، قادم باتجاهنا.

قلت: «لا تنظر إليه الآن».

التفت تود وشاهد. حادثته ونحن نجتاز الشارع لنجعل مسافة بينا وبين الرجل. شاهدنا من ممرّ السيارات، يقف تحت اللوح الخشبي للطقس والمؤطر بسرعة إلى حافة الرافعة فوق باب المرآب. مرّت شاحنة بالقرب ووقف الرجل هنيهة، ثم أكمل المسير.

«شاهد المعطف. إنّه بدون مثبت معدني» قلت.

«لأنه أنوراك»[1].

«إنه باركا[2] - إنه باركا دائماً، يصعب التأكد من موقعنا لكنّي أظنه قد حلق ذقنه، أو لعل شخصاً قد حلق له ذقنه. أيّاً كان من يعيش معه... ابن أو ابنة، أو أحفاد».

كان الرجل المسن يقطع الشارع الآن. يتحرك بحذر ليتجنب تمدد الثلج غير المجروف.

«إنه ليس من هنا» قال تود. «إنه من مكان آخر في أوروبا. جاؤوا به

1- أنوراك: معطف واقٍ من الفرو بقلنسوة مثبتة. (المترجمة)

2- باركا: سترة فرائية تلبس في القطب الشمالي. (المترجمة)

إلى هنا. لم يعد بإمكانه الاعتناء بنفسه. توفيت زوجته. أرادا البقاء حيث كانا، العجوز والشيخ، لكنها توفيت».

كان تود يتحدث عن بعد؛ يراقب الرجل ولكن يتكلم من خلاله، في محاولة ليعثر على ظل الرجل في مكان آخر في العالم. لم يشاهدنا الرجل، كنت واثقاً من ذلك. اقترب من الزاوية، إحدى يديه خلف ظهره، والأخرى يقوم بها بإشارات تخاطب، ثم انعطف إلى الشارع المحاذي واختفى.

«هل شاهدت حذاءيه؟».

«كانا حذاءي مطر».

«كانا حذاءين بمستوى كاحله».

«حذاءين عاليين».

«قديم الطراز».

«دون قفازين».

«سترة إلى أسفل الركبتين. ربما ليست ملكه».

«حصل عليها أو ورثها».

«فكّر بالقبعة التي كان يرتديها إذا كان يرتدي واحدة» قلت.

«إنه لا يرتدي قبعة، لكن لو كان يرتدي قبعة، فما نوعها؟».

«كان يرتدي قلنسوة».

«لكن ما نوع القبعة، لو كان يرتدي قبعة؟».

«كان يرتدي قلنسوة» قال تود.

مشينا إلى الزاوية وبدأنا عبور الشارع. تحدّث تود قبلي بثانية.

«هناك نوع واحد من القبعات التي يمكن ارتداؤها. ربما قبعة فيها زوائد تغطي الأذنين، وتمتد من إحدى الأذنين مروراً بالقفا إلى الأذن الأخرى. قبعة قديمة متّسخة. قبعة باهتة وفيها زوائد تغطي الأذنين».

لم أقل شيئاً. ما كان لديَّ جواب.

اختفى أثر الرّجل في الشارع الذي دخله. ولبضع ثوانٍ أحاطت

بالمشهد هالة من الغموض، لكن الاختفاء كان يعني ببساطة أنه كان يعيش في أحد تلك المنازل على الشارع. هل من المهم تحديد أي منزل هو منزله؟ لم أجد ذلك مهمّاً لكن تود اعترض. كان يريد منزلاً يطابق شخصية الرجل.

مشى ببطء في منتصف الشارع، على بعد ستّ أقدام من كلا الجانبين، باستخدام مسارات سيارة الحفر في الثلج لجعل المسير أسهل. خلع قفازاً ومدّ ذراعه، الأصابع مفتوحة.

«أشعر بالهواء. أنا أقول إنه تسع درجات سيليزية تحت الصفر».

«نحن لا نستخدم السيليزية».

«لكنه يستخدم، في بلاده، إنها سيليزية».

«من أين هو؟ بشرته ليست شديدة البياض. إنه ليس اسكندنافيّاً».

«ليس هولنديّاً أو أيرلنديّاً».

تساءلت عمّا إذا كان أندلُسيّاً. أين كانت الأندلس تحديداً؟ لا أعرف، أو أوزبكيّاً، أو كازاخستانيّاً، لكن بدا أن هذه الاحتمالات عبثية.

«من أوروبا الوسطى» ثم أضاف تود قائلاً: «من أوروبا الشرقية».

أشار إلى منزل بإطار فضي، منزل عادي بطابقين، مسقّف وبلا أيّ علامة من العلامات التي ميّزت المنازل في أيّ مكان خارج البلدة.

«لعلّك محق. وتسمح له أسرته بالمشي بين الحين والآخر، على أن يبقى في نطاق قريب منهم».

«البرد لا يزعجه كثيراً».

«إنه معتاد على الأبرد».

«يشعر بقليل من البرد في أطرافه» قلت.

لم تكن هناك أكاليل عيد الميلاد أمام الباب الأمامي، لا إضاءة ملونة. لم أشاهد شيئاً قد يدل على ساكني هذا المنزل: خلفيّتهم الاجتماعية،

أو لغتهم. اقتربنا من نهاية الشارع عند مجموعة أخشاب، انعطفنا وعدنا أدراجنا.

كان لدينا درس بعد ساعة ونصف وأردت زيادة سرعتنا. لا زال تود ينظر إلى المنازل. فكرت بدول البلطيق ودول البلقان، احترت في التفريق بينهما - أيهما كان هذه وأيهما كان تلك.

تحدثت قبله.

«أنا أراه كشخص هارب من حرب في التّسعينيات. كرواتيا، الصرب، البوسنة، أو كشخص لم يغادر بلده إلّا في الآونة الأخيرة».

«أنا لا أشعر أن كلامك صحيح» قال لي.

«أو هو يوناني واسمه سبيروس».

«أتمنى لك موتاً بلا ألم» قال، دون أن يزعج نفسه بالنظر بعيداً.

«أسماء ألمانية. أسماء بنقطتيْن على حرف العلّة».

ليس في جملتها الأخيرة هذه إلا قيمة مزعجة. كنتُ أعرف ذلك. حاول المشي بخطى أسرع لكنه توقف للحظة، واقفاً لينظر إلى المنزل الرمادي.

«خلال بضع ساعات، فكر بذلك، سينتهي العشاء، سيشاهد الآخرون التلفاز، وسيكون في غرفته جالساً على حافة السرير الضيّق، محدّقاً إلى الفراغ».

تساءلت عمّا إذا كان فراغاً يتوقع تود منا أن نملأه.

انتظرنا عبر فترات صمت طويلة ثم أومأ عندما سعل، في موافقة جماعية. لقد سعل مرتين حتى الآن. كانت هناك ضمادة مجعدة على ذقنه. إنه يحْلِقه الآن، يجرح نفسه ويقول تبّاً، ثم يميل على المرآة، يرى نفسه بوضوح لأول مرة منذ سنوات.

إلغوسكاس، إنه يفكر.

لم نجلس أبداً على المقعد ذاته مرتين. فصلاً دراسيّاً بعد فصل

دراسي. لا نعلم كيف بدأ ذلك. أحدنا، في روح من الشغب المرتجل، ربما قرر نشر شائعة أن إلغوسكاس يفضل هذه الطريقة. في الحقيقة، للفكرة ضرورة. لم يكن يرغب في معرفة مكان كل شخص. كنّا عابري سبيل بالنسبة له، وجوه ملوثة، كحيوانات صدمتها مركبات في الشارع وماتت. اعتقدنا أنّ هذا جانب من جوانب من حالته العصابيّة. يعامل الآخرين وكأنهم قابلين للإزاحة، وبدا هذا مثيراً للاهتمام، بدا جزءاً من المقرر الدراسي، قابلين للإزاحة، إحدى وظائف الحقيقة للبشر التي كان يشير إليها من آنٍ لآخر.

لكننا كنا نتهك المعاهدة - الفتاة الخجولة وأنا - جلسنا وجهاً لوجه مرة أخرى. حدث هذا لأني دخلت إلى القاعة بعدها وارتميت ببساطة على الكرسي الفارغ أمامها مباشرة. كانت تعرف أنّي هناك، كانت تعرف أنّي الفتى الفاغر الفم ذاته، الذي يتوق للتّواصل عبر العين.

«تخيل سطحاً بلا أيّ لون على الإطلاق» قال.

جلسنا هناك وتخيلنا. مرّر يده على شعره القاتم، كتلة شعثاء تحرّكت في عدة اتجاهات. لم يجلب كتبه للفصل، ولا دليلاً على أيّ كتاب أو مجموعة ملاحظات، وخطاباته المتاقلة جعلتنا نشعر بأننا نصبح كما يرانا أمامه، كينونة بلا ملامح. كنّا بلا هُويّة بشكل أساسي. كان من الممكن أن يتحدث عن السّجناء السّياسيين في الثّياب البرتقالية. أعجبنا ذلك. كنّا في الزنزانات. مال إلغوسكاس على الطاولة، وعيناه تسبحان في حياة كيميائية عصبية. نظر إلى الجدار، تحدّث مع الجدار.

«ينتهي المنطق بانتهاء العالم» قال.

العالَم، صحيح. لكن بدا أنه يتحدث وقفاه للعالم. ومن جديد لم يكن الموضوع تاريخياً أو جغرافياً. كان يعلمنا عن مبادئ الأصل. أصغينا باهتمام شديد. ملاحظة ذابت في الملاحظة التي تلتها. كان فناناً، فناناً تجريديّاً. لقد سأل سلسلة من التساؤلات وأجبنا بملاحظات جادة. كانت الأسئلة التي يسألها لا يمكن الإجابة عنها - على الأقل بالنسبة لنا

- ولم يكن يتوقع إجابات بأيّ حال. لم نتحدث في الفصل، لم يتحدث أيّ شخص قط. لم تكن هناك أسئلة بتاتاً، من التلاميذ للبروفيسور. عادة تبادل الأسئلة والأجوبة كانت ميتة هنا.

قال: «حقائق، وصور، وأشياء».

ماذا يقصد بـ«أشياء»؟ لعلنا لن نعرف أبداً. كنّا مغيّبين تماماً، ومتجاوبين تماماً مع الرجل. هل اعتبرناه اختلالاً وظيفيّاً وأسميناه شكلاً ملهماً من الثقافة؟ لم نرغب في أن نحبه، فقط أن نصدقه. لقد عرّفنا على منهجيته العنيفة. وبلا شك لم يكن هناك منهج. كان هناك إلغوسكاس فقط. لقد تحدى سبب وجودنا، كما ظننا، كيف عشنا، حقيقة الزيف الذي صدقنا أن حقيقي أو كاذب. أليس هذا ما يفعله الأستاذة العظماء، أستاذة الزِّن وعلماء البراهما؟

مال إلى الطاولة وتحدث عن معانٍ ثابتة مسبقاً. أصغينا بانتباه وحاولنا أن نفهم. لكن الفهم عند هذه المرحلة من دراستنا - بعد مضي أشهر - يجعلنا متحيّرين، ومتوهمين. قال شيئاً باللاتينية وكفّاه على الطاولة، ثم فعل شيئاً غريباً. نظر إلينا، وعيناه تتفحصان صفّاً من الوجوه على اليمين، ثمّ صفّاً آخر على اليسار. كنا جميعاً حاضرين، حاضرين دائماً، ذواتنا المعتادة المستهجنة. وأخيراً رفع يده ونظر إلى ساعته. لم يهم كم الساعة الآن. حركة الجسد ذاتها كانت تعني أن المحاضرة قد انتهت.

المعنى ثابت مسبقاً، قلنا لأنفسنا.

جلسنا هناك، هي وأنا، بينما يجمع الآخرون كتبهم وأوراقهم ويرفعون معاطفهم من على كراسيهم. كانت شاحبة وهزيلة، شعرها مربوط إلى الخلف، خطر في بالي أنها تريد أن تبدو محايدة، ألّا تجذب الاهتمام كي تتحدى عدم انتباه الآخرين لها. وضعت الكتاب فوق دفتر ملاحظاتها، في الوسط تماماً، ثم رفعت رأسها وانتظرت أن أقول شيئاً.

«حسناً، ما اسمك؟».

«جينا. ما اسمك؟».

«كنت أريد أن أقول لارس-ماغنس فقط لأرى إذا كنتِ ستصدقينني».

«أنا لا أصدقك».

«اسمي روبي» قلت.

«شاهدتك تتمرن في النادي الصحي».

«كنت على الإضمار. أين كنتِ؟».

«عابرة، كما أظن».

«هل هذا ما تفعلينه؟».

«معظم الوقت» قالت.

آخر الطّلاب كان يرتدي معطفه الآن. وقفت ووضعت كتبها في حقيبة ظهر متدلية من على الكرسي. بقيت في مكاني، أشاهدها.

«ينتابني فضول لأعرف رأيك في هذا الرجل».

«البروفيسور؟».

«هل لديك رؤية عنه؟».

أجابتني قائلة: «تحدّثت معه مرة. شخصيّاً».

«هل أنتِ جادة؟ متى؟».

«في المطعم في البلدة».

«تحدثتِ إليه؟».

«أنا في عجلة من أمري. يجب أن أكون في مكان ما».

«أفهم شعورك».

«إنه المكان الوحيد الذي آكل فيه - عدا عن هنا - دخلت وجلست وكان هناك في الكشك عبر الطريق».

«هذا مذهل».

تابعت حديثها وقالت: «جلست هناك وقلت: إنّه هو».

«إنّه هو».

كنت أحمل قائمة الطعام الكبيرة، فأخفيتها ورائي وأنا أختلس النظرات. كانت يأكل وجبة كاملة، سقط شيء من الصلصة البنيّة على الأرض. وشرب كولا بقشّة من علبة المشروب الغازي».

«لقد تحدثت معه».

«قلت شيئاً لم يكن أصيلاً تماماً وواصلنا الحديث. كان معطفي على الكرسي المجاور وكنت أتناول السلطة، وكان هناك كتاب فوق معطفه وسألته عمّا يقرؤه».

«تحدثتِ إليه! الرجل الذي يجعلك تخفضين نظرك في خوف وتوجس».

«كان عشاء. كان يشرب الكولا عبر قشة» قالت.

«مذهل. وماذا كان يقرأ؟».

«قال إنّه يقرأ شيئاً لدوستويفسكي. سأقول لكَ ما قاله بِدقّة». قال: «دوستويفسكي نهاراً وليلاً».

«مذهل».

«وأخبرتُه عن مصادفة، أني كنت أقرأ الكثير من الشعر، وقد قرأت قصيدة قبل عدة أيام فيها عبارة: كما منتصف ليل في دوستويفسكي».

«وماذا قال؟».

«لا شيء».

«هل يقرأ دوستويفسكي بلغته الأصلية؟».

«لم أسأله».

«أتساءل عمّا إذا كان يفعل. ينتابني شعور بأنه يفعل».

ساده صمت قالت بعده إنها ستغادر الجامعة. كنت أفكر في إلغوسكاس على العشاء. أخبرتني أنها ليست سعيدة هنا، ووالدتها تقول لها دائماً إنّها حزينة. كانت ستتجه غرباً، إلى أيداهو. لم أقل شيئاً. جلست هناك ويداي على حزامي. غادرَت دون معطف. لعل معطفها كان على حاملة المعاطف في الطابق الأول.

في إجازة الشتاء، بقيت في الحرم الجامعي، مع عدد قليل من الزملاء. أطلقنا على أنفسنا اسم (الوحيدين) وتحدّثنا بإنجليزية ركيكة.

روتين يومنا غير واضح وكأننا أجساد عادت إليها الحياة. دمنا على هذا الحال نصف يوم قبل أن نكتفي.

في النادي قمت بالتّباهي المغفل على أداة على الإهليلج وسقطت في نوبات من الأفكار التائهة. فكرت في كلمة أيداهو، مليئة بحروف العلّة الغامضة. أليس مكاننا هنا، غامضاً لها؟

هجرت المكتبة في الإجازة. دخلت ببطاقة دخول وأخذت رواية لدوستويفسكي من الرفّ. وضعت الكتاب على الطاولة وفتحته ثم ملت على الأوراق، أقرأ وأتنفس. بدا أننا نشبه بعضنا، الشخصيات وأنا، وعندما حاولت رفع رأسي كان عليَّ تذكير نفسي أنّي في المكتبة.

كنت أعرف مكاناً في بكّين، يحاول أن يدرج سنداته المالية في القرن الصيني. أمي منجرفة، لعلّها في فلوريا كيز مع عشيقها السابق راؤول. كان والدي يلفظ اسمه راو-ويل، كما لو كان اسم طعام يأكله بعينين مغمضتين.

أثناء هطول المطر، بدت البلدة موحشة بلا روح. كنت أمشي كل مساء تقريباً يوميّاً ولم يغب عن بالي الرجل ذو المعطف بالقلنسوة. كنت أروح وأجيء في مكان سكنه وبدا ملائماً أني لم أشاهده. كانت هذه صفة جوهرية في المكان. بدأت أشعر بالألفة مع هذه الشوارع. كنت قادراً على مشاهدة الأشياء وحدي وبوضوح، بعيداً عن أيّ حياة كنت أعرفها، المدينة، متراكبة وذات طبقات، آلاف المعاني في دقيقة. في شارع تجاري ضيق في البلدة هناك ثلاثة أماكن لا تزال مفتوحة، أحدها لتناول العشاء، كنت قد تناولت الطعام فيه ذات مرة وصدمت رأسي ببابه مرتين أو ثلاث مرات، وأنا أتفحص الأكشاك. كان في الممشى صخور زرقاء. من متجر السلع المُيسّرة ابتعت حلوى الفدج وتحدثت مع السيدة خلف الحاسبة عن التهاب كلية زوجة ابنها.

وفي المكتبة التهمت ما يقارب مئة صفحة في جلسة واحدة، من القطع الصغير. ظل الكتاب على الطاولة عندما غادرت المبنى، مفتوحاً

على الصفحة التي كنت أقرأها. عدتُ في اليوم التالي وكان الكتاب في مكانه، مفتوحاً على الصفحة ذاتها.

لماذا بدا هذا ساحراً؟ لماذا أستلقي أحياناً في السرير، على بعد لحظات من النوم، وأفكر في الكتاب في الغرفة الخالية، مفتوحاً على الصفحة التي أقف عند قراءتها؟

في منتصف إحدى تلك الليالي - قبل بدء المحاضرات - نهضت من السرير ونزلت إلى أسفل القاعة إلى الردهة المشمسة، زجاجها من الفسطاط المائل ففتحت الشّباك وتركته يتأرجح. بدا أن ملابس المنام قد تبخرت. شعرت بالبرد في مسامي، أسناني. ظننت أن أسناني كانت تصدر صريراً. وقفت ونظرت، كنت أنظر دائماً، بدأت أشعر بأني طفل الآن، يستجيب إلى المخاطرة. كم من الوقت سأتحمل؟ دققت في سماء الشمال، السماء الحيّة، أنفاسي تغدو كدفعات صغيرة من الدخان كما لو كنت أنفصل عن جسدي. أرغب في أن أحب البرد لكن هذا حمق فأغلقت النافذة وعدت إلى غرفتي. توانيت قليلاً، وأنا أؤرجح ذراعيّ إلى جنبيّ، محاولاً تنشيط دمي، تدفئة جسدي، وبعد عشرين دقيقة من وجودي في السرير، متيقظاً ومتنبهاً، خطرت لي فكرة. جاءت من اللامكان، من ليل مكتمل التكوين، متمدداً في عدة اتجاهات، وعندما فتحت عيني في الصباح كان يحيط بي تماماً، شاغلاً الغرفة.

في فترات بعد الظهيرة تلك كان النور يموت بسرعة وكنا قد تحدثنا بلا توقف تقريباً، نتسابق في المشي في الرياح. كان لكل موضوع ارتباطات طيفيّة، وضع كبد تود الصّحي يظلل على طموحي لأركض مسافة ماراثون، وهذا يؤدي إلى ذاك، نظرية الأعداد الأولية للمنظر الحيّ لصناديق البريد الريفية الموضوعة في طريق مفقود، أحد عشر صندوقاً، أكلها الصدأ وعلى وشك الانهيار، عدد أولي، استعد تود لاستخدام هاتفه ليلتقط صورة.

اقتربنا يوماً ما من الشارع الذي يعيش فيه الرجل ذو القلنسوة. حدث

هذا عندما أخبرت تود عن فكرتي، تجلّيها في ليلة مثلجة. عرفت من هو الرجل، قلت له. كل شيء مناسب، كل عنصر، أصل الرجل، روابطه الأسرية، وجوده في البلدة.

قال: «حسناً».

«أولاً، هو روسي الجنسية».

«روسيّ».

«إنه هنا لأن ابنه هنا».

«وهو لا يتحمّل روسيا».

«تحمّل؟ أيّ تحمّل؟ قد يكون اسمه باڤِل ببساطة».

«لا، لا يمكن».

«احتمال اسم عظيم. باڤِل، ميخائيل، أليكسي. فيكتور بحرف الكاف. زوجته الراحلة كانت تاتيانا».

توقفنا ونظرنا إلى الشارع نحو المنزل المؤطر بإطار فضي والمصمم بما يشبه مكان إقامته.

«أصغ إليَّ» قلت له «إن ابنه يقيم في البلدة لأنه أستاذ في الجامعة، واسمه هو إلغوسكاس».

انتظرته كي يذهل.

«إلغوسكاس هو ابن الرجل ذي القلنسوة. إلغوسكاس أستاذنا. إنهما روسيّان، الابن ووالده».

أشرت إليه وانتظرت أن يشير بالمقابل.

قال: «إن إلغوسكاس كبير في العمر ليكون ابن الرّجل».

«لم يبلغ الخميسن بعد. والرّجل في السبعينيات، بسيطة. منتصف السبعينيات، على الأغلب. ملائم، نجح الأمر».

«هل إلغوسكاس اسم روسي؟».

«ولماذا لا يكون؟».

«في مكان آخر، في مكان قريب، لكن ليس روسيّاً بالضرورة» قال.

وقفنا هناك مواجهين للمنزل. كان عليّ توقع هذا النوع من مقاومة الفكرة، لكن الفكرة كانت مثيرة للدّهشة لدرجة أنها تملّكت من سليقتي الحذرة.

«هناك شيء لا تعرفه عن إلغوسكاس».

قال: «حسناً».

«إنه يقرأ دوستويفسكي ليل نهار».

كنت أعلم أنه لن يسأل عن كيفية توصلي لهذا التّفصيل. كان تفصيلاً مذهلاً وهو يخصّني، ولا يخصه، مما يعني أنّه سيمر دون تعليق منه. لكن الصّمت كان قصيراً.

«أيجب أن يكون روسيّاً ليقرأ دوستويفسكي؟».

«ليس هذا المغزى. المغزى هو أن هذا كل متجانس. إنها معادلة، مُتقنة ومُنظّمة».

«إنه أمريكي، إلغوسكاس، مثلنا نحن».

«الروسي سيظل دوماً روسيّاً. حتى إنّه يتحدث بلكنة خفيفة».

«لم أسمع أيّ لكنة».

«يجب أن تصغي. إنها في كلامه» قلت.

لم أعلم إذا كان تخميني صائباً أم لا. القيْقب النرويجي قد لا يكون نرويجيّاً. استنتجنا اختلافات تلقائية في مصدر مادة الأشياء المحيطة بنا.

قلت له: «أنت تقول إنّ الرجل يقيم في ذلك المنزل، وأنا أوافق على هذا. أنا أقول إنه يعيش هنا مع ابنه وزوجة ابنه. اسمها آيرينا».

«والابن. إلغوسكاس، هذا ما يطلق عليه. اسمه الأول؟».

«نحن لا نعرف اسمه الأول. إنه إلغوسكاس. هذا كل ما نحتاج لمعرفته» قلت له.

كان شعره غير مرتب، سترته مغبرة وملطخة، مستعد ليستدير عند الزاوية. مال على الطاولة، مربع الفك، ويبدو ناعساً.

قلت له: «إذا عزلنا الفكرة الطائشة، الفكرة العابرة، الفكرة التي أساسها مبهم، حينها سنبدأ في إدراك أننا مخبولان، نزداد جنوناً كل يوم».

أحببنا فكرة ازديادنا جنوناً يوميّاً. بدت حقيقة للغاية، في غاية الواقعية.

قال: «في عمق عقلينا فوضى وتشويش فقط. لقد ابتدعنا منطقاً لنرجع على أعقاب ذاتينا المختلفتين. إننا نؤكد أو ننكر. نحن نلحق النون بالميم.

عمق عقلينا. هل قال ذلك فعلاً؟

«إن القوانين الوحيدة التي تهم هي قوانين الفكر».

كانت قبضة يده على سطح الطاولة، مفاصله بيض.

«والباقي عبادة للشيطان» قال.

ذهبنا للمشي لكننا لم نشاهد الرجل. لم تكن الأكاليل موجودة عند مداخل المنازل تقريباً والشكل المنحوت سريعاً من الثلج في هذه المناسبات. بمرور الوقت بدأنا في إدراك أن هذا المشي لم يكن تجولاً معتاداً خارج الحرم الجامعي. لم نكن ننظر إلى الأشجار أو الشاحنات المغلقة، كما كنا نفعل عادة، نسميها، ونحصيها، ونصنفها. كان هذا مختلفاً. كان مقياساً للرجل بالمعطف ذي القلنسوة، جسد منحنٍ كبير في السن، ووجهه مؤطر بقماش كراهب، كتاريخ، كمأساة ذابلة. كنا نريد أن نراه مرة أخرى.

اتفقنا على هذا، تود وأنا، وتعاونّا - في الوقت الحالي - على وصف يومه.

إنه يشرب قهوة سوداء، من كوب صغير الحجم، ملعقة الحبوب خارج إناء أطفال. رأسه يميل إلى الإناء عندما يأكل، إنه لا يطالع الصحف، وهو يعود إلى غرفته بعد الإفطار، حيث يجلس ويفكر. تعود زوجة ابنه وترتب سريره - آيرينا - رغم أن تود لم يؤكد طبيعة الاسم.

في بعض الأيام، كان علينا أن ندثر وجوهنا بأوشحة والتحدث بصوت منخفض؛ عيوننا فقط مكشوفة للشارع والطقس.

هناك تلميذان وفتاة تصغرهما سنّاً، ابنة أخت آيرينا، هنا لأسباب لم تعرف بعد، والرجل العجوز يقضي يومه في مشاهدة الرسوم المتحركة على التلفاز معها، رغم أنه لا يجلس بجانبها. إنه يجلس على أريكة بعيدة عن التلفاز وملحقاته، ويغفو بين الحين والآخر. فاغر الفم، قلنا. رأس مائل وفم مفتوح.

لم نكن أكيدين لماذا نفعل هذا، لكننا حاولنا أن نكون وجدانيين، نضيف عناصر جديدة يومياً، نعدّل نصقل، ونتمعن دوماً في الشوارع، بغية استدراجه للظهور بقدرة قادر.

حساء للغداء، شراب كل يوم، منزليّ الصنع، وهو يحمل ملعقته الكبيرة في إناء الحساء، إناء الريف القديم، يشبه الأطفال في تصرفاته، مستعد لغرف الحساء بنجاروف.

قال تود إن روسيا كبيرة جدّاً على الرجل، إذ فقد شعوره بامتدادها الشاسع. فكر برومانيا، بلغاريا. بل أفضل، ألبانيا. هل هو مسيحي... مسلم؟ مع ألبانيا، قال، نحن نعمّق السياق الثقافي.

عندما يجهز للمشي، تحاول آيرينا مساعدته في غلق أزرار الباركا... الأنوراك، لكنه ينهاها بكلمات فظة... تستهجن وترد بالمثل.

أدركت أني نسيت أن أخبره أن إلغوسكاس يقرأ دوستويفسكي بلغته الأصلية. كانت هذه حقيقة مقبولة، حقيقة نافعة. لقد جعلت إلغوسكاس، في السياق، روسيّاً.

إنه يرتدي بناطيل بحمالات، حتى قررنا أنه لا يفعل، كان ذلك شبه نمطي.

من يحلق ذقن هذا العجوز؟ هل يحلق لنفسه؟ لم نرده أن يفعل ذلك. لكن من يقوم بذلك وكم مرة؟

هذا الرابط المبهم كان خاصّاً بي، العجوز بإلغوسكاس إلى دوستويفسكي إلى روسيا. فكرت بذلك طوال الوقت. قال تود إن هذا سيصبح شغلي الشاغل. سأمضي حياتي في فقاعة فكرة، تنفي الرابط.

إنه لا يملك مرحاضاً خاصّاً به؛ إنه يتشارك المرحاض مع الأطفال لكن لا يبدو أنه يستخدمه. يكاد أن يكون لامرئيّاً كرجل في منزل يسكنه ستة أشخاص. يجلس، يفكر، يختفي أثناء تجوله.

تشاركنا في تخيل الرجل في سريره، ليلاً، وهو يتفكر في البلدة، التلال، الأقرباء الراحلين. مشينا في الشوارع ذاتها يوميّاً، بهوس، وتحدثنا بنبرات خافتة حتى عندما كنا لا نتفق. كانت نظراتنا في عدم الموافقة جزءاً من جدالنا.

لعل رائحته نتنة لكن الشخص الوحيد الذي يلاحظ ذلك هي الطفلة البكر، فتاة في الثالثة عشرة. إنها تقوم بحركات في وجهها، عندما تمرّ خلف كرسيه إلى مائدة العشاء.

هذا عاشر يوم بلا ضوء شمس. العدد متعسّف، لكن العقل لا يتحمله؛ لا البرد ولا الرياح بل فقدان الضوء، فقدان الرجل. أصواتنا صارت بإيقاع متوتر. خطر لنا أن الرجل قد توفي.

تحدثنا عن موته ونحن عائدين إلى الحرم الجامعي.

هل جعلناه يموت؟ هل نستمر في تجميع خيوط حياته؟ أم ننهيها الآن، غداً، بعد غد، نتوقف عن الذهاب للبلدة، البحث عنه؟ كنت أعرف شيئاً واحداً. أنه لم يمت وهو ألبانيّ.

في اليوم التالي، وقفنا في نهاية الشارع حيث يقع المنزل المحدد. كنّا هناك لساعة، بالكاد نطقنا. أكنّا ننتظر ظهوره؟ لا أظننا كنا نعرف. ماذا لو خرج من المنزل الخطأ؟ ماذا سيعني ذلك؟ ماذا لو خرج شخص آخر من المنزل المحدد، زوجان يحملان معدات التزلج إلى السيارة في المرآب؟ لعلنا كنا هناك فقط لنظهر تقديرنا له بعين الاعتبار، واقفيْن بهدوء في حضرة الفقيد.

لم يخرج أحد، لم يدخل أحد، وتُركنا غير واثقين من نفسينا.

بعد دقائق، اقترب من مسار الشاحنات، شاهدناه. توقفنا وأشرنا

لبعضنا، التزمنا الصّمت لحظة. كان في ذلك رضا عظيم، وحماسة جمّة، أن نرى الفكرة تتجسّد، أن تصبح ثلاثية الأبعاد. انعطف إلى شارع في الزاوية اليمنى حيث كنا. ضرب تود ذراعي، التفت وبدأ في الهرولة، وبدأنا الهرولة. عدنا إلى الطريق الذي جئنا منه. ذهبنا باتّجاه الزاوية، ومنها إلى الشارع، ذهبنا إلى الزاوية الأخرى وانتظرنا. وخلال وقت قصير، كان يمشي باتجاهنا.

كان هذا ما يريده تود، أن يراه مقبلاً نحونا. تحركنا باتجاهه بدا أنه يتجول في الطريق متأملاً، غارقاً في أفكاره. سحبت تود نحوي كي لا يضطر الرجل للمرور بيننا. انتظرناه أن يرانا. كدنا أن نحصي عدد خطواته فوراً عندما كان سيرفع رأسه. كانت فترة زمنية مضطربة بالتفاصيل. اقتربنا بما يكفي لنرى الوجه الغائر، بلحية كثة، مقروص حول الفم، فكّه متراخ، شاهدنا الآن وتوقف، إحدى يديه الآن تمسك بزر معطفه الأمامي. بدا مسكوناً داخل القلنسوة الرثّة. بدا في غير مكانه الملائم، أعزل، يسهل أن يكون المرء الذي تخيلناه.

أكملنا المسير لثمانٍ أو تسع خطوات، ثم التفتنا وشاهدنا.

«كان هذا جيداً». قال تود «كان هذا يستحق الانتظار تماماً، نحن الآن جاهزان للانتقال إلى الخطوة التالية».

«لا توجد هناك خطوة تالية. شاهدناه عن قرب. نحن نعرف من هو» قلت له.

«نحن لا نعرف شيئاً».

«أردنا مشاهدته مرة إضافية».

«دامت بضع ثوانٍ فقط».

«ماذا تريد أن تعرف، أن تلتقط صورة له؟».

«هاتفي المحمول يحتاج إلى شحن. معطفه أنوراك على فكرة، من أوله لآخره». قال لي.

«إن المعطف من نوع (باركا)».

كان الرجل على بعد مربعين سكنيّين من المنعطف الذي على اليسار مما سيجعله في الشارع الذي يقيم فيه.

«أظننا بحاجة للانتقال إلى الخطوة التالية».

«قلت رأيي مسبقاً».

«أظننا بحاجة إلى محادثته».

نظرت إلى تود. كانت ابتسامته ثابتة، مصطنعة.

«هذا جنون».

«هذا كله لا يعقل» قال.

«أن نفعل ذلك، أن نقتل الفكرة، أن نقتل كل ما فعلناه. لا يمكن».

«علينا محادثته».

«سوف نسأله بضعة أسئلة، هذا كل ما في الأمر. صمت، نقلل من التوتر. نكتشف تفاصيل جديدة».

«لم يكن هدفنا الحصول على إجابات حرْفيّة البتّة».

«لقد أحصيت سبعاً وثمانين شاحنة. أنت أحصيت سبعاً وثمانين شاحنة. تذكر».

«هذا أمر مختلف وكلانا يعرف هذا».

«لا أصدق أنك لست فضولياً. كل ما نفعله هو التنقيب في حياة موازية. لا تأثير لما تكلمنا عنه طوال هذا الوقت»، قال.

«إنها تؤثر في كل شيء. إنها انتهاك. إنها جنون».

نظرت إلى الشارع ومنه إلى الرجل في تساؤل. كان لا يزال يتحرك ببطء، بشيء من العصبية، يداه خلف ظهره الآن، حيث تنتميان.

«إذا كنت تتحسس من الاقتراب منه، فأنا سأفعل ذلك» قال.

«لا، لن تفعل».

«لماذا؟».

«لأنه كبير في السن وعاجز. لأنه لن يفهم مقصدك».

«ماذا أريد؟ عدداً قليلاً من الكلمات للتحاور. وإذا خجل، فسأغادر فوراً».

«لأنه لا يتحدث الإنجليزية حتى».

«أنت لا تعرف ذلك. أنت لا تعرف شيئاً».

بدأ في المشي مبتعداً عنّي، فأمسكت ذراعه وسحبت جسده نحوي.

قلت له: «لأنّك ستخيفه. شكلك فقط سيذعره».

نظر نحوي مباشرة. مرّ بعض الوقت على هذه النظرة. ثم سحب ذراعه مبتعداً فأسقطته على الشارع. لكنه واصل المشي فانقضضت عليه وأدرته نحوي وضربته على صدره بمرفقي. كانت عيّنة، تمهيداً. جاءت سيارة باتجاهنا وانحرفت بعيداً عنّا، وجوه في النافذة. بدأنا نضرب بعضنا. كان مرهقاً للغاية، فأحطه ضرباً، من كل زاوية، خليط من المرفقين والكعبين، ولكمات مخادعة. واجهت مشكلة في السيطرة عليه وفقدت قفازاً. أردت أن أضربه على كبده لكنني لم أعرف موقعه. بدأ يضرب في بطء شديد. اقتربت منه وضربته على جانب رأسه بيد عارية. تألّم كل منا فأصدر صوتاً وتكوّر في وضع جنينيّ. انتزعت قبعته وقذفتها. أردت أن أصارعه وأضرب رأسه بالإسفلت لكنه كان متأهباً. لا زال يصدر الصوت، همهمة تحديداً، خيال علمي. بعدها انبسط جيده، محمرّاً محتقناً بالدم وهائجاً، وبدأ في التأرجح على غير هدى. تراجعت خطوة واستدرت نصف استدارة، وأنا أنتظر البداية، لكنه سقط قبل أن أتمكن من ضربه، هربت فوراً وبدأت العدو.

كان الرجل ذو القلنسوة على وشك الاختفاء من المشهد، منعطفاً إلى شارعه. شاهدت تود وهو يركض، بخطوات واسعة متثاقلة. كان ليركض بشكل أسرع لو توقع أن يصل إلى الرجل قبل أن يختفي في المنزل ذي الإطار الفضي، المنزل المحدد.

شاهدت قفازي المفقود في منتصف الشارع، ثم تود وهو يركض مكشوف الرأس، محاولاً تجنّب الجليد. المشهد خالٍ من حولي. لم

أستطع فهمه. شعرت بانفصال تام. أنفاسه مرئية، جداول من البخار المتتابع. تساءلت عن سبب العراك. كل ما أراده هو التحدث مع الرجل فقط.

مِطْرَقَة ومِنْجَل

مشينا على جسر الطريق السريع، تسعة وثلاثون شخصاً نرتدي ثياباً موحّدة وأحذية تنس، وحراس من الأمام والخلف والجانبين، مجموعهم ستة. السيارات تمرّ تحتنا، بلا توقف، سريعة وصوتها عال وهي تمرّ تحت الجسر المنخفض. لا كلمة تصف الصوت، سرعة كبيرة، ثابتة، متتالية، تتجه شمالاً وجنوباً، وفي كل مرة نعبر فيها مشياً فوق السيارات العابرة أتساءل مجدداً من هم هؤلاء الناس، السائقون والراكبون، سيارات كثيرة، اضطرارهم للتنقل، حيواتهم في داخلها.

كان لديَّ وقت لملاحظة هذه الأشياء، وقت لتأملها. إنه عمل قاتل، تأملها، حتى في أدنى درجات الأمل، كانت هناك مُلهيات، افتتاحيات على العالم القديم. لعبة كرة قدم المعتقلين في فناء المدرسة الثانوية المهجورة عبوراً بالجسر كانت فرصة لمغادرة عاصفة من التكبيل اليومي، ودكّاً لصفوف الوجبات، وعدّاً للرؤوس، والتعليمات، والانعكاسات. ركب اللاعبون حافلة، مشى المتفرجون، أسرعت السيارات أسفل الجسر.

مشيت بجوار رجل يدعى سيلفان تيلفير، فارع الطول، وأصلع، غارق في حزنه، مصرفيّ عالميّ كان قد تعامل بعقود غير موثوقة بتمويل خارجي.

«هل تتابع كرة القدم؟».

«أنا لا أتابع شيئاً» قال.

«لكنها تستحق المتابعة في ظل هذه الظروف، صحيح؟ وهو تماماً ما أشعر به».

«أنا لا أتابع شيئاً» قال.

«اسمي هو جيرولد».

«جيد جدّاً» قال.

لم يكن المخيّم محاطاً بجدران حجرية أو شفرات أسلاك ملفوفة. كان المحيط الوحيد مشهداً خادعاً الآن، سلسلة من الأعمدة الخشبية التي تدعم القضبان المتراخية. كانت هناك أربعة مهاجع بأسرّة يعلو أحدها الآخر، ومراحيض، وأماكن استحمام. كانت هناك عدة تكوينات للتأقلم على نزعة الحبس، وجبات، وعناية طبية، ومشاهدة التلفاز، وساعات تمرّن رياضيّ، وزيارات من الأقرباء وغيرهم. وكانت هناك ساعات للقاء الزوجات.

«بإمكانك أنت تناديني جيري» قلتُ له.

كنتُ أعرف أن سيلفان تيلفير قد نال بدلة عقوبة خاصة وأنظمة سمعية بصرية، ودورة مياه خاصة، وامتياز التّدخين ومحمصة خبز. كانت هناك أربع منها في السجن وبدا الرجل، وحيداً، في عزلته العاطفية وألمه المتكتم، يستحق اهتماماً خاصّاً. منعزلاً في مخدعه، قلت لنفسي. لا بدَّ أن هذه عقوبة لمدى الحياة محشورة في تسع سنوات قد أحضرها معه من سويسرا أو إمارة ليختنشتاين أو جزر كايمان.

كنت أريد أن أعرف شيئاً عن منهجية هذا الرجل، طبيعة جرائمه، لكنني ترددت في سؤاله وكان من المؤكد أنّه لن يجيب. أنا هنا منذ شهرين فقط وكنت لا أزال أحاول معرفة كيف أتأقلم مع المكان؛ كيف أقف، وأجلس، وأمشي، وأتكلم... سيلفان تيلفير كان يعرف هذه الأشياء. كان رجلاً غير صبور، بدلة مرتبة وحذاءان أبيضان نظيفان، حبلهما معقود بغرابة خلف كاحليه، رجل غائب عن أدنى كلمة أو إشارة.

كان إزعاج المرور متبايناً عند قمم الأشجار عندما وصلنا إلى أعتاب الثّكنة العسكرية.

في بداية سنوات مراهقتي تعرّفت على كلمة (التّوهم)، كلمة عظيمة، قلت لنفسي. وأردت أن أكون متوهماً، شخصاً يدخل ويخرج من الواقع الفيزيائي. أنا هنا الآن، حلم محموم طافٍ، لكن أين بقيته، المحيط الكثيف، الشيء الذي له وزن وثقل نوعي؟ يوجد رجل هنا يطمح لأن يكون باحثاً إنجيلياً. رأسه مائل بشدة إلى أحد جانبيه، يتكئ تقريباً على كتفه الأيسر، نتيجة علّة غير معروفة. أنا معجب بالرجل، أحب أنْ أكلمه، وأنا أميل رأسي قليلاً، لأشعر بالأمان في عمق معرفته، ولغاته، وثقافاته، والوثائق، والطقوس، والرأس ذاته، هل هناك شيء أكثر حقيقة منه؟

هناك رجل آخر يركض في كل اتجاه، نسميه اللاعب الأحمق، لكنه يقوم بذلك بهوس حقيقي، خارجاً عن هوامش بروتوكولاتنا اليومية. لديه نبض، نبض متسارع. وهناك المقامرون، رجال يتراهنون سرّاً على كرة القدم، وينخرطون كل أسبوع في كلام جانبي عن انتشار الحاجب، سريراً لسرير، وجبة لوجبة، النسور ينقصهم أربعة، أكباش يحصلون على ثمانية ونصف. هل يتراهنون بنقود حقيقية؟ قف بجانبهم عندما يتحدثون وستشعر أنها حقيقية، ملموسة، وهم كذلك، يشيرون بشكل أوبرالي، إلى أرقام تشع بأضواء نيون في الهواء.

شاهدنا التلفاز في إحدى الغرف العامة. كانت هناك شاشة مسطحة كبيرة الحجم، معلقة على الجدار، بعض القنوات محظور، أما البرامج فيختارها أحد الخبراء المحبوسين، رجل مختلف في كل شهر. في هذا اليوم شُغِلت خمسة أماكن فقط من المقاعد الثمانين تقريباً الموجودة في الصفوف المقوسة. كنتُ هناك أشاهد برنامجاً محدداً، أخبار بعد الظهيرة، خمس عشرة دقيقة، على قناة الأطفال. كانت إحدى الفقرات هي تقرير سوق الأسهم. فتاتان، غير بارعتين إطلاقاً، تعلنان عن نشاط أسواق اليوم.

كنت الوحيد الذي يشاهد الفقرة. جلس بقية المساجين نصف غائبين عن الوعي، ورؤوسهم للأسفل، كانت مسألة يوم، وقت من السنة، حل الغروب تقريباً، شبح الضوء الكئيب والأخير يهيمن على النوافذ المستطيلة المرتفعة. جلس الرجال تفصلهم مسافة عن بعضهم، هناك ليكونوا وحيدين. كانت هذه زنزانة المعاينة الذاتية، التخمين الثانوي لحياة مفقودة، ليست أقل إلزامية من مناداة المؤمنين للصلاة.

شاهدت وأصغيت. كانت الفتاتان ابنتيّ، لاوري وكيت، في العاشرة والثانية عشرة من عمرهما. أخبرتني والدتهما، باقتضاب على الهاتف، أن الطفلتين قد اختيرتا لتظهرا في هكذا برنامج. دون معلومات إضافية، قالت. في الوقت الرّاهن، كما لو كانت تنقل خبراً، هي ذاتها، من مكتب في استوديو وتهمس بتوتر أمام الكاميرا.

جلستُ في الصف الثاني، وحيداً، وكانتا هناك، تتشاركان طاولة، تتحدثان عن توقعات الرّبع الرّابع من العام، الفتاة الكبرى، ثم الأخرى، بضع جمل في كل مرة، جودة الائتمان، الطّلب على الائتمان، القطاع التّقني، العجز في الميزانية. كان للصورة طابع البث المباشر، توليد المستخدم. حاولت أن أفصل نفسي، أن أشاهد الفتاتين من إحالات بعيدة عن كونهما ابنتي. درستُهما. لاحظتُهما. كانتا تقرآن سطورهما من الأوراق التي تحملانها، كل منهما ترفع عينيها عن الورقة وهي تنتقل إلى القارئة الأخرى.

هل بدا هذا جنونيّاً، تقرير عن السّوق المالي للأطفال؟ لم يكن هناك شيء جاذب أو أخّاذ في التعقيب. لم تكن الفتاتان تلعبان دور البالغين. كانتا مطيعتين، تمزجان تعريفات متفرقة وشروحات في الأخبار، ثم بدا في عيني لاوري رعب مفاجئ في ملاحظاتها عن مؤشر تداول ناسداك - كلمة ممسوخة، جملة مفقودة. اعتبرتُ التقرير فقرة أوليّة من برنامج بالكاد يلاحظ في قناة محجوبة. لم يكن أكثر جنوناً، ربما، من أغلب التلفاز، وعلى أيّ حال من كان يشاهده؟

ارتدى زميلي جوربين في السرير. أدخل طرفي بنطاله في الجوربين واستلقى على سريره، ركبتاه للأعلى ويداه مثنيتان خلف رأسه.

ثمّ قال: «أفتقدُ جدران منزلي».

كان سريره في الأسفل. كانت هذه مسألة مهمة في السجن، أعلى أم أسفل، من يأخذ ماذا، ككل الأفلام التي شاهدناها عن السجن. كان نورمان أكبر مني في العمر، والتّجربة، والأنا، والعقوبة المنقضية ولم يكن لديَّ سبب للاعتراض.

فكرت في إخباره أننا جميعاً نفتقد جدراننا، نفتقد أراضينا، وأسقفنا. لكني جلست وانتظرته أن يواصل حديثه.

«اعتدت على الجلوس والمشاهدة. جداراً، ثم الآخر. وبعد فترة أنهض وأمشي حول الشقة، ببطء، وأنا أنظر من الجدار إلى الجدار. أجلس وأشاهد، أقف وأشاهد».

وكأنّه تحت تأثير تعويذة، يتلو قصة النوم التي تعلّمها وهو طفل.

«جمعتَ القطع الفنية، أليس كذلك؟».

«هذا هو، الفعل الماضي، جمعتَ. ميزة المتاحف عظيمة».

«لم تذكر هذا من قبل» قلت له.

«منذ متى وأنا هنا؟ إنها أشبه بجدران شخص آخر الآن. فن مبعثر».

«لديك مستشارون، خبراء في تسويق الفن».

«أشخاص اعتادوا على القدوم ومشاهدة جدران منزلي، من أوروبا، ولوس أنجلوس، ورجل ياباني من مؤسسة ما في اليابان».

جلس بهدوء لبعض الوقت، وهو يتذكر. وجدتني أتذكر معه. كان لهذا الرّجل الياباني ملامح محددة، حجم وشكل معيّنان، بدا جليلاً، في بدلة شاحبة، وربطة عنق داكنة اللون.

«جامعو تحف، وأمناء، وتلاميذ. جاؤوا وشاهدوا» قال.

«من قدّم النصح لك؟».

«كانت لديَّ امرأة في شارع سبع وخمسين، وشخص في لندن، كولن، يعرف كل شيء عمّا بعد الانطباعيّة. رجل عزيز ولطيف».

«أنت لا تعني ذلك فعلاً».

«إنها عبارة يقولها الناس. إحدى تلك التعبيرات التي تبدو فيها أن شخصاً آخر يتحدث. رجل عزيز ولطيف».

«زوجة محبة وأمّ».

أردف قائلاً: «كنت أسعد بالسماح لهم بالمشاهدة. جميعهم. اعتدت على المشاهدة معهم. كنّا نتنقّل من لوحة إلى أخرى، من غرفة إلى أخرى. كنت أملك منزلاً في هدسون فالي، كثيراً من اللوحات، بعض التماثيل. كنت أذهب إلى هناك في الخريف. لكن بالكاد كنت أنظر من النوافذ».

«لديك الجدران».

«لم أستطع إزاحة عيني عن الجدران».

«ثم صار لديك زنزانة».

«كلها، كل قطعة أخيرة. أدفع الفوائد، أدفع الديون، أدفع الرسوم القانونية، المؤن للأسرة. منحت ابنتي نقوشاً. ليلة مثلجة في النّرويج».

كان نورمان يفتقد جدرانه لكنه لم يكن سعيداً هنا. كان قانعاً، كما قال، وخائباً، وغير مرتبط، منفصلاً. كان حُرّاً من الاحتياجات المتزايدة ومتطلّبات الآخرين، وعلى الأغلب منعتقاً من دوافعه الشخصية، ثرثرته، والأوامر المتكدسة طوال الحياة؛ التضخم، تكوين نفسه ليشتري سلسلة فنادق، ليصنع اسماً. كان في سلام هنا، قال.

استلقيت على السّرير العلوي، مغمض العينين، أصغي. في أرجاء المبنى رجال في مقصوراتهم، أحدهم يتحدث، والآخر يصغي، أو كلاهما صامت، أحدهم نائم: جنحة ضرائب، نفقة، تجار داخليون، يمين كاذب، مجرمو صناديق وقائية، احتيال بريدي، احتيال رهن، احتيال أسهم، احتيال بالحسابات، إعاقة العدالة.

بدأت الشائعة بالانتشار. عند اليوم الثالث شُغِلت معظم الكراسي في الغرفة العامة وكان عليَّ الجلوس في مكان عند نهاية الصف الخامس. على الشاشة كانت الفتاتان تذيعان تقريراً عن حالة تتطور سريعة في الإمارات العربية.

«الكلمة هي دبي».

«هذه هي الكلمة التي تجوب القارات والمحيطات بسرعة البرق».

«إن الأسهم تنخفض بسرعة».

«باريس، فرانكفورت، لندن».

قالت كيت: «أسوأ دين للفرد في العالم. وازدهارها العمراني الآن... انهار وهي لا تستطيع دفع الديون التي تدين بها للبنوك».

«إنها مدينة للبنوك بثمانية وخمسين بليون دولار» قالت لاوري.

«بفارق بلايين بسيطة».

«مؤشر داكس في ألمانيا».

«انخفض ثلاثة بالمئة».

«مصرف رويال في اسكتلندا».

«انخفض أكثر من أربعة بالمئة».

«الكلمة هي دبي».

«هذه المدينة المثقلة بالديون تتطلب من البنوك إعفاء لفترة ستة أشهر خالية من أيّ دفعات للدين».

«دبي» قالت لاوري.

«تكلفة ضمان دين دبي مقابل العجز قد زادت مرة، مرتين، ثلاثاً، أربع مرات».

«أتعرفين ما يعنيه هذا؟».

«إنه يعني أن متوسط داو جونز أندستريال منخفض، منخفض، منخفض».

«مصرف دويتشه».

«منخفض».

«لندن – مؤشر FTSE مئة».

«منخفض».

«أمستردام – مجموعة ING».

«منخفض».

«هانغ سنغ في هونغ كونغ».

«النفط الخام. الصكوك الإسلامية».

«منخفضة، منخفضة، منخفضة».

«الكلمة هي دبي».

«قوليها».

«دبي» قالت كيت.

تكتب الحياة السابقة نفسها في كل لحظة. خلال ثلاثة أعوام سأكون هنا، متوحلاً برعب في هذا الهدر. يصعب تخيل المستقبل الحر. لديَّ ما يكفي من الصعوبة في تعقب شكل الماضي المعروف. هذا ليس عنصراً ثابتاً، لا إيمان أو حقيقة عدا الفتاتين، ولادتهما، تقدمهما في العمر، حياتهما.

أين كنت عندما حدث هذا؟ كنت أحصل على درجات علمية لا معنى لها، أُعلّم فصلاً دراسيّاً لحديثي التخرج في ديناميكية تلفاز الواقع. غيرت تهجئة اسمي الأول إلى جيرولد. استخدمت سبابتي والوسطى لأضع أقواس التنصيص حول الملاحظات الساخرة التي أقولها شفهيّاً وأحياناً كنت أستخدم سبابتي فقط، أُتبع الاقتباس بالاقتباس. كنت في ذلك النوع من الحياة، تهكّم من الذات، لا زواجي ولا عملي بدا أنهما على أرض صلبة. أنا في التاسعة والثلاثين من عمري، جيل كامل قد انقضى من عمر بعض الموقوفين هنا، لم أعد أتذكر ماذا فعلت لأزج بنفسي في هذا المكان. في بداية القانون الإنجليزي كانت عقوبة الجناية هي استئصال أحد أعضاء الجاني. هل سيحفّز هذا الذاكرة الحديثة؟

أتخيلني للأبد هنا، إنها أبد أصلاً، تناول وجبة أخرى مع مستشار

سياسيّ يلعق إبهامه ليلتقط فتات الرغيف من الصحن ويحدق فيه، أو الوقوف في طابور خلف مصرفيّ في الاستثمار والذي يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ بلغة الماندارين المُبتدئة. أنا أفكر في النّقود. ماذا أعرف عنها، كم احتجتها، ماذا فعلت بها عندما حصلت عليها؟ ثم أفكر بسيلفان تيلفير الحذر في أمانيه، فئة بليون يورو قد فصلت عن التي اشتراها، دفعة نقود لها رموز، وهمية، نوع من الاستثمار المتعقل الذي لا يعرفه إلّا من يعيشه.

«يواصل الخوف تصاعده».

«الخوف من الأرقام، الخوف من انتشار الخسارات».

«الخوف هو دبي. الحديث هو دبي. دبي لديها الدّين. هل كان خمسة وثمانين بليون دولار أم ثمانين بليون دولار؟ إن المصرفيين يمشون على أرضيات رخامية».

«أم إنه مئة وعشرون بليون دولار؟».

«إن الشيوخ يحدّقون في سماوات مُبهمة».

«حتى الأرقام مذعورة».

فكّر بالمستثمرين البارزين. نجوم هوليوود. لاعبي كرة القدم المشهورين».

فكر بجُزر شُكّلت على شكل نخيل. أشخاص يتزلجون في مراكز التسوق».

«فندق سبع نجوم الوحيد في العالم».

«أغنى سباق خيول في العالم».

«أطول مبنى في العالم».

«كل هذا في دبي».

«أطول من مبنى الإمباير ستيت ومبنى كريسلر مجتمعيْن».

«اسبَح في مسبح في الطابق السادس والسبعين. أقم صلاتك في مسجد يقع في الطابق الثامن والخمسين».

«لكن أين النفط؟».

«دبي لا تملك نفطاً. دبي عليها ديون. دبي لديها عدد ضخم من العمالة الأجنبية ولا أماكن ليعملوا فيها».

«مبانٍ ضخمة فيها مكاتب خاوية. مبانٍ سكنية غير مؤثثة تحت رحمة الغبار. فكر بهبوب الرمال. عواصف رملية تخفي المشهد. واجهات تخزين خالية في كل اتجاه».

«لكن أين النفط؟».

«النفط في أبوظبي... قولي اسمها».

«أبوظبي».

«والآن لنقله معاً».

«أبوظبي» قالتا.

فيليكس زوبر - السّجين الأكبر عمراً - هو من اختار مشاهدة برنامج أطفال. كان فيليكس هنا بين الحين والآخر، في منتصف الصف الأمامي، يحمل معه فترة حكم تمتد لسبع مئة وعشرين عاماً، كان يحب الالتفاف والإيماء للقريبين منه، وكان يصفّق دون تواصل بيديه المرتجفتين، رجل أجعد صغير، يبدو كبيراً بما يكفي ليكون على شفا البقاء لمحكوميته، نظارة طبية ملونة، بدلة بنفسجية، شعر مصبوغ بسواد الموت.

إن فترة سجنه أذهلت بقيّة المساجين. فترة حكم نالها لتلاعبه المتقن في مؤامرة استثمارية تضم أربع دول وأدّت إلى انهيار حكومتين وثلاث جماعات، وتحويل كثير من الأموال في شحنات أسلحة إلى المتمردين خلال محاصرة المنشقين للقوقاز.

توسّع جرائمه يكفل له بيئة أكثر صرامة من هذه، لكنه أرسل إلى هنا لأن علّة أعمته، ومستقبله يحسب بالأسابيع والأيام. كان الرجال يُرسَلون أحياناً إلى هنا ليموتوا، في ظروف هادئة. عرفنا ذلك من وجوههم، تحديداً، امتداد الرؤية المخفّف، الانسحاب الحسّي، ومن السّكون الذي جلبوه معهم، والسّلوك المُتقوقع، كما لو كانوا مُلزمين بنذور. لم

يكن فيليكس ساكناً. إنه يبتسم، ويلوح، ويثب ويهتز. جلسَ على حافة كرسيّه عندما نقلت الفتاتان خبر تهاوي الأسواق المالية والاقتصاديات المذهلة. كان رجلاً يشاهد بديهية قديمة تنكشف في شاشة التلفاز العريضة. كان ليأخذ العالم معه عندما يموت.

يعتبر حقل كرة القدم جزءاً من حرم جامعي مهجور. مدرسة إعدادية ومدرسة ثانوية قد أُغلقتا لأن الدولة لم تملك الموارد لصيانتهما. المباني العتيقة قد تهدمت جزئيّاً الآن، ولا زال عدد من آلات الإتلاف في مكانها، غارقة في الوحل.

كان المحبوسون سعداء بالإبقاء على الحقل في حالة تمكن من اللعب، ورسم الخطوط والأقواس بالطباشير، وتثبيت الأعلام الجانبية، وحفر الأهداف بقوة في الأرض. كانت المباريات تسلية حقيقية للاعبين، رجال أغلبهم في منتصف العمر، بعضهم أكبر، اثنان أو ثلاثة أصغر، لهم جميعاً ذرائع متشابهة، يركضون، ويقفون، ويمشون، ويربضون، انحناء بسيط غالباً عند الخصر، أنفاسهم متقطعة، وأيديهم على ركبهم، ينظرون إلى الملعب حيث تتوحل حيواتهم.

عدد المتفرجين كان يقل عن عدد اللاعبين بزيادة برودة الطقس. بقيت أشاهدهم، وأنفخ يديَّ، وأضرب بذراعي على صدري. كان مدربا الفريقيْن من المساجين، وحكّام المباراة من المساجين، وأولئك الذين يتفرجون في ثلاثة صفوف من المقاعد المدرّجة القديمة والمحطمة من المساجين. أما الحرّاس الذين وقفوا حولنا يشاهدون، هنا وهناك، لم يكونوا من المساجين.

صارت المباريات أكثر غرابة. كانت القوانين تُبتدع، منقوصة ومبتورة، عراك يبدأ بين الحين والآخر، المباراة مستمرة حوله. بقيت أنتظر فزع اللاعب، نوبة قلبية، تشنجاً وانهياراً. تهليل أو صراخ المتفرجين نادر. بدا أنه شعور من اللامكان، رجال يتحركون في بعد حالم، رجال يتشاركون سيجارة. مشينا عبوراً بالجسر، شاهدنا المباراة، عدنا عبوراً عليه.

فكرت في تاريخ كرة القدم، محفّز الحروب، الهدنات، هيجان الغوغاء. كانت اللعبة شغفاً عالميّاً، كرة كروية، عشب أو حديقة، أوطان كاملة في تشنجات الجذل أو الامتعاض. لكن أيّ نوع من الألعاب الرياضية هذه التي ترفض استخدام اللاعبين لأيديهم، عدا حارس المرمى؟ إنّ اليدين عضوان بشريّان أساسيّان، الشيئان اللذان يمسكان ويحملان، يصنعان، ويأخذان، وينقلان، ويبْدعان. إذا كانت كرة القدم استحداثاً أمريكيّاً، ألن يحافظ بعض المثقفين الأوروبيين على أنّ طبيعة تاريخنا المتزمّت قد أرغمنا على استحداث لعبة تنظيمها قائم على مبادئ ضد الاستمناء؟

هذا أحد الأمور التي أفكّر فيها الآن ولم أفكر فيها من قبل.

الشيء الملاحظ في نورمان بلوش، زميلي في السرير ذي الطابقين، لم يكن الفنون التي اعتاد تعليقها على جدرانه. ما أثّر فيَّ هو جريمته التي ارتكبها. كانت جريمته بحدّ ذاتها شيئاً من الفن، ذات طبيعة أسطورية، ومتطرفة في درجتها، صنيعاً معتاداً، سيمضي نورمان ستة أعوام إضافية في السجن، والسرير ذي الطابقين، والعيادة، صفوف الطعام، إزعاج مجففات اليد المفاجئة في دورات المياه.

لم يدفع نورمان الضرائب. لم يبلّغ عن العوائد الرّبع سنوية أو السنوية ولم يطلب التمديدات. لم يُؤرّخ المستندات، أو يرهن الملكيّة أو المؤسسات، أو يفتح حسابات سريّة أو يستفد من الآليات الجاهزة أو الحصانة القضائية، لم يكن سياسيّاً أو معترضاً دينيّاً، لم يكن عَدَميّاً رافضاً لكل القيم والمؤسسات. كان شفّافاً تماماً، هو فقط لم يرغب بدفع الضرائب. كان نوعاً من الخمول، قال، بالطريقة ذاتها التي يتجنب فيها الناس غسل الأواني أو ترتيب السرير.

توقدَ ذهني لهذا. غسل الصحون، ترتيب السرير. قال إنه لم يعرف تحديداً متى كانت آخر مرة دفع فيها ضريبة. عندما سألته عن مستشاريه الماليين، وشركائه في العمل، استهجن، أو هكذا تخيلته. كنتُ في

السرير العلوي، وكان في السفلي، رجلان يرتديان بدلات المنامة، ويُزجيان الوقت.

«تلك الفتاتان. مذهلتان للغاية، خاصة الأخبار السيئة» قال.

«أنت تحب الأخبار السيئة».

«جميعنا يحب الأخبار السيئة. حتى الفتاتان تحبان الأخبار السيئة».

فكرت في إخباره أنهما ابنتيّ. لم يعرف أحد هنا هذا وهذا أفضل. لم أرغب في أن ينظر الرجال في الزنزانة إليّ، التحدث معي، ونشر الخبر في المخيم. كنت أتعلّم أن أكون لامرئيّاً، وهذا يلائمني، كانت حالتي الطبيعية، يوماً بعد يوم، أن أكون مُتَخيّلاً من جديد.

من الأفضل عدم التّحدث عن الفتاتين.

ثم تحدث عنهما، بهدوء، في ست أو سبع كلمات. كان هناك توقف طويل. كان له وجه مستدير، نورمان، وأنف أفطس، وشعره كثٌّ اشتعل فيه الشيب.

«لم تذْكر هذا يا جيري».

«بيننا فقط».

«أنت لا تقول شيئاً البتّة».

«فقط لك. لا أحد غيرك. هذه الحقيقة، كيت ولاوري. أجلس وأطالعهما ومن الصعب فهم كيف حدث أيّ من هذا. ما تفعلانه هناك، ما أفعله أنا هنا؟ والدتهما هي من تكتب التقارير. لم تخبرني بذلك لكني أعلم أنها تفعل ذلك. إنها تدير الأمر برمّته».

«كيف تبدو، والدتهما؟».

«نحن منفصلان قانونيّاً».

«كيف تبدو؟» قال.

«ذكية بكل معنى الكلمة، حادة الذكاء. جميلة نوعاً ما. يجب أن تتمعن لتلاحظ جمالها».

الدقيق للكلمة».
لم أسأله عن قصده من تعبيره.
«هل أحبتك زوجتك؟».
«لقد أحبت جدراني» قال.
«أنا أحب طفلتي».
«وتحب والدتهما أيضاً. يمكنني أن أشعر بذلك» قال.
«من أين، السرير السفلي؟ أنت حتى لا تستطيع رؤية وجهي».
«لقد شاهدت وجهك. أرى ماذا؟».
«لقد تداعينا. لم نفترق، لقد تداعيْنا».
«لا تخبرني. أنا أشعر بالأشياء. أنا أقرأ الأشياء» قال.

نظرت إلى السقف. لقد أمطرت لعدة ساعات وظننت أن بإمكاني سماع ضوضاء المرور على الطريق السريع المبلول، سيارات تتسابق على المعبر العلوي، سائقون يميلون في الليل، ويحاولون قراءة العلامات عند كل منحنى ومنعطف.

قال: «سأخبرك كيف يبدو. إنّه أشبه بلعب لعبة. كل تلك الأسماء التي تذكرانها. (هانغ سنغ) في هونغ كونغ. مضحكة بالنّسبة للأطفال. وعندما يقول الأطفال الاسم، يكون مضحكاً بالنسبة لنا. وسأراهنك. كثير من الصغار يشاهدون ذلك التقرير لا لأن الطفلتين على القناة. إنهم يشاهدونه لأنه مضحك. ما هو هانغ سنغ في هونغ كونغ بحق الجحيم؟ لا أعرف. هل تعرف؟».

«والدتهما تعرف».

«أراهن أنها تعرف. إنها تعرف اللعبة أيضاً، كلها. وكلها مضحك. أنت محظوظ. طفلتان رائعتان».

سعيد هنا، كان نورمان. نحن لسنا في سجن، كان يحب أن يقول. نحن في معسكر.

بدأ الوقت في الخليج يهدأ بمرور الوقت. وفّرت أبوظبي ضماناً بقيمة عشرة بلايين دولار وسرعان ما عمّ الخليج هدوء نسبيّ مروراً بالشّبكات الرّقمية إلى الأسواق في كل مكان. جلب هذا الفتور إلى الغرفة العامّة. حتى مع إظهار الفتاتين تحسّناً في تقديم الخبر وظهور علامات الإعداد الجاد، توقف الرّجال عن الحضور بأعداد كبيرة، لم يكن هناك إلّا عدد قليل منّا، هنا وهناك، نغالب النوم ونتأمّل.

***

كان لدينا تلفاز لكن ما الذي افتقدناه، جميعنا، عندما دخلنا إلى السجن؟ لقد فقدنا كل الزوائد التقنية، امتداداتنا، أنظمة البيانات التي كانت تغذينا وتنظفنا. أين ذهب العالم، عالمنا؟ ذهبت الحواسيب الشخصية، والأجهزة الذكية ومجسّات الضوء والميغابيكسل. أيدينا وأعيننا تحتاج أكثر مما يمكننا منحها الآن. لمسة موعد أو رحلة طيران أو امرأة في غرفة في مكان ما. والإحساس، الوعي الضمني، مفقود الآن. الأشياء الأحدث، والأذكى، والأسرع، والأكثر سرعة، في مهب الريح. وفُقِد كذلك التوتر الدائم الذي تحمله لنا هذه الأجهزة. لكن احتياجنا لهذا الشعور لا يقل عن احتياجنا للأجهزة ذاتها، التوتر الموروث، تلك التحذيرات والإحباطات. ألم تكن أساسية لعقولنا؟ إمكانية فشل الإشارات وعطب الأنظمة، الذاكرة التي بحاجة إلى شحن، الهُوية المفقودة بسلسلة من الضغطات. المعلومات، تلك كانت كل شيء، تدخل، وتخرج. كنّا دائمي الاتصال، أردنا أن نتّصل، احتجنا للاتصال، لكن بات هذا تاريخاً قديماً، ظلّاً من حياة أخرى.

حسناً، كنا ناضجين، ولسنا أطفالاً مُراقبين في عبودية عشائرية، ولم يكن هذا سجناً للإنقاذ من الإنترنت. عشنا في مساحة حقيقية، غير مدمنين، بلا أيّ تعويل يومي. لكننا كنّا مفجوعين. كنّا مسحوقين ضعفاء. كنّا شيئاً يندر أن نتكلم عنه، شيئاً من الصعب استحضاره. كانت هناك لحظات قصيرة عقيمة عرفنا فيها تماماً ما ينقصنا. كجلوسنا على المراحيض، وسحبنا الماء، انتهى الأمر، وحدّقنا في أيدينا الخاوية.

أردتُ أن أشاهد نفسي أمام تقرير الأسواق المالية، في أيام الأسبوع، الرابعة بعد الظهيرة، لكن لم أتمكن دائماً من ذلك. كنت جزءاً من عمل مفصّل في أيام محدّدة لقاعدة القوة الجوية القريبة، حيث وضعنا الرمل ولوّنا، وقمنا بالصيانة العامة، سحبنا القمامة، وأحياناً نقف فقط لمشاهدة طائرة تزمجر على مسارها الأرضي قبل أن تطير في الشّمس المنخفضة. كانت مشاهدة المنظر جميلة، طائرة ترتفع، ترفع عجلاتها، وأجنحتها تدور للخلف، الضوء، السماء المقلّمة، ثلاثة أو أربعة منّا، دون أن ننبس ببنت شفة. هل كان هذا هو الوقت، أكثر من ألف لحظة أخرى، الذي ينقل مقياس انكسارنا إلى أشدّ الإدراك والوعي؟

«كل أوروبا تنظر إلى الجنوب. ماذا يرون؟».

«إنهم يرون اليونان».

«إنهم يرون تقلباً ماليّاً، ثقل دين هائل، عجزاً محتملاً».

«النّكبة كلمة أصلها إغريقي».

«هل تخفي اليونان دينْها العام؟».

«هل تنتشر النّكبة بسرعة البرق إلى باقي طبقات الجنوب، إلى منطقة تطبيق العملة الموحدة اليورو بشكل عام، إلى الأسواق الناشئة في كل مكان؟».

«هل تحتاج اليونان إلى كفالة؟».

«هل ستتخلى اليونان عن اليورو؟».

«هل تخفي اليونان طبيعة دينها؟».

«ما دور وول ستريت في الوضع الحرج؟».

«ما هي مقايضات العجز عن سداد أقساط الائتمان؟ ما هو الإفلاس السّيادي؟ ما هي الشركة ذات الغرض الخاص؟».

«لا نعرف. هل تعرف؟ هل تبالي؟».

«ما هي وول ستريت؟ من هي وول ستريت؟».

ضحكات محرجة من الجمهور.

«اليونان، البرتغال، إسبانيا، إيطاليا».

«الأسواق تغرق العالم أجمعه».

«الداو، ناسداك، اليورو، الباوند».

«لكن أين الانسحاب، التوقف عن العمل، أفعال العمل؟».

«انظُر إلى اليونان. انظُر في الشوارع».

«ثورات، اعتصامات، مظاهرات، الأوتاد».

«أنظار أوروبا متجهة إلى اليونان».

«الفوضى كلمة إغريقية».

رحلات ملغاة، أعلام محروقة، حجارة تطير في هذا الطريق، غاز مسيّل للدموع في ذاك الطريق».

«العمّال غاضبون. العمّال يتظاهرون».

«ألقِ اللوم على العامل. اطمُر العامل».

«جمّد أجوره. ارفع الضرائب».

«اسرق من العامل. بئس العامل».

«في أيّ يوم من الآن، انتظر وشاهد».

«أعلام جديدة، لافتات جديدة».

«المِنْجَل والمِطْرقة».

«المِطْرقة والمِنْجَل».

جعلتهما والدتهما تقدمان سطورهما في تدفق معتدل، إيقاع معتدل. لم تكونا تقرآن فقط، بل وتمثّلان، وترسمان تعبيرات على وجهيهما، وتمضيان وقتاً ممتعاً. بئس العامل، قالت كيت. على الأقل أسندَت الأم الجملة الهمجية للفتاة الكبرى.

هل أصبح تقرير الأسواق اليوميّ فقرة أدائيّة؟

انتشرت القصة في السّجن طوال اليوم، من مبنى إلى مبنى، من رجل إلى رجل. كانت تهمّ مدانين بالموت في تكساس أو ميسوري أو أوكلاهوما، وآخر الكلمات كانت تهم شخصاً وافقت الدولة على حقنه بالمادة القاتلة أو الكهرباء.

كانت كلمات من صيحات هتاف: اركل الإطار وأشعل النار - سأذهب إلى المنزل.

شعر بعضنا بالبرودة، وهم يسمعون القصة. هل شعرنا بالعار؟ هل اعتبرنا ذلك الرجل الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة أكثر أصالة منّا، خارجاً حقيقيّاً عن القانون، يستحق انتباه الدولة الأكثر دقة ووحشية؟ كانت نهايته قد أقرّت رسميّاً، رحّب بها البعض فعلاً، وعارضها البعض. إذا كان قد أمضى نصف فترة الحياة في زنزانة، في حبس انعزالي وأخيراً في طابور الموت لقتله شخصاً أو اثنين أو عدة جرائم قتل، أين كنّا وماذا فعلنا لنكون هنا؟ هل نتذكر جرائمنا أصلاً؟ هل يمكن أن نطلق عليها جرائم؟ كانت منافذ، مراوغات، تملّقاً، نصف مجرم.

بعضنا- الأقل ذلّاً، أومؤوا ببساطة إلى القصة، مرسلين مصداقية بسيطة للرجل للشرف الذي جلبه لهذه اللحظة، الشِّعر القروي لتلك الكلمات. عندما سمعت القصة للمرة الثالثة، أو أصغيت إليها، كان السجين في سجن يقع في تكساس. انسَ الأماكن الأخرى - الرّجل، والقصة والسّجن فكلها ينتمي لتكساس. كنا في مكان آخر تماماً، نشاهد برنامج أطفال على التلفاز.

«ما قصة المِطْرقة والمِنْجل؟».

«لا تعني شيئاً. كلمات... مثل أبوظبي» قلت.

«هانغ سنغ في هونغ كونغ؟».

«تماماً».

«إن الطفلتين تحبان نطقها. المِطْرقة والمِنْجل».

«المِطْرقة والمِنْجل».

«أبوظبي».

«أبوظبي».

«هانغ سنغ».

«هونغ كونغ» قلت.

استمرينا على هذه المنوال لفترة. كان نورمان لا يزال يدمدم الأسماء عندما أغلقت عيني وبدأت المنعطف الطويل نحو النوم.

«أظنها متعمّدة. أظنها جادّة. مِطْرقة ومِنْجل» قال.

وقفت أشاهد التلفاز من بعيد. عبروا الكاشف المعدنيّ، واحداً تلو الآخر، وذهبوا إلى قسم الزّوار، الزوجات والأبناء، الأصدقاء الأوفياء، شركاء العمل، المحامون الذين جلسوا واستمعوا في موقع ثقة أثناء تحديق المحبوسين لهم عبر فتحات ضيّقة وهم يشتكون من الطعام، والمهام الوظيفية، تضاؤل فرصة تخفيف العقوبة.

بدا كل شيء مبتذلاً. الزائرون على الرّصيف انتقلوا ببطء وبشكل أحادي اللون. بالكاد كانت السماء موجودة، مستنزفة الضوء والطقس. كانت العائلات مسرعة وشاحبة لحزنها لكني لم أشعر بالبرد. كنت أقف خارج المهجَع، لكن كان من الممكن أن أكون في أيّ مكان. تخيّلت امرأة تمشي بين الآخرين، رشيقة بشعر داكن، بلا مُرافق. أجهل من أين جاءت، من صورة فوتوغرافية شاهدتها مرة، أو فيلم، لعلّه فرنسي، أحداثه في جنوب آسيا، غرام تحت مروحة مثبّتة في السقف هنا، ترتدي سترة بيضاء طويلة وبنطالاً فضفاضاً. كانت تنتمي لموقع آخر، هذا جليّ، لكن لم تكن هناك حاجة للاستفسار عما كانت تفعله هنا. لقد خرجت من عقل وسْنان أو هبطت من سماء مسطحة.

كان هناك اسم لملابسها التي كانت ترتديها وكِدت أذكره، كِدت أقتَنِصه، لكنّه انزلق بعيداً. كانت المرأة هنا، لا زالت، في خفّين باهتين، سترة ممزقة الجوانب، وشكل وردة بسيط على ظهرها.

دارت مروحة السّقف ببطء في الحرارة المرتفعة، فكرة لم أرغب فيها أو أردها، لكنها موجودة، فكرة أكثر من كونِها صورة، تعود لسنوات ماضية.

من هو الرجل الذي جاءت لزيارته؟ لم أكن أتوقع زائرين، لم أردهم، ولا حتى طفلتي، لا يصح أن تشاهداني هنا. كانتا على بعد ألفي ميل على

أيّ حال، ومُنْشغلتين. هل أستطيع لفت نظر المرأة إلى وجودي فوراً، وجهاً لوجه عبر الطاولة في المساحة الكبيرة الخاوية التي سيشغلها المحبوسون، الزوجات والأطفال، حارس وراء مكتب مرتفع، يراقب؟

شيء واحد كنت أعرفه؛ يتكون اسم ملابسها من كلمتين، كلمتين قصيرتين، وسيجعلني أشعر بأن اليوم كان يستحق الانتظار، الأسبوع بأكمله، إذا تذكرت هاتين الكلمتين. ما الذي يمكن عمله غير هذا؟ ماذا يوجد هنا لأفكر فيه ويثمر معياراً جديراً بالتأمل؟

فيتنامية هي الكلمتان، والسترة، والبنطال، والمرأة.

ثم فكر في سيلفان تيلفير. جاءت لزيارته، رجل عنوانه العالَم. كانا قد التقيا في باريس أو بانكوك. وقفا عند سياج ذات مساء، يرتشفان النبيذ ويتحدّثان بالفرنسية، كان سامياً وواثقاً وفي الوقت ذاته كتوماً نوعاً ما، رجل قد تنجذب هي إليه، حتى لو كانت هي فكرتي أنا، رؤيتي السّرية والحريريّة.

وقفت أشاهد، وأفكر.

عندما تذكرت الكلمتين، في وقت متأخر من ذلك النهار، ao dai، كنت قد فقدت اهتمامي بالمسألة.

***

كنّا مجتمعين، ومتكتلين، ومحتشدين، رجال في كل مكان، يعيشون محشورين، يملؤون كل شاغر، مصفوفين على مدّ البصر. أحببت أن أعتبر وجودنا هنا تهذيباً للنفس كرجال في الجماعة الماويّة، نصوّب أخطاءنا، نقوّم وجودنا الاجتماعي عبر التكرار. لقد عملنا، أكلنا ونمنا في روتين آليّ، أسبوعيّاً، يوميّاً، كل ساعة، نتطور من الممارسة إلى المعرفة. لكنها تأملات وقت الفراغ. لعلنا مجرد أطنان من اللحم المتشابه، لحم مجموع في مقصورات، ملجوم في مهاجِع ورُدهات العشاء، مَزْمومين في بدلات بخمسة ألوان، مصنّفة، مقسّمة. هذا اللون لهذا المستوى

من الإهانة. لقد صعقتني الألوان وكأنها نوع من التّحنان الكوميدي، الموجود دائماً، زاهٍ وفاقع، وبارز. حاولت ألّا أفكّر فينا كمهرجي سيرك نسوا تلوين وجوههم.

«أنت تعتبرها عدوّتَك. أنت وهي، أعداء بالدم» قال نورمان.

«لا أظن هذا صحيحاً».

«هذا طبيعي. أنت تظن أنها تستخدم الفتاتين ضدك. هذا ما تعتقده، في قرارة نفسك، سواء أقرَرْت بذلك أم لم تفعل».

«لا أعتقد أن هذه هي القضية».

«حتماً هذه هي القضية. إنها تهاجمك للأخطاء التي ارتكبتها في العمل. ما كان عملك؟ كيف أوصلك إلى هنا؟ لا أظنك ذكرت هذا قط».

«ليس مثيراً للاهتمام».

«لسنا هنا لنثير الاهتمام».

«كنت أديرُ شركةَ رجلٍ يملك مجموعة شركات. معلومات تُنقل من وإلى. أموال غيّرت أيدي: المحامين، والتجار، والمستشارين، والشركاء القدامى».

«من كان ذلك الرجل؟».

«كان والدي» قلت.

«ما اسمه؟».

«لقد توفي قبل الحقيقة».

«أي حقيقة؟».

«حقيقة إدانتي».

«ما اسمه؟».

«والتر برادواي».

«هل أعرف هذا الاسم؟».

«أنت تعرف اسم أخيه هوارد برادواي».

«أحد فرسان الشركات الاستثمارية التي هدفها تحقيق المراكز» قال.

كان نورمان يبحث في ذاكرته عن تأكيد بصري. تصوّرتُ ما كان يتصوّرُه. كان يتصوَّر عمي (هو واي)، رجل ضخم مُحْمَرّ البشرة، عاري الصّدر، يرتدي نظارة طيّار عليها حيوان مصغّر عند انحناءة إطارها. صورة مشهورة للغاية.

قال: «هل هو تقليد عائلي؛ شركات مختلفة، مدن مختلفة، أوقات مختلفة؟».

«لقد آمنوا بالصّواب والخطأ. بالصّواب والخطأ بالنسبة للأسواق، محافظ الأعمال، المعلومات الداخلية».

«إذن فهذا دورك للانضمام للعمل. هل كنت تعرف ما كنت تفعله؟».

«كنت أُحاول إيجاد تعريف لنفسي. هذا ما قال والدي. قال إن الأشخاص الذي يُعرِّفون أنفسهم ينتمون إلى القاموس».

«لأنك تصدِمني كشخص لا يعرف ما يفعله دائماً».

«غالباً أنا أعرف. كنت أعرف حتماً».

بإمكاني سماع نورمان يفك غلاف سولوفان جرّة التين الخاصة به ثم استخدامه لإصبعه ليدْهن به قطعة مكسرات مُقرمشة. في أيام الزّيارات كانت محاميته تُهرّب جرّة من التّين الدلماسيّ التي وصلت إلى السجن، كانت بلا غطاء معدني. قال نورمان إنّه أحب اسم التّين، الدّلماسي، دلماسي... تاريخ البلقان، الأدرياتيكي، الكلب المنقط الضّخم. أحب فكرة تناول طعام بذلك الاسم ومن ذلك المكان، مكوناته كلها طبيعية، وتناوله بمكسرات الكافتيرية العادية، سرّاً، عدة مرات في الأسبوع.

قال إنها أخفت الجرّة في مكان ما من جسدها. كان هذا توصيلاً روتينيّاً وتصديقه ليس ضروريّاً.

«ما هي فلسفتك عن المال؟».

«ليس لديَّ فلسفة تخصّه» قال.

«كان هناك عام حيث جمعت فيه ثروة. عام واحد تحديداً. نستطيع أن

نقول، إن مجموعه يتكون من تسع خانات. يمكنني أن أشعر أنه يضيف سنوات لحياتي. المال يجعلك تعيش أطول. إنه يتسرب في مجرى الدم، في الأوردة والشعيرات الدموية. تحدثت مع طبيبي العام عن هذا. قال إنّه يفهم قصدي وقد أكون مصيباً».

«ماذا عن الفن الذي على جدرانك؟ هل يجعلك تعيش أطول؟».

«الفن. سؤال جيّد. لا أعرف شيئاً عن الفن».

«يقول الناس إن الفن العظيم مخلّد. أنا أقول إن هناك شيئاً خالداً فيه، فهو يحمل بين طيّاته لمحة من الموت».

«كل تلك اللوحات رائعة الأشكال والألوان. كل أولئك الرّسامين أموات» قال.

«رفع يده نحو سريري، صعوداً ونزولاً، بقطعة تين بالمكسرات. رفضت أخذها، لكني شكرته. سمعته يمضغها ويتدثّر في الملاءات، ثم استلقيت منتظراً آخر ملاحظاته على هذا اليوم.

«إنها توجه حديثها لك مباشرة. أنت تدرك هذا، باستخدام الفتاتين».

«لا أعتقد هذا، ولا حتى بطريقة غير مباشرة».

«بكلمات أخرى لم يخطر هذا في بالك».

«كل شيء يخطر لي. أرفض بعض الأشياء».

«ما اسمها؟».

«سارا ماسي».

«جميل ومباشر. أنا أراها كامرأة قوية بجذور ضاربة في العمق. مبادئ، معتقدات. تنتقم من نشاطاتك غير الشرعية، من حقيقة إلقاء القبض عليك، لربما لانضمامك إلى أعمال والدك في المقام الأول».

«كم أنا ذكي لأني لم أعرف هذا! يا للحزن الذي يكتنفني».

«هذه هي المرأة المختلسة في كلماتك. إنها تذكّرك بما فعلت. إنها تكلّمك. أبوظبي، أبوظبي. هانغ سنغ، هونغ كونغ».

كل ما حولنا، مبطّن في ملابس النوم، متوقف في الوقت، صامت بشكل موثوق الآن، رجال لديهم مشاكل في أسنانهم، مشاكل صحية، مشاكل زوجية، متطلبات غذائية، وهن جسديّ، رجال نائمون، الطّنين اليومي لضرائب النفط، تقليل قيمة الضرائب للدولة، جواسيس مشتركون، رشاوي مشتركة، شهادة زور، احتيال في الضمان الصحي، تلاعب بالإرث، تدليس في أملاك الدولة، نصب في كيبلات التلفاز، غش وتدليس.

وصلوا باكراً، تزاحم رجال في الغرفة العامة، بعضهم يحمل كراسي إضافية قابلة للطي، وفتحوها. كان هناك آخرون يقفون في الممرات، عدد إضافي من المحبوسين، الحراس، طاقم الطبخ، ضباط المعسكر. تمكن من التسلل للصف الرابع، بعيداً عن المنتصف بقليل. شعور بأهمية الحدث، أخبار بصوت مرتفع، كل مقاربات القوى العالمية العطفية جاءت بنا إلى هنا في موجة من التّوقع المعقد. مجموعة أزهار كانت مثبتة على إحدى النوافذ العالية. تأخر الرّبيع هذا العام.

كانت هناك أربع غرف مشتركة، واحدة لكل مَهجع، وكنت أكيداً من أنّ جميعها مملوء، مساجين اجتمعوا في تجانس غريب، يستمعون إلى طفلتين تتحدثان عن الانهيار الاقتصادي.

هنا، عند اقتراب وقت العرض، وقف فيليكس زوبر لبرهة من مقعده، رافعاً يده ليسكت الجمع.

لاحظتُ فوراً أن الفتاتين ترتديان سترتين متطابقتين. كان هذا جديداً. كانت الصورة أوضح وأثبت، بالألوان، ثم أدركت أنهما كانتا تجلسان إلى مكتب طويل، مكتب جديد، وليس مجرد طاولة عادية. وأخيراً السيناريو - لم يكن هناك سيناريو. كانتا تستخدمان الملقّن عن بُعد، تلفظان السطور بسرعة عالية بسكتات تكتيكية متفرقة، مناسبة.

«اليونان تبيع سندات توفير، اليورو يرتفع».

«الأسواق تهدأ».

«اليونان تتجه إلى حزم جديد».
«تحررت من الضغط الفوري».
«اليونان وألمانيا تتباحثان».
«أصوات اطمئنان. نداءات للتحلي بالصبر».
«اليونان مستعدة لاسترجاع الثقة».
«مساعدة بقيمة أربعين بليون دولار».
«كيف يقولون شكراً باليونانية؟».
«إفاريستو».
«أعيدي نطقها. ببطء».
«ف. هاري ستوي».
«ف. هاري ستوي».
تبادلتا لكمة تهنئة بقبضة اليد، دون أن تنظرا إلى بعضهما.
«لعل الأسوأ قد انتهى».
«أو لعل الأسوأ قادم».
«هل نعلم إذا كانت كفالة اليونان ستحقق أهدافها؟».
«أم إنها ستحقق العكس؟».
«ما هو العكس تماماً؟».
«فكر بالأسواق في مكان آخر».
«هل ينظر أيّ شخص إلى البرتغال؟».
«الكل ينظر إلى البرتغال».
«دين مرتفع، نمو منخفض».
«استدِن، استدِن، استدِن».
«اليورو، اليورو، اليورو».
«أيرلندا لديها مشاكل. أيسلندا لديها مشاكل».
«هل فكرنا بالباوند البريطاني؟».
«حياة وممات الباوند البريطاني؟».
«الباوند ليس اليورو».

«بريطانيا ليست اليونان».

«لكن هل يظهر الباوند أيّ علامات هبوط؟ هل سيلحقه اليورو؟ هل الدولار مختلف عنهما؟».

«هناك حديث عن الصّين».

«هل هناك مشكلة في الصّين؟».

«هل هناك فقاعة في الصّين؟».

«ما اسم عملة الصّين؟».

«لاتفيا تخلت عن عملتها اللاتس».

«تونغا لديها بونغا».

«الصّين لديها ريمبي».

«الريبيمبو».

«الصّين لديها ريبوبو».

«قريبيوبو».

«ماذا يحدث بعد ذلك؟».

«لقد حدث بالفعل».

«هل يتذكر أيّ شخص؟».

«غرقت الأسواق بألف نقطة في ثُمْن الثانية».

«عُشر الثانية».

«أسرع وأسرع، أبطأ وأبطأ».

«عشرون من الثانية».

«الشاشات تضيء وتهتز، الهواتف تطلق الجدران».

«مئة من الثانية. ألف من الثانية».

«غير حقيقي، ليس حقيقيّاً، سرياليّاً».

«من يفعل هذا؟ ما هو مصدر هذا؟ أين يذهب؟».

«لقد حدث في شيكاغو».

«لقد حدث في كنساس».

«إنه فيلم، إنه أغنية».

بإمكاني أن أشعر بالمزاج في الغرفة، توتر متزايد، الحاجة لشيء إضافي، شيء أقوى. بقيت منفصلاً، أشاهد الفتاتين، متسائلاً عن والدتهما، ماذا لديها في ذهنها، إلى أين كانت تقودنا.

قالت لاوري بنعومة، بصوت مرح: «بمن نثق؟ إلى أين نلتفت؟ كيف سنخلد للنوم؟».

قالت كيت بنشاط: «هل بإمكان تقنية الحاسوب مجاراة التجارة الإلكترونية؟ هل ستعود شكوك المدى الطويل بالربح لشكوك المدى القصير؟».

«ما هي تجارة الإصبع السّمين؟ ما هو الانخفاض القصير العاري؟».

كم من التريليونات من الدولارات رهنت لاقتصاديات اليورو النّازف؟».

«كم صفراً في الترليون؟».

«كم من اللقاءات في عمق الليل؟».

«لماذا يستمر سوء الكارثة؟».

«البرازيل، كوريا، اليابان، أيّ مكان».

«ماذا يفعلون؟ وأين يفعلونه؟».

«إنهم يضربون في اليونان».

«إنهم يتظاهرون في الشّوارع».

«إنهم يحرقون المصارف في اليونان».

«إنهم يعلقون اللافتات على المعابد المقدّسة».

«يا أهل أوروبا استيقظوا».

«يا سكّان الأرض اتّحدوا».

«إنّ الموجة ترتفع، إنّ الموجة تمتد».

«في أيّ طريق؟ بأيّ سرعة؟».

ساد صمت طويل. شاهدنا وانتظرنا، ثم وصل تقرير الأخبار إلى اللحظة الحاسمة، تصرّف أو مت، نقطة اللّاعودة.

تلت الفتاتان معاً:

«ستالين خروتشوف كاسترو ماو».

«لينين بريجنيف إنجلز - بو!».

هذه الأسماء، التّعجب، قالتاها بصوت سريع، مما جعل المسجونين يصدرون ضوضاء عفوية. أيّ نوع من الضّوضاء كانت؟ ماذا كانت تعني؟ جلست متحجّر الوجه، وسطهم، محاولاً أن أفهم. أعادت الفتاتان السّطور مرة، ثم مرة أخرى. صاح الرّجال وصرخوا، هؤلاء المجرمون المتخاذلون ذوو الياقات البيض، بدا أنهم يرفضون كل ما آمنوا به في حيواتهم.

«بريجنيف خروتشوف ماو هو».

«لينين ستالين كاسترو زاو».

تتابع توالي الأسماء. كانت تشبه إنشاداً مدرسيّاً، نداء المشجّعات القافزات، واستجابة الرّجال تضاعفت حجماً وشعوراً. كانت هائلة، استجابة تامّة، وقد أرعبتني. ما الذي كانت تعنيه هذه الأسماء لهؤلاء المحبوسين؟ كنا قد ابتعدنا كثيراً عن تلك الأسماء المضحكة في التقارير السابقة. لهذه الأسماء الجديدة وقعها الجسيم على التّاريخ. هل يريد المحبوسون استبدال عقيدة، نظاماً حكوميّاً بآخر؟ كنّا مخلّفات النّظام النّهائية، النّاتج المنطقي، صفعات من الرأسمالية. كانت لنا أيضاً أسر وبيوت، بغضّ النظر عن وضعنا الحالي. لدينا معتقدات، والتزامات. تجاوزت الأنظمة، كما اعتقدت. كانتا تؤكدان أن لا شيء يهم، أنّ الفروقات ماتت. لتتداعى الأسواق وتموت. لتتحول كل المصارف، كل قطاعات السمسرة، المجموعات، العوائد، السندات، والمؤسسات إلى غبار.

«ماو زو - فيديل هو».

كانت الممرات، في هذه الأثناء، هادئة وساكنة - الحرّاس، الأطباء، مديرو المعسكر. أردت أن أنتهي. أردت أن تعود الفتاتان إلى المنزل، أن تقوما بواجباتهما، تعودا إلى هاتفيهما المحمولين.

«ماركس لينين تشي - هي!».

كانت والدتهما مجنونة، تخادع في تقرير للأطفال. السّجناء حائرون، يحرضون أنفسهم على فوضى غبيّة. وحده فيليكس زوبر كان منطقيّاً، ينفخ في قبضته، بضعف، رجل موجود هنا لمحاولته تمويل ثورة، قادر على سماع الأبواق والطبول في الأسماء المتكررة. استلزم انحسار الطاقة في الغرفة وقتاً، صار صوت الفتاتين أهدأ الآن.

«جميعنا ينتظر الإجابة».

«بالتالي، يقول المُحلّل».

«في النهاية، يحافظ المستثمرون».

«في مكان آخر، يدّعي الاقتصاديون».

«في مكان ما، يصرّ المسؤولون».

«قد يكون هذا سيئاً» قالت كيت.

«سيء بأيّ قدر؟».

«في غاية السّوء».

«سيء بأيّ قدر؟».

«سيء لنهاية العالم».

حدّقتا في الكاميرا، وختمتا حديثهما بهمس.

«أف. هاري ستو وي».

«أف هاري ستو وي».

انتهى التقرير لكن الفتاتين ظلّتا على الشاشة. جلستا تحدّقان، وجلسنا نشاهد. صارت اللحظة مقلقة. حدّقت لاوري في الجانب ثم دفعت كرسيّها وخرجت من مدى الكاميرا. ظلّت كيت ثابتة. شاهدت نظرة مألوفة في عينيها وفمها وفكّيها. كانت هذه نظرة عدم الالتزام. لماذا عليها الانصياع إلى خروج مُحرج تسبب به خطأ تقنيّ؟ كانت لتحدق فينا كلنا. ثم تخبرنا بحقيقة شعورها بخصوص المسألة، عن البرنامج نفسه والأخبار ذاتها. هذا ما جعلني أرغب في الوقوف والمغادرة، أن أنسَل بشكل لامرئي من صف المتفرجين بطول الجدار إلى ضوء بعد

الظهيرة المُغبر. لكنّي بقيت وشاهدت وهكذا فعلت هي أيضاً. كنّا ننظر إلى بعضنا. أمالت جسدها إلى الأمام، وهي تضع مرفقيها على المكتب، ويداها مثْنيتان إلى مستوى ذقنها كمعلمة صف خامس فقدت صبرها مع ضحكي وتَمَلْملي أو غبائي فقط. كان للتّوتر كتلة ووزن. هذا ما كنتُ أخشاه، أن تتحدث عن الأخبار، أخبار دائماً طوال الوقت، وعن والدها الذي قال إن الأخبار وُجدت لتختفي، هذا هو مغزى الأخبار، مهما كانت القصة، أينما حدثت. نحن نعتمد على اختفاء الأخبار، قال والدي. بعدها صار أبي هو الخبر، ثم اختفى.

لكنّها جلست هناك ونظرت فقط وسرعان ما شعر المساجين بعدم الراحة. أدركت أنّ يدي كانت تغطي الجزء السفلي من وجهي، في تقزز أبوي لا داعي له. البشر في الغرفة، غادروا بأعداد قليلة في البداية، ثم تضاعف العدد، بعدها غادروا في مجموعات، بعضهم كان ينحني وهم يغادرون بين الصفوف. لعلهم كانوا يحذرون كيلا يحجبوا المشهد عن الآخرين، لكنّي أعتقد أن أغلبهم كان ينسل خارجاً بندم وعارٍ. وعلى أيّ حال، ظل المشهد على حاله، الكاميرا على كيت، تجلس وتنظر إليّ. شعرت بالتقعُّر لكنّي لم أتمكن من المغادرة وهي لا تزال هناك. انتظرت حتى تصبح الشاشة خالية وأخيراً، بعد دقائق طويلة، حدث هذا.

خلت الغرفة بمجرد بدء عرض فيلم رسوم متحركة - صبي بدين يتقلّب على طريق غير مستوٍ - إلّا من فيليكس زوبر الذي كان ما يزال جالساً في المقدمة، هو وأنا في حضور منعزل الآن، وانتظرت أن يلتف ويلوّح لي، أو ببساطة يكون هناك، ميتاً.

فتحت عينيّ قبل شعاع الشمس وكان الحلم لا يزال موجوداً، يحوم، غير ملموس تقريباً. لا يمكننا إنصاف أحلامنا، تجديدها في الذاكرة. يبدو أنها مستعارة، جزء من حياة أخرى، قد تكون أحلامنا فقط في الهوامش القصيّة. امرأة تقف تحت مروحة معلقة بالسقف في غرفة مرتفعة لها ظل في مدينة هو تشي مين، اسم المدينة اكتنف الحلم بشكل لا يمكن إزالته،

والمرأة، محجوبة ماليّاً، تتقدم بخفيها وبدت مألوفة، وبدأت الآن أعرف لماذا يحدث هذا، لأنها زوجتي، منتهى الغرابة، سارا ماسي، بهدوء تطرح ملابسها، بنطال خفيف، اسمه (شروال).

هل كان مقصد هذا أن يكون غزليّاً، أم ساخراً، أم مجرد حزمة أخرى من بقايا الذاكرة؟ جعلني التفكير فيه مضطرباً وبعد لحظة نزلتُ من نهاية السرير العلوي، بهدوء. لا زال نورمان مستلقياً، مرتدياً عصابة العينين للنوم. ارتديت ملابسي وغادرت مكان النوم لأشاهد بزوغ الفجر. ثكنة العسكر عند مدخل السّجن كانت مضاءة، شخص ما كانت عليه مهمّة السّماح لشاحنات التّوصيل التي ستصل محمّلة بالحليب، والبيض، ودجاج مقطوع الرّأس من المزارع المحليّة. قطعت الطّريق إلى السّياج الخشبي القديم وتفاديت القضبان، ثم وقفت فترة من الزّمن، محدقاً في الظلام، مدركاً أنفاسي، وقد أدهشتني، كما لو كانت حدثاً نادراً ولحظيّاً.

استشعرت طريقي بتأنٍّ على طول صفّ من الأشجار المُصْطفّة على جانب درب قذر. تحركت باتجاه صوت الازدحام المروري ووصلت إلى الجسر السريع خلال عشر أو اثنتي عشرة دقيقة. كان الجسر مغلقاً بسبب الازدحام، إضافة لوجود أعمال إنشائية. وقفت في المنتصف تقريباً وشاهدت السّيارات تسرع في الأسفل. كان هناك نصف قمر منخفض معلق ويبدو بغرابة مغموراً في الغيم المُمتقع. مسير السيارات على الطريق متواصل، ومتسارع، سيارات بباب خلفي، وشاحنات، جميعها تحمل سؤال من نحن وإلى أين، في هذه الساعة المبكرة، سؤال لا صوت له، لا كلمات له، أثناء مرورها تحت الجسر.

شاهدت واستمعت، غير مدركٍ لمرور الوقت، متفكراً في ترتيب وانضباط المرور، ببديهية، سائقو سيارات يحافظون على المسافة، رجال ونساء معرضون للخطأ، سيّارات أمامهم، خلفهم، إلى جانبيهم، يقودون ليلاً، أفكار تُقاد. لماذا لا تحدث الحوادث كل بضع ثوانٍ تحت امتداد هذا الجسر، حتى قبل الازدحام الصباحي؟ هذا ما فكرت به من

موقعي عليه، الضوضاء المتدفقة والسّرعة الشديدة، وتقارب المركبات والفوارق الرئيسة بين السائقين، وأجناسهم، وأعمارهم، ولغاتهم، وأمزجتهم، وتواريخهم الشخصية، سيارات تشبه تلك التي في الرّسوم المتحركة، لكن هناك لحم ودم في الأسفل، فولاذ وزجاج. بدا انتقالهم بأمان نحو وُجهاتهم الغامضة أعجوبة بالنّسبة لي.

هذه هي الحضارة، فكرت، لغز التقدم الماديّ، وأشخاص في حركة دؤوبة، يختبرون حدود الزمن والمساحة. لا يمانعون انبعاث الوقود الفاسد، إفساد الكوكب. قد يكون الخطر حقيقيّاً لكن لا يمكن تفاديه أو تغطيته ببساطة. ما كنت أشاهده أيضاً حقيقيّاً لكن كان له وقع هائل، أو ربما حادثة موجودة منذ الأزل والتي تضطرم في عينيْ وعقل من يلاحظها كانفلاق التّنوير. انظر إليهم، أيّاً كانوا، يتصرفون في تناغم ضمني، يتحققون هاتفياً وبالأرقام، يظهرون أحكاماً ومهارة، ينعطفون، يتوقفون بلطف، يتنبؤون، ينتبهون لثلاثة أو أربعة اتجاهات. أصغيت إلى اندفاع الهواء وهم يمرون من تحتي، سيارة تلو السيّارة، سائقون يتخذون قرارات آنيّة، الأخبار والأحوال الجويّة في مذياعهم، عوالم مجهولة في أفكارهم.

لماذا لا يتسببون بحوادث طوال الوقت؟ بدا السّؤال عميقاً بالنسبة لي، مع انبلاج الفجر شرقاً. لماذا لا يُصطدم بهم من الخلف أو من الجانب؟ بدا هذا حتميّاً بالنسبة لي من منظوري المرتفع - سيّارات تتجه إلى حواجز الحماية، في عملية مُهلكة. لكنّها ظلّت تأتي، من اللامكان، مصابيح أمامية، ومصابيح خلفية، تذهب مع بزوغ النهار إلى الليل التالي.

أغمضت عيني واستمعت. سأعود قريباً إلى المعسكر، وأغرق في روتين تلك الحياة. أدنى درجات الأمن. بدا طفوليّاً، مصطلح مقتضب وضيّق. أردت أن أفتح عيني على طرق خاوية وأنوار متوهجّة، نهاية العالم، اقتراب قصف شيء لا يمكن تصوّره. لكن إلى أدنى درجات الأمن أنتمي، أليس كذلك؟ أقل كمية محتملة، أدنى درجات التقيّد.

كنتُ هنا، غائباً، شخصاً سيعود. عندما فتحت عيني أخيراً، كان الظلام قد انقشع، والازدحام ازداد، درّاجات ناريّة، شاحنات مسطحة، سيّارات عائليّة، سيّارات إصلاح، السائقون ينظرون إليَّ، الضوضاء والاستعجال، شعور قهري بالضّرورة.

من هم؟ وأين يذهبون؟

تذكرت حينها أني كنت مرئيّاً لهم، رجل على جسر، في هذه الساعة، على هيئة ظِل، رجل يقف ويشاهد. ستكون استجابة طبيعية للسائقين، بعضهم ينظر للأعلى ويستغرب.

من هو؟ وماذا يفعل هناك؟

إنه جيرولد برادواي، قلت لنفسي، وأنا أتنفس الصّعداء.

الْجائِعَة

قبلها بوقت طويل، كان يعيش في غرفة. لم يكن يتمنى ظروفاً معيشية أفضل. كان ينتمي إلى هذا المكان، نافذة واحدة، ومكان للاستحمام، وطبّاخ، وثلاجة صغيرة في دورة المياه، وخزانة لممتلكاته القليلة. أحداث كثيرة تستحق التأمل. جلس ذات صباح يشرب القهوة محدقاً في الفراغ عندما انبعثت شرارة من المصباح المثبت على الجدار. «تمديدات أسلاك خاطئة»، قال لنفسه بهدوء، وهو يطفئ سيجارته. شاهد تصاعد الدّخان، غطاء المصباح احترق وذاب. انتهت الذكرى هنا.

الآن، بعد عقود، جلس يشاهدها، تلك التي تقيم معه. كانت عند حوض الغسيل في المطبخ، تغسل إناء الحبوب، بيد فيها صابون لتنظيف حوافّه. إنهما منفصليْن الآن، بعد زواج استمر خمس أو ست سنوات، وما يزالان يتشاركان الشّقة، شقته، شقة في الدور الثالث، مساحة كافية، نوعاً ما، وكلبٌ صغير ينبح بالجوار.

كانت لا تزال متكئة على حوض الغسيل، (فلوري)، منحية قليلاً. بدأ الآن في ملاحظة تلاشي اللون الأشقر من شعرها. إحدى حمّالات صدرها معلقة على مقبض الخزانة. نظر للحمّالة متسائلاً منذ متى وهي هناك. تتقدّم الحياة ببطء من حولهما. غير مألوفة. ولم يكن هناك الكثير لرؤيته ولم يشاهد الكثير من الأفلام خلال الساعات، والأيام، والأسابيع، والأشهر الماضية. كانت الحمّالة على مقبض باب الخزانة مسألة أشهر، قال لنفسه.

جلس على سريره في الزّاوية الأخرى من الشقة الضيّقة، وهو يستمع إليها وهي تتحدث بفتور عن عملها الجديد، المؤقت، إعداد تقارير المرور في الإذاعة. كانت ممثلة، بلا عمل غالباً، ولذلك كانت تقبل بما يعرض عليها. كان صوتها هو الوحيد الذي استمع إليه خلال أيام، إيقاعه متدفق بلكنة جنوبية، لكن صوتها في الإذاعة كان أداة قويّة، نابض بالحيوية وممزوج بإرهاق، وعندما يكون في المنزل - وهو أمر نادر خلال ساعات النهار - يشغل المذياع ويستمع إلى محطة الأخبار حيث تكون لها فقرة قصيرة كل إحدى عشرة دقيقة، تقدم فيها تقريراً عن الدّمار المعتاد في العالم.

تتكلم بسرعة كبيرة، كلمات وعبارات رئيسة متلاحقة بخبرة في نسق واحد؛ الحوادث، وإنشاءات الطرق، والجسور والأنفاق، والتأخيرات المدروسة بزمن جيولوجي، وطريق (بي. كيو. إي. أف. دي. أر) دائماً بيبليكال كروس برونكس، عشرة آلاف سائق بعيون مجهدة ينتظرون فتح البوابات، تباعد الجسر.

شاهدها تقترب الآن، تتمايل، لغة جسدها تستفسر عن شيء ما، رأسها يتخبّط يمنة ويسرة، عينان تتفحصان شيئاً. توقفت على بعد خمس أقدام منه.

«هل قصصتَ شعرك؟».

جلس يفكر، ثم عدّل ظهره ومرر إبهامه على قفاه. قصة شعر سريعة في يوم مزحوم، مصيرها النسيان.

«أظن ذلك، طبعاً».

«متى؟».

«لا أعرف. ربما قبل ثلاثة أيام».

تنحّت جانباً، واقتربت مجدداً.

«ما خطبي؟ لقد لاحظتها توّاً... ماذا فعل لك؟» قالت.

«من؟».

«الحلّاق».

«لا أعرف. ماذا فعل لي؟».

«لقد قضى على عِذارك» قالت.

لمستْ جانب رأسه، وهي تبجّل هذه اللحظة، بدا، مما حدث، أنّ يدها لا زالت مبلولة من إناء الحبوب. ثم ابتعدت، وارتدت سترة وخرجت من الباب. هذا ما فعلاه، كانا يأتيان ويخرجان. كان عليها أن تسرع إلى الاستديو، في منتصف البلدة، وكان هناك فيلم يجب أن يذهب إليه، في العاشرة وأربعين دقيقة، على مقربة من هنا، ثم فيلم آخر في مكان ما، ومكان آخر بعد ذلك، ثم مرة إضافية قبل أن ينتهي يومه.

كان يوماً صيفياً مكتظّاً وكان هناك رجال في بدلات برتقالية يحفرون في منتصف الشارع الخارجي، برافعات إسفلت تؤطر فتحة أوليّة وكل شيء على الجانبين له مقاييس دفاعية، سيارات أجرة متوقفة، ومارّة يركضون عبر الشارع في مراحل، في تدفقات تكتيكيّة، وهواتف محمولة ملتحمة برؤوسهم.

مشى باتّجاه غروب الشمس، وبدأ يشعر بلحم جسده في خطواته، وعرض صدره ووركيه. لطالما كان ضخماً، وبطيئاً، وقويّاً وقد صار أضخم وأبطأ الآن. شحوم يدخلها في فمه، دون أن يقاومها، وهو يجلس إلى الطاولة في العشاءات أو وقوفاً أمام عربات تسوق الطعام. لم يكن يتناول الوجبات، بل يختطف الوجبات، يختطف لقمة ويدفع ويغادر، وما أكله قد يبقى لساعات في مكان ما في الجزء السفلي من جسده.

انعطف شمالاً إلى الحيّ السّادس، وهو يعرف أن قاعة العرض السينمائية ستكون خالية تقريباً، ثلاثة أو أربعة أنفس وحيدة. مرتادو سينما في وقت يندر وجود أحد فيه. كان هذا هو الحال تقريباً عند الصباح المتأخر أو بعد الظهيرة. هم وحيدون حتى لو غادروا السينما، لا يتبادلون كلمة أو نظرة، على عكس الأشخاص الذين يشاهدون الأفلام في أوقات أخرى.

دفعَ المبلغ، أخذ التذكرة، ناولها للموظّف في الرّواق واتجه مباشرة إلى دورة المياه. وبعد دقائق شغل مقعده في القاعة الصغيرة وانتظر عرض الفيلم. ينتظر الآن، ويستعجل لاحقاً، كانت هذه هي قواعد اليوم. كانت الأيام متشابهة، والأفلام لم تكن كذلك.

اسمه هو (ليو زيليزينياك). استغرقه التّأقلم مع اسمه نصف عمره. هل كان يظن أن هناك رنيناً للاسم، أو اغتراباً، تاريخاً، لا يمكن معرفته؟ أشخاص آخرون عاشوا في اسمه. اعتاد أن يتساءل إذا كان الاسم نفسه يصنع أيّ فرق. لربما يريد أن يشعر بالانفصال مهما كان الاسم المسجّل على البطاقات البلاستيكية في محفظته.

كان صفّ المقاعد بأكمله له، فجلس في المنتصف تماماً عند تعتيم القاعة. أيّاً كانت أقمار الاضطراب والشجن التي تحوم حول تجربته، قريبة أم بعيدة، كان هذا هو المكان الذي يتبخر فيه كل شيء.

كان لدى فلوري أفكار بخصوص وظيفته. في بداية تلك السنوات - بين وظائف التمثيل، والدبلجة، والتسويق في المعارض، والترفيه عن الكلاب - رافقته أحياناً، ثلاثة أفلام في أيام معينة، وحتى أربعة، ابتكاره، نوع من الجنون. هناك في الظلام، تأثير متباين، مشهد إثر مشهد، لقطة إثر لقطة... كان كلاهما يعرف هذا. وكانا يعرفان أيضاً أنها لن تفعل شيئاً لتساومه على استقامة تجربته -لا همسات، وكزات، أكياس فُشار. لكنها لم تبالغ في شعورها بالتّروي الحذر. لم تكن امرأة تافهة. كانت تعرف أنه لم يكن يحوّل إلهاء روتينيّاً إلى هوس شيطاني.

إذن، ماذا كان يفعل؟

حاكت النّظريات. « كان متنسّكاً»، قالت لنفسها. كانت هذه إحدى النظريات. لقد وجدت شيئاً مقدّساً ومجنوناً في التزامه، عنصر إنكار للذات، عنصر تكفير. اجلس في الظلام، وبجّل الصّور. هل كان والداه كاثوليكيين؟ هل كان جداه يذهبان إلى التّجمع يوميّاً، قبل الفجر، في قرية ما في جبال الكاربات، يردّدان كلمات راهب له لحية بيضاء طويلة

ورداء ذهبي؟ «أين تقع جبال الكاربات؟» قالت. ليلاً يكونان عادة في السرير، جسدان مرتاحان، وكان يحب الاستماع إلى هذه الأفكار. ولم تحاول إبعاده عن هذه الحالة. لعلها كانت تعرف أنه سوف سينجرف خارج مسامه، سخونة في الجلد بدل أن ينتج عقله الواعي.

أم كان رجلاً يهرب من ماضيه. احتاج أن يحلم بعيداً عن ذكرى طفولته الكدِرة، مشاكل الشباب. «إنّ الأفلام أحلام يقظة»، قالت له، حماية له من فقدان الذاكرة، من تلك اللعنة المبكرة، ذلك التلف. بدت وكأنها تتكلم بسطور ممسوخة من مسرحية أحبتها ذات يوم. صوتها العذب، الذي كانت قادرة على نشره، كان يحيّر ليو أحياناً، الذي بدأ يشعر بانتشاء تحت الملاءات.

سألته: «هل تذهب للسينما لتشاهد فيلماً، أو ربما أكثر تحديداً، أكثر أهمية، لتكون في السينما ببساطة؟

فكّرْ في هذا الموضوع.

بإمكانك الجلوس في المنزل ومشاهدة التلفاز، فيلماً تلو الآخر، عبر الأقمار الصناعية، ثلاث مئة قناة»، قالت له، «إلى آخر الليل. لن تضطرّ للتنقل من سينما إلى أخرى، عبر الأنفاق، وبالحافلات، بقلق وسط الازدحام. ستشعر براحة أكبر، وستدّخر المال لنفسك، وستأكل وجبات نصف محترمة.

فكّرْ في هذا. أمور بديهيّة، أليس كذلك؟ وجود بدائل أكثر بساطة. كل بديل أبسط من الآخر. الحصول على وظيفة كان حلّاً أبسط. الموت كان أبسط». لكنه فهم أن سؤالها كان فلسفياً وليس واقعياً. لعل في السّينما راحته الأعمق. أن يكون في السينما ليكون في السينما. «فكّرَ في هذا». كان يدين لها بهذا السؤال.

دخلت المرأة عند بدء الفيلم. لم يشاهدها منذ فترة، والآن فقط أدرك أنّه كان قد لاحظ غيابها. كانت متفرّجة جديدة - هل الكلمة صحيحة؟ لم يكن متأكداً متى بدأ يشاهدها. بدت غريبة، هزيلة قليلاً، وكانت أصغر

بكثير من الأخريات. كان هناك آخرون، مجموعة من أربعة أو خمسة أشخاص قاموا بالتجول يوميّاً، كل منهم له أو لها جدول التزامات صارم، يقطعون المدينة، من سينما إلى سينما، طوال النّهارات، والليالي، ونهايات الأسبوع، والسّنوات.

لم يعتبر ليو نفسه جزءاً من مجموعة المتفرجين. لم يتحدث مع الآخرين، إطلاقاً، ولا بأيّ كلمة، ولا بكلمة معهم. ومع ذلك شاهدهم، بين الفينة والأخرى، هنا وهناك، أحدهم أو الآخر. كانت أشكالهم مبهمة، ووجوههم شاحبة، في ملابس مضجرة، وتواصل مُضجر.

حاول أن لا يهتم بوجود الآخرين، لكن كيف نجحوا في إزعاجه؟ لا يمكنه تفادي النظر إليهم. يلتقي بشخص في سينما (الكواد)، وآخر في يوم آخر في سينما (سن شاين)، وآخرين في سينما (إمباير 25) في البناء الدائري الشاسع أو على المنحدر الطويل والضيق الذي يبدو أنه يرتفع عن الجحيم.

لكن هنا مكمن الاختلاف، كانت هي المختلفة، وهو كان يشاهدها. كانت تجلس أمامه بصفّين، عند الطرف، مع المشاهد الأولى التي تجلب ضوءاً خافتاً إلى مقدمة السينما. لا شيء من أفكاره يمكن اختزاله في كلمات.

كانت هناك دورة مياه ضيقة يتشاركانها، حيث يصعب أن يحشر جسده بين الأنبوب والجدار والمرحاض.

وكان يغادر سريره المتنقل أحياناً، بدعوة، ويمضي الليل مع فلوري في غرفتها. كان لديها حبيب، (آفنر)، لكنها لم تقل شيئاً عنه عدا اسمه وحقيقة أن لديه ابناً يعيش في واشنطن.

وكانت هناك صورة جدتها وجدها على أحد الجدران، نوع من صور العائلة القديمة التي خفت لونها وتجمع أسلاف المرء، أجداده، وأقاربه المتوفين.

وكانت هناك دفاتر ملاحظات محشورة في نهاية الخزانة، دفاتر إنشاء ليو، ذكرى من أيام الدراسة، أغلفة بيض وسود مزركشة. بدأ تدوين ملاحظاته فيها عندما تعرف إليها. سنوات وأميال من الخربشات والملاحظات التي دوَّنها عن الأفلام التي شاهدها: اسم دار العرض، عنوان الفيلم، وقت بدايته، زمن عرضه، أفكار مبعثرة عن الحبكة، الأساسيات، المشاهد وكل ما يخطر في باله - جلوس المراهقين الثرثارين بجواره وماذا قال ليخرسهم، أو الطريقة التي تختفي فيها الترجمة البيضاء في المشهد، عند احتدام الجدال باللغة الكوريّة أو الفارسية.

في السرير معها، يخطر في باله (آفنر) في شكل متغيّر ومحجوب، حضور مبعثر يهيمن على الغرفة.

كانت فلوري تحب أن تلكمه في معدته، على سبيل المزاح. حاول أن يبحث عن المتعة في ذلك. عادة، متأخراً، كان يعود إلى المنزل ليجدها تلكم ملابس نومه. كان هذا جزءاً من خطوات حِميتها، حركة متجددة والتأمل الطويل، وجهها إلى الأرض، منشفة صحون على عينيها. كانت تقوم باللّكم صيفاً. تسافر لأسابيع أحياناً. فتتبلّد أحاسيسه، ويدرك عندها أنه وحيد في الشقة.

وجهه في المرآة يصبح غير متماثل تدريجيّاً، ملامحه لم تعد موجودة على المحور ذاته، الحاجبان غير مستويين، الفك منحنٍ، وفمه مائل قليلاً.

كانا يعيشان تقريباً على اللاشيء، مدّخراته قليلة وعملها متقلّب. كانا يعيشان على العادة، فترات صمت طويلة لم تكن مقلقة أو متعمدة. وفي أوقات أخرى، يدرسان نصّاً مسرحيّاً، تجلس على الأرض، وهي تجرب الأصوات، بينما يستمع إليها دون تعليق. اعتادت على قص شعره لكنها توقفت عن ذلك.

إذا نسيت شيئاً ما كانت ترغب في قوله له، تذهب إلى مكان تكوّن الفكرة: المطبخ، دورة المياه، غرفة النوم، وتنتظر أن تتذكرها.

كانت هناك قنينة فودكا بولندية على قوالب الثلج في البرّاد. لعلها تجاهلت وجودها لثلاثة شهور. وذات منتصف ليل، ارتشف منها وبانتظام من قدح ماء، استلقى على سريره لساعة بعدها والعالم كله مغلق، لا شيء منه عدا ألم أخير ينبض في جبينه.

في المذياع صوت فلوري وهي تقرأ تقارير المرور، صوت فلوري مضغوط في خمس وعشرين ثانية من تحذيرات الاختناق المروري، إغلاق مسارات في الشارع، إصلاحات طارئة للطرق. جلس محدودب الظهر عند المذياع يستمع لأخبار عن الازدحام التام بسبب مركبة انقلبت على طريق (غونس) الدّاخلي. وكانت هذه التّقارير التي تنقل الجوانب السلبية في الحياة تنقل بعاميّة يهود أوروبا، بأداء متسارع وتقديم متمكن.

كانت هناك حقيقة أنها لم تمثّل في فيلم البتّة، ولا حتى في دور ثانوي، ولا في مشهد مزدحم، وكان يتساءل إذا كانت تلقي باللوم عليه في الآونة الأخيرة.

وكانت هناك كل الأشياء التي عاشها معها، أشياء عادية تشكل بغرابة واقعهما، أشياء تلمس ولا ترى، أو يُرى من خلالها.

أمضى عاماً في الكليّة في أواخر العشرينيات، يعمل ليلاً في مكتب البريد في الحيّ الثامن، وقد درس مقرراً دراسيّاً عن الفلسفة والذي كان يتوق له، أسبوعاً تلو الأسبوع، صفحة بعد صفحة، مستخلصاً حتى الهوامش في النص.

بعدها صار المقرر صعباً فتوقف عن الحضور.

إذا لم نكن هنا لنعرف ما هو الشيء، فما وجودنا إذن؟

كانت حمّالتها معلقة على مقبض الباب على الخزانة.

فكّر، ما هو؟

غادر مقعده عندما بدأ عرض الأسماء معلناً انتهاء الفيلم. فعلٌ كان يقوم به فقط إذا كان جدول يومه ضاغطاً. لم يكن هذا هو الحال اليوم. ذهب خارجاً إلى الحيّ ووقف قرب المبنى. واجه دار السينما وانتظر.

مرّ رجل، يضع أحمر شفاه، مما جعل ليو ينظر عالياً ليتفحّص الشمس.

وبعد وقت قصير خرجت المرأة. كانت ترتدي جينز أسفله مثني في حذاءيها الطويلين وبدت مختلفة في الضوء الساطع، أبيض، أرفع، لم يكن متأكداً. توقف للحظة، مرّ الناس. ظن أنها هي أيضاً تبدو قلقة ثم فكر أنه لم يكن قلقاً، بل هو حذر أساسي للتفاصيل الجوهرية، العرض التالي، أسرع طريق للوصول إلى هناك. كانت ترتدي قميصاً رمادياً فضفاضاً وتحمل حقيبة كتف.

اندفعت سيارات الأجرة خلفهما.

بدأت في الابتعاد، شعر أشقر طويل، خطوات واسعة مقصودة. اكتشف أنها تتجه إلى مدخل قطار الأنفاق شمالاً. وقف في مكانه للحظة طويلة، ثم وجد نفسه يمشي في الاتجاه ذاته، يتبع. هل كان يتبعها؟ هل احتاج شخصاً ليخبره ما كان يفعل؟ هل احتاج أن يتفحص موقعه في النظام الشمسي لأنه سوف يُرى وهو يضع واقي الشمس على شفتين؟

الفيلم الثاني في يومه سيعرض في النّاحية الأخرى من المدينة، في الشارع السادس والثمانين غرباً، لكن بإمكانه أن يستقل قطاراً هنا، إذا سمح الحال، ثم سيشق طريقه عبر الحديقة باستخدام الحافلة. طبقاً لمقرر ترحاله اليومي كان عدمّ استخدامه لسيّارات الأجرة أمراً مسلّماً به، وكأنّ استخدام سيارة الأجرة غِشّ، حتى لو لم يكن متأكداً من معنى ذلك، لكنه كان يعرف تماماً قيمة النقود، حقيقة كل ورقة نقدية ملموسة تغادر يده - أوراق مالية مطويّة، وعملات معدنية.

حثّ خطاه الآن، ثمّ وصل إلى بطاقة قطع التّذاكر. بالكاد كانت في مدى بصره، بالكاد، في الممشى. بطاقة التنقل في جيبه، والأيام مكتوبة على البطاقة الرئيسة في الجيب الآخر. في جيبه عملات معدنية قليلة، ومحفظة، ومفاتيح المنزل، ومنديل، كل الأشياء العادية التي تؤسس هُويّة أيامه. كان لديه جوعه ليتفكّر به، والطعام قريب، ليشحذ جسده الواهن. كان يلبس ساعة معصم من طراز (سيكو) القديم بسوار جلديّ بالٍ.

كان يعير صوت المطر انتباهاً في الأفلام الأجنبية، التي تقع أحداثها في أوروبا الشمالية أو الشرقية. بدا – أحياناً – أنّها إمّا أن تمطر خيراً أو موتاً.

كما تخيّل نفسه أحياناً أجنبيّاً، يمشي منحنياً وغير حليق في محيط المباني، رغم أنه لم يعرف سبب أن يكون هذا التّصرف أجنبيّاً. يمكنه أن يرى نفسه في حياة أخرى، في مدينة ما بلا اسم، في بيلا روسيا أو رومانيا. صنع الرومانيون أفلاماً مثيرة للاهتمام. قرأت فلوري مراجعات أفلامهم، أحياناً بصوت عالٍ. المخرجون الأجانب غالباً يطلق عليهم لقب أساتذة: الأساتذة التايوانيون، الأساتذة الإيرانيون. قالت له يجب أن تكون أجنبيّاً لتكون أستاذاً. شاهد نفسه يمشي إلى جانب المقاهي في مدن بيض وسود، وعربات تسوّق تمرّ إلى جانبه، ونساء يضعن أحمر الشفاه بفساتين جميلة. كانت هذه الرؤى تتلاشى في ثوانٍ لكن بطريقة مثيرة للفضول، حيواتهم كانت مليئة بالمشاغل.

ظنّت فلوري أن ليس عليه أن يتخيل حياة بديلة كأجنبي. كان فعلاً يعيش حياة بديلة في الحياة الواقعية، قالت، هو أستاذ مدرسة في أحد الأقاليم الخارجية. اجتمع هو وزملاؤه ذات ظهيرة في حانة محلية ووصفوا حيوات قد يعيشونها في ظل ظروف مختلفة. حيوات زائفة، حيوات مازحة، لكن على هوامش الاستساغة. ليو الأعمش[1] بعد عدة كؤوس يصبح أكثر تهوراً. هذه هي الحياة، حياته، الأفلام. ليو أقل الجميع، يقولون. الرّجل مرتبط بأرضه، عمليّ، أكثر رفاقه بساطة في التّفكير.

تخيّلت القصة السّابقة وهما يصعدان الطّابق الثّالث، شاهدته في الجهة الأخرى من الشّقة، جالساً على سريره، يفك رباط حذاءيه. لهذا كانا لا يزالان يعيشان معاً، قالت له؛ لأنّ طبيعته الصّلبة كانت أساس حياتها. كانت تحتاج فقط إلى ما كان في مدى بصرها، هذا الرجل الذي في جسد، في الجسد الضّخم، قواه الجاذبة التي تبقيها متوازنة.

---

1 – الأعمش: ضعيف البصر. (المترجمة)

وإلّا لكانت في مهب الرّيح، غير متّزنة، تأكل وتنام بشكل متقطع، لا تجد وقتاً للقيام بالأشياء: الشّقة، فاتورة الهاتف، التّسرب، العفن، كل الأشياء التي يجب أن تهرب منها طوال الوقت، قبل أن يجدوك ميتاً في رداء جدتك للنوم. لم يذهب ليو للطبيب، لكنها كانت تذهب إليه لأنّه لم يفعل. كانت تملأ الوصفات لأنه كان هناك، يمسح البلاط، ويخرج القمامة. لم يكن مضغوطاً، كان آمناً. لم تكن هناك انفجارات غضب في جسده.

لا يتذكر الناس سبب زواجهم بعد انصرام السّنوات، لكنّ ليو لم يتمكن من تذكّر سبب طلاقه. كان للأمر علاقة بوجهة نظر فلوري عن العالم. لقد ابتعدت عن الجيران، وشركة التّمثيل المحليّة، والمتطوعين لمساعدة المشرّدين، ثم توّقفت عن الانتخاب، توقّفت عن تناول اللحم، وتوقّفت عن كونها زوجة. لقد كرّست وقتاً أكثر لتمارين التّركيز، تدرّب نفسها على المحافظة على وضعيات جسد صعبة، تلتف على كرسي، تتدحرج في كتلة على الأرض، بلا حراك لفترات طويلة، تبدو غير واعية لما هو خارج عضلات معدتها، وفقراتها. بدا له أنّ محيط فلوري قد ابتلعها، على وشك أن تختفي من البصر، تتمسرح.

شاهدها وفكر في شيء كان قد سمعه أو قرأه قبل سنوات، في فصل الفلسفة.

جُلُّ الوجود الإنساني خدعة ضوئيّة.

حاول أن يتذكر سياق هذه الملاحظة. هل كان عن الكون ومكانتنا الزائلة والقصيّة كسكّان للأرض؟ أم كان شيئاً أكثر حميميّة، أشخاصاً في غرف، ما نشاهده وما يفوتنا، كيف نعبر ببعضنا، سنة بعد سنة، ثانية بعد ثانية؟

قالت له إنّهما توقّفا عن الحديث إلى بعضهما بما له معنى، كما توقفا عن ممارسة الحب الذي له معنى.

لكنهما كانا يحتاجان إلى أن يكونا هنا، أحدهما مع الآخر. أنهى فك

رباط حذاءيه ثم وقف والتف ورفع ظُلة النافذة. ظهرت وصلة التّحكم من الجانب حاول أن يقرر ما إذا كان سيعيدها إلى مكانها أو سيتركها كما هي، على الأقل في الوقت الحالي. وقف للحظة يواجه النّافذة، بالكاد اهتم بالضّوضاء والازدحام في الشّارع.

هنا كان يمضي جزءاً من حياته اليومية، رجل واقف، الأنفاق، ظهره إلى الباب. هو والآخرون، حيوات متوقفة، وجوه خاوية، وهي كذلك، جلست قرب نهاية السيارة. لم يكن عليه النّظر مباشرة إليها. كانت هناك، ورأسها للأسفل، تضم ركبتيها، الجزء العلوي من جسدها ملتف [كالأفعى].

سكون بين شخصين منقطعي الأنفاس وقت الذّروة منتصف النّهار، لكنها جلست كما لو أنّ الآخرين يحيطون بها. قال لنفسه إنها كانت تعتاد على الأنفاق. فكر بعدد من الأشياء. لقد فكّر في أنّها امرأة تعيش في ذاتها، بعيدة، متهرّبة، وأشياء أخرى. كان نظرها للأسفل وشاردة التّفكير، في اللاشيء. تفحّص اللوحات الإعلانية فوق النّوافذ، وهو يقرأ النسخة الإسبانية مراراً وتكراراً. لم يكن لديها أصدقاء، صديق واحد. لهذا اختار أن يعرّفها، حتّى الوقت الحاضر، في مراحل متقدمة من علاقتهما.

وصل القطار إلى المحطة، شارع (فورتي-سيكوند)، (بور أوثورتي). وقف بعيداً عن الباب وانتظر. لم تتحرك، لم يحرك هو ساكناً، كلاهما واقف، جسده يقابلها، يضغطها. في أيّ اتجاه كانت تنظر؟ إنها تشيح بنظرها عنه، إنهما يتأرجحان، أجساد يتحكم بميلانها تغيرات سرعة القطار المندفع عبر المحطات الآن، سرعة غير محددة.

هل كان يحتاج التّوقف عن التفكير لبعض الوقت؟ أم إنّ هذا ما يحتاج الجميع إليه؟ كل شخص هنا بعينين شاخصتين يفكر في شخص آخر في أيّ طريقة غير معروفة، مشاعر، وأمنيات، تصورات آفلة، غير مسلسلة تماماً من ثانية لأخرى.

كانت هناك كلمة يرغب في إطلاقها عليها. كانت مصطلحاً تأمليّاً أو

نفسيّاً وقد استغرق وقتاً طويلاً قبل أن يتمكن من الوصول إليه. مصابة بالأنوروكسيا، كلمة تحمل بين طياتها معنى الانتقام. لكنها لم تنطبق عليها تماماً، فهي ليست بذاك الهزال، لم تكن نحيلة للغاية، حتى إنها لم تكن شابة بما يكفي لتكون كذلك. هل كان يعرف سبب قيامه بتتبعها؟ من اللحظة التي اتخذ فيها قرار استخدام القطار الخاطئ، قطارها؟ لم يكن هناك ما يمكن معرفته. وفي غضون دقيقة، شاهد التّالي.

سرعان ما بدأ في ملاحقتها على طول الشارع في الحرارة المرتفعة والضوضاء من امتداد برودواي هذا إلى ردهة بدعائم متعدد هائلة. مرّت بأجهزة التذاكر الإلكترونية واقتربت من المحاسب في نهاية الردهة. ملصقات في كل مكان، أشخاص منتشرون. دخلَت المصعد، وفهم أنه لا يستطيع أن يغفل النّظر عنها الآن. صعد نحو جدارية هوليوود الضخمة ومنها إلى الطّابق الثاني المكسو بالسجاد. كان هناك رجل يقرأ كتاباً على الأريكة. مرّت بلوحات المفاتيح الإلكترونية وناولت تذكرتها إلى المرأة التي تقف عند مدخل صالات العرض.

كل هذه العناصر، تبدو مرتبطة، هنا وهناك، خطوة بخطوة، لكن بدون أيّ فكرة في عقله بخصوص نهاية هادفة - فقط حاجة لفعل ذلك.

توقف عند المدخل، وهو قادر على رؤيتها... وهي تدخل صالة عرض رقم 6. عاد إلى الردهة وطلب تذكرة دخول أيّاً كان الفيلم الذي يعرض في تلك الصّالة. طبعت البائعة تذكرته، ثم توجّه إلى المصعد، ومرّ بحارس الأمن الذي لم يكن مكترثاً... عند الطابق الثاني مجدداً ناول التّذكرة إلى المرأة بالزيّ الرسمي ومشى باتجاه كشك الطّعام الطويل، منحرفاً إلى صالة رقم 6. هناك ستة أشخاص في القاعة شبه المعتمة. تفحّص المقاعد ووجدها، في الصف الخامس، آخره.

لم يكن هذا باعثاً للرضا، إنّه يتعقّبها منذ نهاية الفيلم الأول إلى بداية الفيلم الآخر. شعر بوجود حاجة قد لبّاها فقط، وقلّل من توتر مبهم ألمّ به. كان في منتصف الطريق إلى الممر الجانبي، عندما قرر الجلوس مباشرة

خلفها. فاجأه هذا الاندفاع وتحرك إلى المقعد بتردد. إنّه بحاجة إلى أن يتأقلم مع حقيقة وجوده هناك. ثم أُضيئت الشاشة وبدت الإعلانات لهم كشيء من التعذيب في المختبرات، صور متلاحقة ومتسارعة.

كان الجسدان في المستوى نفسه، والعيون في المستوى نفسه، عيناه وعيناها. لكن الفيلم كان فيلمها، والقاعة قاعتها، وهو لم يكن مستعدّاً لهذا الالتباس. بدا الفيلم كمولود ميت. لم يتمكّن من تشرّب أحداثه. جلس برجلين منفرجين، وركبتين ملتصقتين بالكرسي الذي أمامه. كان يتنفس عليها عمليّاً، وهذا التّقارب جعله يفهم الأشياء التي لم تتّضح حتى الآن. كانت امرأة وحيدة. لا بدَّ أن هذا هو الحال. إنها تعيش وحدها، في غرفة واحدة، كما كان يفعل. كانت تلك هي السّنوات التي لها قوة في ذاكرته، والاختيار الذي قام به، حقيقة هذه الحياة، أصبح مشاهدة الأفلام. نظرت للأسفل إلى ألواح الأرض المِعْوجّة. لم يكن هناك حوض للاستحمام، فقط دوش بجوانب مغلقة والتي تصدر صوتاً عندما تميل عليها. إنها تنسى أن تستحم، تنسى أن تأكل. إنها تستلقي في السرير، بعينين مفتوحتين، وتكرر مشاهد من أفلام النهار، لقطة إثر لقطة. كانت تمتلك المقدرة على فعل ذلك. إنه طبيعيّ، إنه فطريّ. إنّها لا تكترث بالممثلين، بل بأدوارهم فقط؛ إنّهم من يتكلمون، وينظرون بحزن عبر النّوافذ، ويموتون ميتة شنيعة.

أزاح نظره عن الشاشة. رأسها وكتفاها، هذا ما كان ينظر إليه، امرأة تتجنب التّواصل مع الآخرين، وأحياناً تجلس في غرفتها مستندة على الحائط. إنّه يفكر فيها كروح حقيقية، دون أن يعرف حقيقة التعبير. هل هو متأكد من أنها لا تعيش مع والديها؟ هل تستطيع تدبر أمرها وحدها؟ إنها تكرّر أفلاماً معينة عدة مرات، على عكسه. سوف تطارد الأفلام الأسطورية حتى تقبض عليها، تلك التي تعرض مرّة كل عقد من الزّمن. يشاهد ليو أفلاماً كهذه فقط عندما يساق للعرض. سوف تكرس طاقاتها لتعثر وترى عملاً فنياً مراوغاً، طباعة تالفة، مشاهد مصوّرة مفقودة، زمن

عرضها إحدى عشرة ساعة، أو اثنتي عشرة ساعة، ما من أحد متأكد، تمثيل متميّز، نعمة - أن تسافر إلى لندن ولشبونة، وبراغ وربما إلى بروكلين فقط، وأنت جالس في غرفة مكتظّة بالناس وتشعر بأنك قد تحوّلت.

حسناً، إنه يفهم هذا. أنت تستعد للهروب من ظلك، هذه هي وظيفتك، من يوم لآخر. رأسك منحنٍ تقرأ صحيفة أو تنغمس في هاتف حتى تتمكن من مقارنة الفيلم بعدد مرات سفرك المتوقعة. وتقوم بتسجيل أسماء الأفلام، تكتب أوقاتها السّاعات، تلتزم بالخطة. هذا هو ما تفعله، فكّر بذلك.

أغمض عينيه لبعض الوقت. حاول أن يتخيّل جسدها عارياً أمام المرآة. بدت هزيلة، لا تتغذى بشكل سليم، تراقب نفسها، نصف متسائلة من هي هذه الإنسانة. فكّر في اسمها. كان يحتاج إلى اسم، طريقة يناديها فيها، شيء يعرفها عن طريقه. كان هناك منزل على الشاشة عندما فتح عينيه، وحيداً في حقل شتويّ. فكر فيها على أنها الجائعة. كان هذا هو اسمها.

كان في فيلاديلفيا، يوم افتتاحه، فيلم القيامة الآن، قبل ثلاثين عاماً، عرض التاسعة والعشرين دقيقة صباحاً، سينما (غولدمان) في الشارع الخمسين. كان في البلدة رغم وفاة والده وهو في السينما لأنه لم يستطع الابتعاد عنها، وصل في تمام التّاسعة بضمير يؤنّبه، موت والده ووفاة وشيكة لمارلون براندو في الفيلم. أورث والده ممتلكاته لعدد من أصدقائه الأوفياء والمال له. مبلغ مهم، مال للجزّار، والاتحاد.. سكّير.. مقامر.. أرمل.. أستاذ في فساد الذّمة والرغبات الأخرى.

ثم جاء اليوم، بعد عقود لاحقة، عندما مات براندو. نقل هذا الخبر عبر المذياع. مات مارلون عن عمر يناهز الثمانين عاماً. لم يكن هذا منطقيّاً بالنسبة لليو. براندو يناهز الثمانين. - براندو ناهز- أكثر منطقية من -براندو يناهز-. كان ذلك الشاب الذي يرتدي فانيلة بكمّين أو

صاحب دبابة الذي مات، السّترة الجلديّة، وليس الرجل العجوز ذي الخدّين المتورمين والصوت الخشن. في السوق المركزي لاحقاً، قبل أول عرض للأفلام في ذلك اليوم، توقع أن يسمع الناس يتحدثون عنه في طوابير الدّفع لكن كانت لديهم اهتمامات أخرى تشغلهم. هل أريد زيت الزيتون أو بخّاخ الكانولا؟ بالدّين أو بالبطاقة؟ وقف هناك يفكر في والده. وفاتان مرتبطتان ببعضهما دائماً، والمال، إرث والده، كان الشيء الذي سمح له في النهاية بمغادرة وظيفته في مكتب البريد بتشجيع من فلوري.

كانا قد بدآ يتعرفان إلى بعضهما في ذلك الحين. بدأ يملأ دفاتر الملاحظات فعلاً بحقائق وملاحظات، تفسيرات ذاتية، وقد وجدت هي ذلك مذهلاً. امتلك مجموعات من تلك الدفاتر المدرسية. لا يمكن قراءة خط يده فيها، نصف مليون كلمة، ملايين الكلمات، فيلماً بعد فيلم، يوماً بعد يوم، تأريخ ثقافي سيُستكشف بعد مئة عام من الآن، تاريخ كامل لرجل غريب. كان رجلاً جادّاً. هذا ما أحبته في ليو، قالت وهي جالسة على الأرض، بنظارة سوداء مربوطة حول رأسها. استحوذ الشغف على الرجل، انهماك تامّ لا يمكن التأثير فيه، وكانت الدفاتر دليلاً ماديّاً على هذا، أشياء يمكن أن تمسكها بيدك، كلمات يمكن أن تعدها، الحقيقة الملموسة لتفانٍ رهباني، وخطّه المبهم أضاف هالة من الغرابة على هذا المشروع، مثل سيناريو كتب بلغة مندثرة.

ثم توقّف عن التّدوين.

أفلام من كل نوع، من كل مكان، تشكّل خريطة العالم، ثمّ توقّف.

قال لها إنّه توقف لأنّ الدفاتر صارت سبب ذهابه للسينما. بدأت الدفاتر تستبدل بالأفلام. الأفلام لا تحتاج إلى مراجعات عن الأفلام.

كانت تريده أن يكون هناك فقط.

هل توقّفت عن قص شعره في تلك الفترة؟ لم يكن أكيداً.

كان يعرف منذ البداية أنه يتقدم نحو المستقبل دون أيام محدّدة يستلم فيها أجراً، أو إجازات، أو أعياد ميلاد، أو يهتم بها بالهلال أو البدر، أو وجبات الطّعام أو أخبار العالم. كان يريد مشاهدة الأفلام دون أيّ عنصر دخيل.

لم ينظر أبداً إلى بائعي التذاكر أو مستلميها. شخص ما ناوله التذكرة، أعاد تسليمها لشخص آخر. ظل هذا الفعل على حاله، تقريباً كل شيء ظل على حاله. لكن الآن يبدو له أنّ يومه ينتهي بعد ساعة من بدئه. كانت نهاية اليوم دائماً، لم يكن للأيام أسماء ولا يجب أن يهمّه هذا. لكن هناك شيء ما غير مستقر في أيام الأسبوع، ليس شعوراً بأهمية الوقت المستقبلي، بل بأهمية وقت قد مضى. صعد الدّرج المؤدي إلى منزله عند منتصف الليل. هنا والآن، ليلة بعد ليلة، أدرك هذا لوهلة، اقترب من الطابق الثالث، أبطأ حركته، احتاط ألّا يوقظ كلب الجيران ذا وجه الفأر. نهاية أخرى ليوم آخر. لقد انتهى اليوم السابق توّاً، في هذا المكان على الدّرج، بالخطوات الحذرة ذاتها. كان بإمكانه أن يرى نفسه بوضوح، الآن وسابقاً، حذراً.

تنسى التفاصيل حتى الليلة التّالية، عندما تكرر الشعور ذاته، في المكان ذاته، خطوة واحدة قبل الوصول.

سلكا أولاً حافلة البلدة ثم قطار الأنفاق، القطار السادس المؤدي إلى مركز البلدة. ظنّ أنهما يتّجهان إلى سينما في النّاحية الشرقية. وقد فكر أيضاً أنه يجب أن تكون هناك كلمة أخرى تتعدى (مصابة بالأنوروكسيا)، سوف تساعده على أن يراها بوضوح، كلمة ابتكرت لأمثالها، لينضموا إليها، كما لو كانوا قد ولدوا وترعرعوا ليدثروا أنفسهم بها.

شاهدها، على مسافة نصف سيارة.

لم تتحدث تقريباً. وعندما تحدثت، هل كان في كلامها لكنة، لهجة؟ اللهجة قد تكون مشوّقة، من مكان إسكندنافي، لكنه قرر أنه لا يريد لكنة في حديثها. لم يكن لديها هاتف. إنها تنسى أن تتسوق: طعام، أحذية،

أدوات النظافة - أو ترفض فكرة التسوق ببساطة. إنها تسمع أصواتاً، تسمع حوارات من أفلام شاهدتها وهي صغيرة.

ظلت في مكانها عندما وصلا إلى الشارع السادس والثمانين. أصابه هذا بالتوتر وبدأ الآن في عد توقّفاتهما. عندما امتلأ القطار، انطلق في وضح النهار. ووجد ليو نفسه يتفحص مشهد الشقق، مشاريع الإسكان، رسومات الغرافيتي والنهر.

إنها شاردة أيضاً، لربما تدمير ذاتي. هناك أوقات تسند فيها نفسها على الجدار. خطر في باله أن ما يفعله منطقي تماماً، أن يتعرّف إليها كمرأة تخلّصه من هذه الحياة، حياته، قدره المكتوب. لم تفزع من المقارنات المنطقية. إنها نقية، وهو ليس كذلك. هل تنسى اسمها؟ هل تعرف معنى العافية؟

تفحّص أسماء الشوارع على الخريطة الإلكترونية للطرق، نقاط تنطفئ واحدة تلو الأخرى... (ويتلوك)، (إلدر)، (موريسون)، عرف حينها موقعه. كان في (برونكس)، مما يعني أنه قد تاه عن الحدود المعروفة. انعكس ضوء السيارة على عينيه، مما جعله يشعر بأنه مكشوف، ومسلوب الغطاء... الهالة الواقية التي كان قد اختبرها في الشارع.

تقابله امرأة تحمل نصف سيجارة مستعملة، غير مشتعلة على المنصة. أخيراً، تبع السيدة الأخرى، تلك التي كان يتبعها من الشارع وإلى حي عريض فيه صف من المحلات، ومكاتب تخزين، وبقالة بنغلاديشية، ومطعم صيني-لاتيني. لقد توقف عن ملاحظة تفاصيل الشارع وشاهدها تمشي. بدا أنها تعتبر كل خطوة ككائن فيزيائيّ. تجاوزت الأوتوستراد وانعطفت إلى شارع فيه صف من المنازل. دخلت إلى أحدها، وصار الآن الشارع خالياً من الجميع سواه.

مشى ببطء عائداً إلى محطة القطار، دون أن يعرف ماذا استفاد. هل خالف كل شيء آمن به بخصوصها؟ هذا الشارع، هذه المنازل الأسَرية،

الصعوبة التي واجهتها في الوصول إلى صالات سينما مجتمعة في مانهاتن. بطريقة ما جعلها هذا أكثر سحراً. لقد أكد هذا إصرارها، عمق رسالتها.

كانت تقيم هنا لأنّها لم تتمكن من العيش وحدها. إنها تقيم مع أختها الأكبر سنّاً وأسرتها. الأسرة الوحيدة البيضاء المتبقية في هذا المربع السّكني. غريبة بينهم. لا تقول شيئاً عن المكان الذي ستقصده، ويندر أن تتناول طعامها مع الآخرين، ولن تتزوج إطلاقاً.

قد لا يكون هناك مصطلح أو اسم طبي لحالتها. كانت تتجول فقط، حرّة من أيّ تصنيف.

شعر بالحرارة، الحرارة البنغلاديشية، حرارة غرب الهند. قرأ الأسماء على نوافذ المشروعات المحلية. هذا ما تشاهده هي كل يوم: (تاتو مايهيم)، (ميتروبوليتان بريس آند ليمب). قرّر انتظارها على الدرج. ستظهر قريباً إذا اقترب موعد عرض فيلم ما لتستقل القطار. تناول شيئاً من معجنات (كابير) وانتظر، ثم ذهب إلى (دنكن دونت) وتناول شيئاً آخر وانتظر، نظر إلى خارج النافذة. أكان هذا أول طعام يتناوله طوال اليوم؟ هل كانت تأكل بينما كان يتناول طعامه؟ هل كانت الجائعة تأكل؟

توقف في الظلال عند الزاوية، قطارات تأتي وتذهب، أناس في كل مكان، وقد شاهدهم، نادراً ما كان يفعل هذا، عمَّ المساء ببطء. لا يوجد شيء غير عاديّ هنا، لكنّه شعر بالإرغام على التّمعن في المشهد، بحث عن شيء لم يتمكن من تعريفه، ثم شاهدها عبر الشارع، وكأنها ولدت كيلا يلاحظها غيره. رغبت في ذلك، حملته معها، النظرة الحذرة والجسد المضطرب، ميلها للعزلة، قصيّة عن اللمس. هل لمسها أيّ شخص في حياتها؟

إنها ترتدي سترة قاتمة اللون الآن، على شكل حرف V، ومظلة بارزة من حقيبة كتفها.

«خذي المظلة»، قالت أختها لها. «للطوارئ».

تبعها عبر الدرج إلى المنصّة، المسار السّابق ذاته، إلى مركز البلدة، وكانت هذه حقيقة أخرى عليه هضمها، إنهما لم يكونا عائدين إلى مانهاتن. مرّت بخمس نقاط توقف إلى نهاية المسار ثمّ ذهبت إلى شارع مستوٍ وصعدت حافلة متوقّفة. شعر بالضياع والحمق، تائهاً على غير هدى، وكأنّه ضحية استسلمت لشيء من التلاعب المضلّل. لقد شعر أيضاً أنه قريب من نقطة اختلال تواصله معها. وقفت الحافلة هناك، (بي. أكس. 29). صعد الناس وبعد فترة لحقهم، وشغل مقعداً قرب المقدمة. لم يحدث شيء لكن بدا أن الوقت يتسارع. بإمكانه أن يرى من النّافذة قرب حلول المساء، وأشياء حركتها مستمرّة. رجل وامرأة خلفه كانا يتكلمان باليونانية. اعتقد أن اليونانيين يقيمون في (كوينز).

شاهدوا المتنزهات، والطرق العريضة، والميادين، والتبديلات، ثمّ دخلت الحافلة مجمعاً ضخماً، مجمعات للتسوق متّصلة ببعضها تقريباً، أسماء وطنية في كل مكان، مشاريع ومحلات شاسعة المساحة، مئة شعار محلق، هناك خارجاً، وأبعد، شاهد الأنوار وأشكالاً منظمة من المباني الشاهقة الارتفاع.

كادت أن تلمس كتفه وهي تخرج من الحافلة، وحتى نزوله من الحافلة إلى مسار المشي لم يدرك أنه أمام صالة سينما. حدّق في الواجهة الشفافة. كان مستعدّاً ليرقبها من جديد. ها هي هناك في الرّدهة، جسدها يتحرك في طابور التذاكر. كان مستعدّاً لأن يثق باللحظة، أن يكون هو، كرجل متيقظ ومُتحفّز بعد حلم مفزع.

تفحّص قائمة الأفلام المعروضة وأوقات بدئها، واشترى تذكرة للفيلم الذي سيعرض. صعد بالمصعد إلى الطابق الثاني ودخل إلى القاعة الثّالثة. ها هي هناك في نهاية صف في المقدمة. شغل مقعداً حيث استطاع في هذه الصالة المزدحمة وحاول أن يفكر معها، أن يشعر بما كانت تشعر به.

شوق دائم، توق دائم لمشاهدة فيلم، مهما كان عنوانه، أو قصّته، أو

مخرجه. شوق للتّملص من الإخفاق. لم تكن هناك خيبات أمل البتة، لا من ناحيته، ولا من ناحيتها. كانا هنا كي يُغَلّفا، كي يُخترقا. سحر في الفيلم سيتغلغل فيهما ويتجاوزهما، وسيأخذهما معه.

كان هذا التشبيه البريء، تشبيهاً من الطفولة. هناك شيء آخر لم يتغلغل فيه، لكن ما هو؟ كأنّ الشيء لم يحاول أن يخترقه حتى الآن. غموض أن يكون ذاته، وفهم لماذا احتاج إلى شعور التّغلغل. لقد استشعر السبب فيها، عرف أنه هنا لأنّ حياتهما مشطورة. لم يملك أيّ منهما ذاتاً أخرى. لم تكن لديهما ذات مزيفة. لا مظهر خادع. مجرّدان من النّفاق الذي يصيب الآخرين وكأنّه فطري. كان وجهها مجرّداً، يعرّي ذاتها، وربما لهذا السبب كانا هنا، ليكونا آمنين. كان العالم هناك، مؤطراً في الشاشة، محرّراً ومصوّباً ومُحْكماً، وهما هنا، حيث انتميا، في العتمة المنعزلة، يكونان ما هما عليه، آمنيْن.

تحدث الأفلام في الظّلمة. هذه حقيقة مستترة، تعثّر بها الآن فقط.

استغرق زمناً ليدرك أن هذا الفيلم هو ذاته الذي شاهده أمس، خارج مركز المدينة، في (باتيري بارك). لم يعرف كيف يجب أن يشعر نحوه. قرّر ألّا يشعر بالغباء. ماذا سيحدث عندما ينتهي الفيلم؟ يجب ألّا يشغل نفسه بهذه الفكرة.

شاهده وقد انتهى بالطريقة ذاتها التي انتهى بها قبل أربع وعشرين ساعة. ظلّت في مقعدها بعد انتهاء الفيلم. قام بالفعل ذاته وهو ينتظرها أن تقف، خمس عشرة دقيقة كاملة. لقد أدرك المعنى. انتهى الفيلم. لا رغبة في المغادرة، لا شيء خارج السينما عدا حرارة تتصاعد من الإسفلت. هنا ينتميان، في صفوف مرتّبة من المقاعد الخاوية، دون خيارات زائفة. هل أراد امتلاكها، أم لمسها لمرّة واحدة فقط، أم سماعها وهي تلفظ بعض كلمات؟ لمسة واحدة قد تطفئ رغبته. رائحة المكان هي رائحة المقاعد، غبار الأجساد الدافئة.

كانت دورات المياه في آخر الرّواق. بدا ذلك الاتجاه خالياً. وقف في

الرواق، وهو يفكّر، ويحاول أن يفكّر. لم يكن هناك ما يثق به عدا صفاء عقله. شعر بأنّه ساعة عمودية تنتظر خروج النّساء الأخريات منه - إذا كنّ أصلاً في الدّاخل. لم يكن واثقاً من خطوته التّالية. مشى إلى آخر الرّواق ودفع باب دورة المياه المفتوح. كانت عند حوض الغسيل بعيداً عن الباب، تغسل وجهها بالماء، وحقيبة الظهر عند قدميها. رفعت رأسها وشاهدته. لم يحدث شيء، *لم يحرّك أيّ منهما ساكناً*، ثم نظر إلى عدد من المراحيض، غير مشغولة، الأبواب مشرّعة. كان هذا فعلاً تحريضياً، حازماً وشديد الأثر، لكنّها ابتعدت نحو الجدار البعيد.

سادت فترات صمت، شعور بالتّوقف والحركة. كانت تنظر إلى جانبه. لها وجه وعينا امرأة أزليّة، امرأة في لوحة فيها ستائر معلّقة وطيّات. كان يريد أن يقول أحدهما شيئاً.

قال لها: «صنبور دورة مياه الرجال لا يعمل».

بدت جملة غير تامّة المعنى.

«وجئتّ إلى هنا كي أغسل يديّ».

لم يعرف ماذا سيحدث لاحقاً. كان لمعان المرحاض الأبيض قاتلاً. شعر بالعرق على كتفيه وأسفل ظهره. حتى لو لم تكن تواجهه مباشرة، كانت في مدى بصره. ماذا سيحدث إذا نظرت إليه مباشرة، عيناً بعين؟ هل هذه النظرة التي كانت تخشاها، النّظرة التي تؤدي إلى فعل؟

لم يتحرك أيّ منهما.

أومأ برأسه لها، بشكل مبهم. وجهها ويداها ما زالا مبلّلين. مدّت ذراعاً واحدة أمامها، لم يبدُ فعلاً دفاعيّاً بالنسبة له. لم تكن تتحاشاه، أو تحاول اتّقاءه، لكنّها أخذت على حين غرّة، ذراعها الأخرى إلى جانبها، وراحة يدها على الحائط.

حاول أن يتخيّل كيف تراه. إنّه رجل ضخم البنية، ومتقدّم في العمر. كيف يبدو للآخرين؟

لم يملك أدنى فكرة.

شعر بشيء من الاختلاج في ذراعه اليمنى. أغلق قبضته، فقط ليرى إذا كان بإمكانه ذلك. ما يجب فعله الآن هو أن يجعل نفسه معروفاً، أن يعرّف عن نفسه، لها وله.

قال: «لا زلت أفكر في الفيلم الياباني الذي شاهدته قبل عشرة أعوام. كانت المشاهد بتدرجات اللون البنيّ، رماديّة بنيّة، مدة عرضه ثلاث ساعات ونصف ربّما، عرض ما بعد الظهيرة في التايمز سكوير، لم تعد دار العرض موجودة، ولا أستطيع تذكر عنوان الفيلم. لا بد أنّ النّسيان يقودني إلى الجنون لكنه لم يفعل. أصاب ذاكرتي العطب؛ لأنّي لا أنام جيداً. النوم والذاكرة مترابطان. في الفيلم حافلة قد اختطفت، وقتلى، كنت الوحيد في صالة العرض. كانت السينما تقع تحت محل ضخم يبيع الأقراص الممغنطة والمدمجة، سماعات الرأس، أشرطة الفيديو، جميع أنواع المعدات الصوتية. أسفل المحل ببضع درجات هناك سينما تبتاعين التّذكرة وتدخلين. اعتدت أن أعرف كل شيء عن كل فيلم شاهدته لكن هذا يتلاشى الآن. يخجلني ألّا أعرف ثلاث أو أربع ساعات. يجب أن أتحدث عن الدقائق، عدد الدّقائق الدّقيق المكافئ لزمن عرض الفيلم».

كان صوته مميزاً. يسمع نفسه كما لو كان يستمع إلى صوت شخص آخر وهو يتحدث. صوت متّزن، دون أيّ تغيير في نبرته، وبحّة واضحة.

تابع كلامه قائلاً: «كل من الرّواق والسينما خاويان على عروشهما. لا أحد في أيّ منهما. هل كان هناك مكان للمرطّبات؟ هذا أقصى ما أتذكره، التّجربة ذاتها، وحيداً في هذا المكان أشاهد فيلماً بلغة لا أفهمها، بترجمة، هنا في الشارع، غرائب وأشباه قبور، مسافرون قتلى، مات مختطف الحافلة، نجا السائق، وعدد من الأطفال. اعتدت على حفظ كل عناوين الأفلام الأجنبية بالإنجليزية إضافة إلى اللغة الأصلية، لكن ذاكرتي تلفت. شيء واحد لم يتغير بالنّسبة لكِ أو لي. نحن نرتب النّهار، أليس كذلك؟ يومنا مدوّن، منظم، نحن نستشعره. وما إنِ نكون في مقعدينا ويبدأ الفيلم، يكون كشيء نعرفه دائماً، مرة بعد مرة، لكننا لا

نستطيع فعلاً مشاركته مع الآخرين. نشأ ستانلي كوبريك في برونكس لكن بعيداً عن مقر إقامتك. توني كورتيس، برونكس، برنارد شوارتز. أنا من فيلادلفيا أصلاً. شاهدت فيلم **المسافر** في سينما اسمها تسعة عشر. الذكريات القديمة تبقى فترة أطول من الذكريات الحديثة، شارع تسعة عشر جستنت. كان هناك رجل ضخم البنية في الرّواق، عرض الواحدة وعشر دقائق، ينتعل حذاءين مدببين بلا جوربين. لا أظن أن الناس قد نظروا إلى أصابعه. لم يرغب أحد في فعل ذلك. ثم جئت إلى نيويورك وبدأ غطاء المصباح في الاحتراق. دون أيّ سبب، شرارة. لا أملك أيّ فكرة عن إطفاء الحرائق. هل أرمي منشفة مبللة على الغطاء المحترق؟ لا أملك أدنى فكرة. النوم والذاكرة، شيئان مترابطان. لكن ما أقصد قوله عن الفيلم الياباني في البداية، هو أنّي ذهبت إلى دورة مياه الرجال ولم يعمل الصنبور. لم يكن هناك ماء لأغسل يديّ. هذا ما جعلني أبدأ هذا المشروع بأكمله. المراحيض في دورات مياه الرجال تلك، والمغاسل في دورات مياه النساء، الأمر منطقي في دورات مياه الرجال، وغير حقيقي ككل شيء آخر. لا أشخاص، مكان المرطبات خالٍ، مرحاض في غاية النظافة، لا ماء جارٍ. فجئت إلى هنا، لغسل يدي» قال.

الباب خلفه كان مفتوحاً. لم يلتفت ليشاهد من جاء. شخص ما كان يقف خلفه شاهداً على ما دار هنا. رجل في دورة مياه النساء، هذا كل ما احتاج الشاهد لرؤيته، رجل يقف إلى جانب صف من أحواض الغسيل، وامرأة عند الجدار. أكان الرّجل يهدد المرأة التي عند الجدار؟ أكان الرّجل ينوي الاقتراب من المرأة ورمي ثقله عليها وإسنادها على بلاط الجدار القاسي، والنّور مضاء؟ قد يكون الشاهد امرأة أيضاً، فكّر. لا حاجة للالتفات والنّظر. ماذا سأفعل لهما؟ للشاهد والجائعة؟ لم تكن هذه فكرة بل صور متداخلة مموّهة، إنّها فكرة أيضاً. كاد أن يغمض عينيه كي يشاهدها بشكل أوضح.

ثم ابتعدت عن الحائط. تقدمت خطوتين منه، انتزعت حقيبتها من

على الأرض ومرت بسرعة إلى جانب المغاسل وتجاوزته. لقد ذهبتا، كلتا المرأتين. شاهد ليو نفسه في يأس وإحباط وقد جثا على ركبتيه، ويداه على صدره، مشاهد من كل مكان، بليون دقيقة حيّة، تجمّعت في هذه الشّخص الثّابت.

غير أنّه ظل في مكانه، واقفاً. استدار نحو حوض الغسيل وحدّق فيه برهة. فتح الماء وضغط على وعاء الصّابون، غسل يديه بشكل جيد ومنتظم، كما لو أنه يلتزم بإرشادات غسل اليد. توقف، تذكر ما حدث، ثم أخذ منديلاً ورقيّاً، وآخر، وآخر إضافيّاً.

كان الرّواق خالياً. عدد من الأشخاص يصعدون المصعد، فيلم متأخر على وشك البدء. وقف وشاهدهم، وهو يحاول أن يقرر البقاء أو الذهاب.

بلّله المطر. صعد العتبات ببطء. تذّكر اللحظة المشابهة للّيلة السابقة، وشاهد نفسه يصعد العتبة، نهاية يوم تنهار في الأخرى.

دخل إلى شقّته بهدوء، وجلس على سريره، وفك رباط حذاءيه. ثم نظر إلى الأعلى، وهو ما يزال منتعلاً حذاءيه. شيء ما غير صائب في الشّقة. كانت الإضاءة خافتة على حوض الغسيل في المطبخ، وكانت تتلألأ. شاهد شخصاً ما أمام النافذة البعيدة، فلوري، تقف بلا حركة. بدأ يكلّمها، لكنه سرعان ما توقّف. كانت ترتدي جوارب طويلة وبلوزة منخفضة، تقف على رجلين مضمومتين، ويداها مرفوعتان بمحاذاة رأسها، وراحتا يديها إلى أعلى. لم يكن متأكداً إذا ما كانت تنظر إليه، وإذا كانت تنظر إليه، لم يكن متأكداً من أنّها تشاهده.

لم يتحرك، جلس وراقب فقط. بدا شيئاً بسيطاً؛ امرأة تقف في غرفة، مسألة ثبات واتّزان. لكنّ مرور الوقت جعل لوضعيتها معنى، وحتى تاريخاً، رغم أنه تاريخ لم يتمكن من فهمه. قدمان عاريتان، رجلان تكادان تلمسان ركبتيها ووركيها، والذراعان المفتوحتان يكوّنان مساحة فارغة من جانبي رأسها. طريقة تداخل اليدين، الجسد الممدد، تماثل،

انضباط جعله يصدق أنه كان يشاهد شيئاً فيها لم يكن قد انتبه إليه من قبل، حقيقتها وعمق تفكيرها أظهرا له من هي. فقد إحساسه بالزّمن. قرر أن يبقى ساكناً طوال فترة فعلها لذلك. شاهدها بتمعن، تنفّس بانتظام، دون إخلال.

ستختفي، إذا أغمض عينيه.

المترجمة في سطور:

- دلال مصطفى نصر الله 1987.
- لها إسهامات في ترجمة الأفلام والأوبرات الإيطالية.

من ترجماتها:

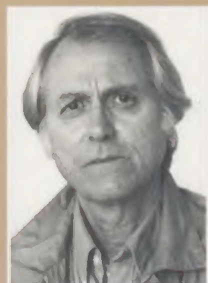
- ناسك في باريس - إيتالو كالفينو
- وودي آلن عن وودي آلن - ستيج بيوركمان
- قُضاة - (ثلاثة مؤلفين إيطاليين)
- 84، شارع تشيرنغ كروس - هيلين هانف

«مبهرة للغاية... ستوفّر هذه المجموعة الرضا لمعجبي ديليلو، وهي كذلك أفضل مقدمة لأولئك الذين لم يكتشفوا عالمه الاستحواذي».

Daily Telegraph

«أنا أحب أدب ديليلو... هذه القصص التسع تضيف شيئاً أساسيّاً، وتكوّن إضافة جوهرية للمتن الأدبي... خارجية جدّاً. نحن نقرأ خيالاً لنستمتع بوقتنا - وهذا لا يمنع أن الرّب قد أمدّ ديليلو بهوائيات بصريّة. هناك اتجاه اليمين وهناك اتجاه اليسار، إنه يأتي من اتجاه ثالث - مائل، ومنحرف. أنا أحب الملاك إزميرالدا...».

«Martin Amis, New Yorker»



«إن قصص دو ديليلو القصيرة والمكثّفة هي جهد أستاذ حقيقي... في هذه القصص أو الأحلام العميقة - أسلوب يفتقر إلى العاطفة أحياناً أو قد يكون مضحكاً بشكل حزين، إنّها مكتوبة دائماً بحرفية عالية - فديليلو يعزل تلك الفكرة الشّاردة، ويصنع منها أدباً عظيماً...».

Guardian

«دون ديليلو عليم بالفوضى، ورأيه ككاتب في الكوارث مميز. يعتبر في زمننا هذا شاهداً، ومُفكراً، ومُنفصلاً، ودقيقاً... إنّه مهذب، وكتوم، وخفيف الظل... ولديه غطرسة مذهلة، ومقلقة، ونتاجه الأدبي أثري لكنه معاصر».

John Banville, Financial Times

«قراءة الملاك إزميرالدا تذكرني بسبب عبقرية ديليلو، وتجعلني متفائلاً بخصوص كل ما سيكتبه لاحقاً».

Scotland on Sunday


ISBN 978-2843092121
9 782843 092121